ذخائر الأعلاق

شرح ترجمان الأشواق

للشيخ الأكبر **محيي الدين بن عربي**

حقّقه وعلّق عليه

محمد عبدالرحمن الكردي

دار بيبليون

باريس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين المفيض على عباده المخلصين من أنواره القدسية ما يفتح لهم أبواب المعارف والحقائق الإلهية، فيشاهدوا عظمته ويدركوا عن طريق مخلوقاته صفاته ، والصلاة والسلام على أشرف رسله وأكرم خلقه ، وأفضل من عرف لله حقه ، وعلى آله وأصحابه الذين غمرهم نوره صلى الله عليه وسلم حتى أصبح عرش ربهم بارزاً أمامهم ، والجنة واضحة يعاينون تزاور أهلها ، والنار بلهيبها مسعرة يسمعون عواء أهلها ، فلزموا باب الله لا يبرحونه طمعاً فى رضاه .

وبعد ؛ فهذا كتاب نفيس له قدر عال عند أهل القلوب والأخلاق ، وهم من عرفوا بالصوفية الذين شغلهم تعلقهم بالله عن كل ما يحيط بهم من العوالم ففنوا فى ذاته وغرقوا فى محبته ، فتحقق فيهم « كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به فبى يسمع وبى يبصر » تفتحت قلوبهم على أنواره فهامت فى حبه ، وعبرت عن مشاهدتها بلسان الخلق فى عبارات تقصر أو تطول ، فتصهر قلوب سامعيها وتذيبها شوقاً لخالقها لأنها خرجت من قلوب عامرة وعت وعملت بما تقول قبل أن تنطق بلسانها ، وقد كثر

هؤلاء وألفت فيهم الكتب ، وكثر كلام الناس حولهم وانقسموا طائفتين :
طائفة ممن أضيئت قلوبهم فشعروا بجمالهم وأنس مشاهدتهم .

وأخرى لم يكتب لهم التوفيق فحاربوهم وشهروا بهم .

لا يعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومن هؤلاء الذين دارت حولهم المعارك الشيخ الأكبر سلطان العارفين
سيدى محيي الدين المعروف بابن عربى فى المشرق ، وابن العربى فى المغرب ،
الذى ألف كتباً عدة فى التصوف هى جنات فيحاء ملئت بأنواع المعارف
فى أسلوب أدبى راق وذوق عال ، نقدم للقارىء العزيز منها كتابه
« ذخائر الأعلاق » الذى شرح فيه ديوانه « ترجمان الأشواق » .

هذا الديوان الذى نظمه أثناء اعتماره فى رجب وشعبان ورمضان
فى حالة تجل إلهى وصفاء روحى رقت فيه حجب النفس ، وذلك سنة ثمان
وتسعين وخمسمائة من هجرة سيد المرسلين ، حين التقى بأكابر العلماء
والصلحاء والزهاد بين رجال ونساء ، وأعجبه منهم الشيخ العالم المتعلق بربه
مكين الدين أبى شجاع زاهر بن رستم بن أبى الرجاء الأصفهانى البغدادى
الفقيه الشافعى الزاهد الذى جمع الفضائل ، وأخته العالمة المسنة التى سمع عن
علمها وطلبه منها ، فأذنت لأخيها أن يكتب له نيابة عنها إجازة عنها
فى جميع مروياتها ، وابنة هذا العالم الزاهد الورع الذى أغرم بالإغراق

فى وصفها لأنه جعلها محور شعره فى هذا الديوان يقول : بعد وصفه لها الذى سنطالعه فى مقدمة هذا الشرح : فراعينا فى صحبتها كريم ذاتها مع ما انضاف إلى ذلك من صحبة العمة والوالد فلقد قلدنا من نظمنا فى هذا الكتاب أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق ، أو عبارات الغزل اللائق ، ولم أبلغ فى ذلك بعض ما تجده النفس ويثيره الأنس . ولكن نظمنا فيها بعض خاطر الاشتياق من تلك الذخائر والأعلاق ، فكل اسم أذكره فى هذا الجزء فعنها أكنى ، وكل دار أندبها فدارها أعنى ، ولم أزل فيما نظمته فى هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية والمناسبات العلوية جرياً على طريقتنا المثلى ، فإن الآخرة خير لنا من الأولى ، ولعلمها رضى الله عنها بما إليه أشير ولا ينبئك مثل خبير ، فهو قد اتخذ من هذه الفتاة اللطيفة رمزاً لما يريد إظهاره وكشفه من الواردات والأنوار .

وليس قصده الغزل أو وصف النساء فحين يتحدث عن الفتاة الرومية التى وصفها فيه بأوصاف الأنوثة التامة نجد أننا لا يمكننا أن نقول إنها امرأة حقيقية ، ولكن نقول إنها نفسه جردها ، ودار الحديث بينها وبينه والنفس شأنها اللطافة والرقة ، فاختار لها أنثى رومية ، والروميات يومئذ مضرب المثل فى الجمال والبياض ، فاتخذ منها رمزاً للصفاء والجمال الذى أحس به ، وكيف يقول قائل غير هذا ، والشيخ حين يحكيها عن نفسه

يقول : كنت أطوف ذات ليلة بالبيت ، فطاب وقتى وهزنى حال كنت أعرفه ، فخرجت من البلاط من أجل الناس ، وطفت على الرمل فحضرتنى أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى ، فالحالة هذه حالة روحانية وجدانية بحتة يدور فيها الحوار بين الإنسان ونفسه حول صدقه فى دعواه ومقدار صدقه وماذا فعل .

هذا هو مقصود الشيخ من شعره الغزلى ، أما لماذا سلك طريق الغزل والتشبيب وأغرق فيه ،وذكر كريمات جماهن مدار غزله ، بينما يقصد معارف ربانية وأنواراً إلهية وغير ذلك ؟

فيجيب : جعلت العبارة عن ذلك بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبارات ، فتتوفر الدواعى على الإصغاء إليها ، وهو لسان كل أديب ظريف روحانى لطيف .

ولقد أحدث هذا الشعر دوياً وأقاويل حوله مما جعل بدراً الحبشى [1] وإسماعيل بن سودكين [2] يطلبان إليه شرح هذا الديوان .

---

(١) بدر الحبشى الأمير الكبير كان أميراً على فارس بدمشق ، واستمر نحواً من أربعين سنة كان خيراً ديناً معمراً موصوفاً بالشهامة والعقل والرأى توفى عام ٦٩٨ هـ .

(٢) إسماعيل بن سودكين ابو الطاهر النورى الحنفى توفى عام ٦٤٦ هـ.

وحين شرحه كان ذلك سبباً فى رجوع من أنكر على الشيخ حاله ، وما يأتى به فى كلامه من الغزل والتشبيب ويقصد بذلك الأسرار الإلهية ، وقد كشف هو النقاب عن ذلك بما أشار به إلى معارف ربانية وأنوار إلهية وأسرار روحانية وعلوم عقلية وتنبيهات شرعية .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه فى غزله وزيادة على ما أوردنا قوله : « والله يعصم قارىء هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية والهمم العلية المتعلقة بالأمور السماوية آمين بعزة من لا رب غيره ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

والناظر فى شعره وشرحه يشعر بثقافة الشيخ اللغوية الواسعة ، وعلمه بالحديث ، وكيف يستخدم اللفظ الذى يساعده إلى الوصول إلى غرضه من ذلك استعماله للفظ قيس فى الشدة لأن من معانيه اللغوية الشدة ، وهكذا تشعر وأنت تقرؤه برصيد لغوى ضخم قدمه لنا فى هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير القدر الذى شرح فيه بعض أحوال العارفين وطريق سلوكهم إلى الله ، وكيف يكون الأدب مع الله ومع الناس ، لهذا لم يكن هناك فرق بين موضوع قصائده حتى يميزها ، وإنما هى أحوال وأنوار عرضت له فترجمها فى شعره مخالفاً فى وزنه أحياناً وفى قافيته أحياناً أخرى ، وإن لم يتغير الموضوع المتحدث عنه كما ستشاهد ذلك أثناء قراءتك له .

من أجل هذا أردنا أن نقدمه للقراء حتى يتسنى لنا أن نرى الشيخ

الأكبر فى أحواله مع الله ، وحديثه عن المقـامات والصحبة ، أما عملنا فيه :

١ ـــ ضبط ما احتاج إلى ضبط مع تصويب ما أصاب بعض ألفاظه من تحريف .

٢ ـــ التعليق عليه بما يكشف بعض جوانب غامضة منه .

٣ ـــ بيان بعض الأحاديث التى جاءت فيه .

ولما كنا حريصين على كشف نهجه ، وأنه يرسم طريق السلوك إلى الله ، وأن الصحبة هى المفيدة فى الوصول إلى الله إذا التزم معها جانب الأدب مع المربى ، لذلك ألحقت به رسالته

« الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل طريق الله من الشروط »

حتى يمكن الانتفاع بها

وأرجو أن أكون بذلك قد وفقت فيما قصدت إليه جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

المعلق

دكتور

محمد عبد الرحمن نجم الدين الكردى

القاهرة فى رمضان سنة ١٣٨٨

نوفمبر سنة ١٩٦٨

ترجمة المؤلف

نسبه :

أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى الطائى أطلق عليه فى بلاد الأندلس « ابن العربى » بالألف واللام أما فى الشرق فكانوا يطلقون عليه « ابن عربى » بغير الألف واللام تمييزا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى المعافرى . قاضى قضاة اشبيلية الذى رحل إلى الشرق وتوفى به سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة .

مولده :

ولد رضى الله تعالى عنه يوم الإثنين سابع عشر من رمضان المعظم سنة ستين وخمسمائة هجرية فى مدينة « مرسية » بالأندلس من أبوين كريمين عرفا بالصلاح فأبوه على بن محمد المداوم على قراءة القرآن وأمه السيدة الصالحة « نور » ، فقد نشأ بين أبوين متدينين متأثرا بهما عاملا بتوجيهاتهما الدينية .

أما أسرته :

فمن أعمامه : أبو مسلم الخولانى الصوفى صاحب المجاهدات الشاقة .

ومن أخواله : يحيى بن غفان ملك تلمسان الذى لقيه أبو عبد الله

التونسى ، العابد الزاهد فى موكبه وتحدث إليه فخرج عن ملكه ولزم خدمة الشيخ .

شيوخه :

رحل ابن عربى مع أسرته إلى أسبيلية وهناك أخذ القراءات عن أبى بكر محمد بن خلف اللخمى الأشبيلى وأبى الحسن بن محمد بن شريح الرعينى وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد القرطبي المعروف بالشراط . وأخذ الحديث والفقه والأدب عن : أبى عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد المعروف بابن زرقون . وأبى محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين ابن سعيد الأزدى الأشبيلى . وأبى بكر محمد بن عبد الله بن عبد الله بن يحيي بن الجد وأبى القاسم جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل الحرستانى وقد أكب الشيخ على قراءة الكتب ليروى غلته .

ومن شيوخه فى التصوف : موسى البيدرانى . وأبى عمران موسى ابن عمران المارتلى . وأبى الحجاج يوسف الشبربلى . وأبى عبد الله بن قيسوم . وأبى عبد الله بن المجاهد . ويوسف الكومى . وأبى مدين شعيب ابن الحسين الأندلسى . وأبى العباس العربنى . كما خدم من وراء حجاب المرأة العابدة العارفة بربها فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي التى جاوزت التسعين عند خدمته لها وكانت تدعوه بابنها وتقول له : أنا أمك الإلهية و « نور » أمك الترابية .

رحلاته :

لما سلك طريق الصوفية بدأ فى رحلاته فطاف بلاد الأندلس ثم انتقل إلى بلاد المغرب ومنها إلى تونس ، ومصر ، ثم مكة المكرمة واتصل بعلمائها وتوثقت الصلة بينه وبين أبى شجاع مكين الدين زاهر بن رستم إمام مقام إبراهيم وفيها أنشأ هذا الديوان الذى نقدمه لك وطاف بربوع مكة والطائف متنقلا بين الآثار النبوية متلمسا بركة الأماكن التى شرفت بأعظم البشر ، وأصحابه من مكة إلى الطائف إلى المدينة المنورة ثم أخذ يجوب البلاد شرقا حتى وصل آسيا الصغرى وهى أرمينيه وتركيا والأناضول ثم عاد إلى العراق وجاب البلاد الاسلامية وكان فى كل ذلك يرجع إلى مكة والمدينة للتزود منهما بزاده الروحى حتى يتمكن من مواصلة رحلاته التى اتصل فيها بالعلماء من الصوفية وغيرهم وجالسهم وأخذ عنهم وأخذوا منه كالسهروردى وغيره .

ثم استقر به المقام فى دمشق وقضى بها بقية عمره حتى وافته منيته فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة بدمشق فى دار القاضى محيى الدين بن الذكى وحمل إلى قاسيون فدفن فى تربته المعروفة إلى الآن .

أخلاقه :

أ كانت أخلاق الشيخ الأكبر سلطان العارفين كما لقبه العلماء محمدية

حقا لا يأمر إلا بما يفعله هو يسبق عمله قوله فحين طاف ببلاد الروم والتقى بملك (قونية) فأجله وأكرمه ووهب له دارا ، قدرت بمائة ألف درهم فلما نزلها وأقام بها . مر به سائل . فقال : شيء لله . فقال : مالى غير هذه الدار تخذهاالك فتسلمها السائل وحين استقر بدمشق وأقبلت عليه الدنيا وحملت إليه عطايا ملوك الأرض وسادتها فكان يتصدق بكل ما يصل إليه حتى لقب بريح الكرم كما كان العفو والصفح ـ وخاصة عن خصومه ـ من ذلك أنه كان بدمشق رجل فرض على نفسه أن يلعنه كل يوم عشر مرات فمات وحضر ابن عربى جنازته ثم رجع فجلس فى بيته وتوجه للقبلة فلما جاء وقت الغداء أحضر إليه الطعام فلم يأكل ولم يزل على حاله إلى ما بعد العشاء ثم التفت مسرورا وطلب العشاء وأكل . فقيل له فى ذلك . فقال : التزمت مع الله أنى لا آكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذى يلعننى وذكرت له سبعين ألف لا إله إلا الله فغفر له .

وقد أوذى الشيخ كثيراً فى حياته وبعد مماته بما لم يقع نظيره لغيره .

مكانته بين العلماء :

قال شيخ الإسلام المخزومى « وقد كان الشيخ بالشام كعبة للقاصدين ومثابة للمتفقهين . يتردد إليه العلماء ويحف به الأوباء ويلوذ به الأوفياء يعترفون له جميعا بجلالة المقدار . وأنه أستاذ المحققين من غير إنكار وقد

أقام بين أظهرهم أمدا طويلا يكتبون مؤلفـاته ويتـداولونها بينهم ويسألونه الدعاء .

وحين اجتمع الشيخ محيي الدين فى بغداد بالأمام السهروردى فأطرق كل منهما ساعة ثم افترقا فقيل لابن عربى ما تقول فى السهروردى فقال : مملوء سنة من مفرقه إلى قدمه وقيل للسهروردى ما تقول فى محيي الدين فقال : بحر الحقائق وإمام العارفين وكفى بها شهادة من السهروردى إمام عصره بلا منازع .

وقال عنه الحافظ ابن حجر : كان عارفاً بالآثار والسنن قوى المشاركة فى العلوم أخذ الحديث عن جمع وكان يكتب الإنشاء لبعض ملوك المغرب ثم تزهد وساح ودخل الحرمين والشام وله فى كل بلد دخلها مآثر .

وقال الصفى ابن أبى منصور : جمع ابن عربى بين العلوم الكسبية والعلوم الوهبية وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضا . وقد شهد له كثير من العلماء كما نفس عليه ما منحه الله آخرون فشهروا به وحاربوه بكلامه الذى اعتبروه خروجا منه وقال عنه الشيخ أحمد المقرى المغربى فى كتابه زهر الرياض فى أخبار عياض : والذى اعتقده ، ولا يصح غيره أن الامام ابن عربى ولى صالح وعالم ناصح وإنما فوق إليه سهام الملامة من لم يفهم كلامه على أنه دست فى كتبه مقالات قدره يجل عنها ، وقال المناوى : وفريق قصد بالإنـكار عليه وعلى أتباعه .

الانتصار لحظ نفسه لكونه وجد قرينه وعصريه يعتقده وينتصر له فحملته حمية الجاهلية على معاكسته فبالغ فى خذلانه وخذلان أتباعه ومعتقديه وقد شوهد عود الخذلان والخمول على هذا الفريق وعدم الانتفاع بعلومهم وبتصانيفهم على حسنها ونختم الكلام حوله بقول بعض العلماء لرجل قدسأله أن يقرأ عليه تائية ابن الفارض فقال له : دع عنك هذا من جاع جوع القوم وسهر سهرهم رأى ما رأوا .

مؤلفاته :

ألف الشيخ نحوا من أربعمائة كتاب ورسالة من المطبوع منها : الفتوحات المكية ، محاضرة الابرار ومسامرة الأخيار ، فصوص الحكم مفاتيح الغيب كنه مالابد المريد منه ، مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم ، روح القدس ، الأنوار ، شجرة الكون التدبيرات الالهية فى المملكة الانسانية .

ومن المخطوطات :

الأسرى إلى مقام الأسرى ، التوقيعات ، مشاهد الأسرار القدسية ، الدعاء المختوم ، مراتب العلم الموهوب ، مرآة المعانى ، مقام القربى شرح أسماء الله الحسنى ، حيلة الابدال ، اللمعة النورانية ، تحرير البيان فى تقرير شعب الايمان وغير ذلك من الكتب المطبوعة والمخطوطة التى يطول ذكرها .

ونختم ترجمته ببعض كلماته رضى الله عنه قال :

الجاهل لا يرى جهله لأنه فى ظلمته ، والعالم لا يرى علمه لأنه فى ضياء نوره ، ولا يجرى شىء إلا بغيره ، فالمرآة تخبرك بعيوب صورتك وتصدقها مع جهلك بما أخبرت به ، والعالم يخبرك بعيوب نفسك مع علمك بما أخبرك به وتكذبه ، فماذا بعد الحق إلا الضلال .

وقال : شرط الكامل الإحسان إلى أعدائه ، وهم لا يشعرون تخلقاً بأخلاق الله ، فإنه دائم الإحسان إلا من سماهم أعداءه مع جهل الأعداء به .

وقال : شرط الشيخ أن يكون عنده جميع ما يحتاجه المريد فى التربية لا ظهور كرامة ، ولا كشف باطن المريد .

وقال : لا يصح لعبد مقام المعرفة بالله ، وهو يجهل حكماً واحداً من شرائع الأنبياء ، فمن ادعى المعرفة ، واستشكل حكماً واحداً فى الشريعة المحمدية أو غيرها فهو كاذب .

وقال : الصوفى من أسقط الياءات الثلاث ، فلا يقول : لى ، ولا عندى ولا متاعى ، أى لا يضيف لنفسه شيئاً .

وقال :

ما نال من جعل الشريعة جانباً   شيئاً ولو بلغ السماء مناره

هذه لمحات سريعة عن حياة الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، نرجو أن نكون قد وضعنا فيها لمحاته التى تكشف لنا جوانبه[1] .

(١) راجع ترجمته شذرات الذهب جـ٥ نفح الطيب جـ٧ فوات الوفيات جـ٢ وغيرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد[1] لله الحسن الفعال ، الذى يحب الجمال[2] ، خلق العالم فى أكمل صورة وزينة ، وأدرج فيه حكمته الغيبية عندما كوّنه ، وأشار إلى موضع السر منه وعيّنه ، وفصّل للعارفين مجمله منه وبيّنه ، جعل ما على أرض الأجسام زينة لها ، وأفنى العارفين فى مشاهدة تلك الزينة وجداً وولهاً ، وصلى الله على المتجلى إليه فى أحسن صورة ، والمبعوث فى أكمل شريعة وأحسن سيرة ، محمد بن عبد الله المكلم بالمقام العلى ، والمخصوص بالكمال الكلى والتنزيل الوفى ، وعلى آله وصحبه وسلم .

(أما بعد) فإنى لما نزلت مكة سنة خمسمائة[3] وثمان وتسعين ألفيت بها جماعة من الفضلاء ، وعصابة من الأكابر الأدباء والصلحاء بين رجال ونساء ، ولم أرَ فيهم مع فضلهم مشغولا بنفسه ، مشغوفاً فيما بين يومه وأمسه ، مثل الشيخ العالم الإمام ، بمقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ،

(١) حمد الله الثناء عليه بصفاته الحسنى وشكر الله الثناء عليه بنعمته وإحسانه تقول حمدت الرجل إذا أثنيت عليه بكرم وحسب وشجاعة وأشباه ذلك وشكرت له إذا أثنيت عليه بمعروف أولاكه وقد يوضع الحمد موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد .

(٢) يشير إلى الحديث الشريف « إن الله جميل يحب الجمال » الذى رواه مسلم فى باب تحريم الكبر وبيانه ج ١ ص ٦٥ ومعناه أنه متصف بصفات الكمال ويحب من عبده أن يكون متصفا بالكمال .

(٣) أجاز مجمع اللغة العربية هذا وإن كان المشهور تقديم العدد الصغير .

نزيل مكة البلد الأمين مسكين الدين [1] ، أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجاء الأصفهاني رحمهُ الله تعالى ، وأخت المسنة العالمة شيخة الحجاز فخر النساء بنت رستم . فأمّا الشيخ فسمعنا عليه كتاب أبي عيسى الترمذي في الحديث وكثيراً من الأجزاء ، في جماعة من الفضلاء ، كان يغلب عليهم الأدب فكأنّ جليسه في بستان ، وكان رحمهُ الله تعالى ظريف المحاورة ، لطيف المؤانسة ، ظريف المجالسة ، يمتع الجليس ، ويؤانس الأنيس ، وكان لهُ رضي الله عنه من أمره شأن يغنيه ، فلا يتكلم إلا فيما يعنيه ، وأمّا فخر النساء أخته ، بل فخر الرجال والعلماء فبعثت إليها ، لأسمع عليها ، وذلك لعلوّ روايتها ، فقالت : فنيَ الأمل ، واقترب الأجل ، وشغلني عما تطلبهُ مني من الرواية الحث على العمل ، فكأني بالموت قد هجم ، فأقرع سنّ النّدم ، فعندما بلغني كلامها كتبت إليها أقول شعراً :

حالي وحالكِ في الرواية واحده ما القصد إلا العلم واستعماله

فأذنت لأخيها أن يكتب لنا نيابة عنها إجازة عنها في جميع رواياتها ، فكتب رضي الله عنه وعنها ذلك ودفعهُ لنا وكتب لنا جميع مسموعاته إجازة عامة ، وكتبت إليه من قصيدة عملتها فيه قولي :

سمعت الترمذي على المكين إمام النـاس في البلد الأمين

---

(١) أبو شجاع زاهر بن رستم الأصبهاني الأصل ثم البغدادي الفقيه الشافعي الزاهد قرأ القراآت على سبط الخياط وأبي الكرم وسمع منهما ومن الكروخي وجماعة وجاور وأم بمقام إبراهيم إلى أن عجز وانقطع وتوفى في ذى القعدة سنة تسع وستمائة وكان ثقة بصيرا بالقراآت (شذور الذهب ج ٥ ص ٣٧).

وكان لهذا الشيخ رضى الله عنه بنت عذراء ، طَفيلة[١] هيفاء ، تقيد النظر ، وتزين الحاضِرَ والمُحاضِر ، وتحيّر المناظر ، تسمى بالنظام ، وتلقب بعين الشمس وإليها من العابدات العالمات السائحات الزاهدات شيخة الحرمين ، وتربية البلد الأمين الأعظم بلامَيْن[٢] ، ساحرة الطرف ، عراقية الظَّرْف ، إنْ أسهبت أثعبت[٣] ، وإن أوجزت أعجزت ، وإن أفصحت أوضحت إنْ نطقت خرس قسّ بن ساعدة ، وإن كرمت خنس معن بن زائدة ، وإن وفّت قصّر السموأل خطاه ، وأغرى ورأى بظهر الغرر وامتطاه ، ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض ، السيئة الأغراض ، لأخذت فى شرح ما أودع الله تعالى فى خَلْقِها من الحسن ، وفى خُلُقِها الذى هو روضة المزن ، شمس بين العلماء ، بستان بين الأدباء ، حقة مختومة ، واسطة عقد منظومة ، يتيمة دهرها ، كريمة عصرها ، سابغة الكرم ، عالية الهمم ، سيدة والديها ، شريفة ناديها ، مسكنها جياد وبيتها من العين السواد ومن الصدر الفؤاد أشرقت بها[٤] تهامه ، وفتح الروض لمجاورتها أكمامه ، فنمت أعراف المعارف ، بما تحمله من الرقائق واللطائف ، علمها عملها ، عليها مسحة مَلَك وهمة مَلِك ، فراعينا فى صحبتها كريمَ ذاتها مع ما انضاف إلى ذلك من صحبة العمةِ والوالد ، فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب أحسن القلائد بلسان النَّسيبِ الرَّائق ، وعبارات الغزَل اللائق ، ولم أبلغ فى ذلك

(١) امرأة طفلة الأنامل بفتح الطاء وسكون الفاء ناعمة. (٢) المين الكذب.
(٣) ثعب الماء بفتح المثلثة والمهملة فجره والثعب سيل الوادى وهى هنا مجاز.
(٤) تهامة مكة .

بعض ما تجده النفس ، ويثيره الأنس ، من كريم ودّها ، وقديم عهدها ، ولطافة معناها ، وطهارة مغناها[١] ، إذ هى السؤال والمأمول ، والعذراء البتول ، ولكن نظمنا فيها بعض خاطر الاشتياق ، من تلك الذخائر والأعلاق ، فأعربت عن نفس توّاقة ، ونبهت على ما عندنا من العلاقة ، اهتماماً بالأمر القديم ، وإيثاراً لمجالسها الكريم ، فكل اسم أذكره فى هذا الجزء فعنها أُكَنّى ، وكل دارٍ أندبها فدارها أعنى ، ولم أزل فيما نظمتهُ فى هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلٰهية ، والتنزّلات الروحانية ، والمناسبات العلوية ، جرياً على طريقتنا المثلى ، فإن الآخرة خير لنا من الأولى ، ولعلمها رضى الله تعالى عنها بما إليه أشير ، ولا ينبئك مثل خبير ، والله يعصم[٢] قارىء هذا الديوان من سبق خاطره إلى مالا يليق بالنفوس الأبية ، والهمم العلية ، المتعلقة بالأمور السماوية ، آمين بعزة من لا رب غيره ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

وكان سبب شرحى لهذه الأبيات أن الوَلَدَ بدرًا الحبشى والوَلَد إسماعيل ابن سودكين سألانى فى ذلك ، وهو أنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب ينكران هذا من الأسرار الإلٰهية ، وأن الشيخ يتستر لكونه منسوباً إلى الصلاح والدين ، فشرعت فى شرح ذلك ، وقرأ علىّ بعضه القاضى

(١) المغنى المنزل الذى غنى به أهله .

(٢) من غلبة الرحمة على الشيخ حرص على حسنات القارىء حتى لا يقع فى الغيبة لأنه يتحدث عن واردات إلهية وفيوضات رحمانية تفاض على مثل هذه القلوب الزكية .

ابن العديم[1] بحضرة جماعة من الفقهاء ، فلما سمعه ذلك المنكر الذى أنكره ثاب إلى الله سبحانه وتعالى ، ورجع عن الإنكار على الفقراء وما يأتون به فى أقاويلهم من الغزل والتشبيب ، ويقصدون فى ذلك الأسرار الإلهية ، فاستخرت الله تعالى تقييد هذه الأوراق ، وشرحت ما نظمتهُ بمكة المشرفة من الأبيات الغزلية فى حال اعتمارى فى رجب وشعبان ورمضان أشير بها إلى معارف ربانية ، وأنوار إلهية ، وأسرار روحانية ، وعلوم عقلية ، وتنبيهات شرعية ، وجعلت العبارة عن ذلك بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبارات ، فتتوفر الدواعى على الإصغاء إليها ، وهو لسان كل أديب ظريف ، روحانى لطيف ، وقد نبهت على المقصد فى ذلك بأبيات ، وهى :

كلّما أذكرْ من طلل ... أو ربوع أو مغـــان كلما[2]
وكذا إن قلتُ هى أو قلتُ يا ... وألاَ إن جاءَ فيه أوْ أما
وكذا إن قلتُ هى أو قلت هو ... أو همو أو هُنَّ جمعاً أو هُما

(١) العلامة كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة العقيلى الحلبى من بيت القضاء والحشمة ولد سنة بضع وثمانية وخمسمائة وأخذ عن علماء العراق والشام وأجاز له المؤيد وخلق فدرس وأفتى وصنف وجمع تاريخا لحلب فى نحو ثلاثين مجلدا وكانت له معرفة تامة بالحديث والتاريخ وأيام الناس مع رأى حازم وذكاء وبهاء وكان حسن الظن بالفقراء والصالحين توفى رحمه الله تعالى بمصر فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٦٦٠هـ ودفن بسفح المقطم.

(٢) الطلل محركة الشاخص من آثار الدار المغانى المنازل التى غنى بها أهلها ثم ظعنوا والربع الدار بعينها .

وكذا إن قلتُ قد أنجد لى قدرٌ فى شعرنا أوْ أتهما[1]

وكذا السحبُ إذا قلتُ بكت وكذا الزهر إذا ما ابتسما

أو أنادى بحـــداةٍ يمموا بانه الحاجر أو وُرْق الحما

أو بدورٌ فى خدور أفلت أو شموس أو نبات أنجما[2]

أو بروق أو رعود أو صَبا أو رياح أو جنوبٌ أو سما

أو طريق أو عقيق أو نِقا أو جبال أو تلال أو رَما[3]

أو خليل أو رحيل أوْ رُبَى أو رياض أو غياض أو حِما[4]

أو نساء كاعبات نهدٌ طالعات كشموس أو دُما

كلما أذكره مما جرى ذكره أو مثله أن تفهما

منه أسرار وأنوار جلت أو علت جاء بها رب السما

لفؤادى أو فؤادٍ من لَهُ مثل مالى من شروط العلما

صفة قدســيّة علوية أعلمت أن لصدقى قِدَما

فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلما

---

(١) النجد ما ارتفع من الأرض ونجد من بلاد العرب وهو خلاف الغور. فالغور تهامة وكل ما ارتفع عن تهامة إلى أرض العراق فهو نجد وتهامة مكة.

(٢) النجم من النبات مالا ساق له.

(٣) العقيق ضرب من الفصوص وهو أيضا واد بظاهر المدينة، النقا بالكسر كثيب الرمل. رمى بفتحتين ضرب من السحاب أو السحاب المنضم بعضه إلى بعض.

(٤) الربوة المكان المرتفع بضم الراء وهو الأكثر والفتح لغة بنى تميم والكسر لغة سميت ربوة لأنها ربت فعلت والجمع ربى. الغيضة بالفتح الأجمة وهى مغيض ماء يجتمع فينبت فيه الشجر والجمع غياض.

قال الشيخ رحمه الله : فمن ذلك حكاية جرت فى الطواف كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتى وهزنى حالٌ كنت أعرفه ، فخرجت من البلاط من أجل الناس وطفت على الرمل ، فحضرتنى أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى ـ لو كان هناك أحد ـ وهى قوله :

ليت شعرى هل دروا أىّ قلب ملكوا
وفؤادى لو درى أىّ شِعب سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفى بكف ألين من الخزّ ، فالتفت فإذا بجارية من بنات الروم لم أر أحسن وجهاً ، ولا أعذب منطقاً ، ولا أرقّ حاشية ، ولا ألطف معنى ، ولا أدقّ إشارة ، ولا أظرف محاورة منها ، قد فاقت أهل زمانها ظرفاً وأدباً وجمالا ومعرفة ، فقالت : يا سيدى كيف قلت ؟ فقلت :

ليت شعرى هل دروا أىّ قلب ملكوا

فقالت : عجباً منك وأنت عارف زمانك تقول مثل هذا ! ؟ أليس كل مملوك معروف ؟ وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة وتمنى الشعور يؤذن بعدمها والطريق لسان صدق فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا ؟ قل يا سيدى: فماذا قلت بعده ؟ فقلت :

وفؤادى لو درى أىّ شعب سلكوا

فقالت : يا سيدى الشعب الذى بين الشغاف والفؤاد هو المانع له من

المعرفة ، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المعرفة ، والطريق لسان صدق فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا يا سيدى ! ؟ فماذا قلت بعده ؟ فقلت :

أترَاهم سلموا أم ترَاهم هلكوا

فقالت : أما هم فسلموا ، ولكن اسأل عنك فينبغى أن تسأل نفسك : هل سلمت أم هلكت يا سيدى ؟ فما قلت بعده ؟ فقلت :

حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فصاحت وقالت : يا عجباً كيف يبقى للمشغوف فضلة يحار بها ، والهوى شأنه التعميم . يخدر الحواس ويذهب العقول ويدهش الخواطر ويذهب بصاحبه فى الذاهبين فأين الحيرة وما هنا باق فيحار والطريق لسان صدق والتجوز من مثلك غير لائق . فقلت : يا بنت الخالة ما اسمك ؟ قالت : قرة العين . فقلت : لى. ثم سلمت وانصرفت . ثم إنى عرفتها بعدذلك وعاشرتها فرأيت عندها من لطائف المعارف الأربع ما لا يصفه واصف .

شرح الأبيات الأربع :

ليت شعرى هل دروا أى قلب ملكوا

يقول : ليتنى شعرت هل دروا الضمير يعود على المناظر العُلى عند المقام الأعلى حيث المورد الأحلى التى تتعشق بها القلوب وتهيم فيها الأرواح ويعمل لها العمال الإلهيون .

(أى قلب ملكوا) يشير إلى القلب الكامل المحمدى لنزاهته عن

التقييد بالمقامات ، ومع هذا فقدملكته[1] هذه المناظر العلى وكيف لا تملكه وهى مطلوبة ويستحيل عليها العلم بذلك لأنها راجعة إلى ذاته إذ لا يشهد منها إلا ما هو عليه ففيه يتنزه وإياه يحب ويعشق .

وفؤادى لو درى أى شعب سلكوا

أراد بالشعب الطريق إلى القلب . لأن الشعاب الطرق فى الجبال فكأنه لما غابت عنى هذه المناظر العلى ترى أى طريق لبعض قلوب العارفين الذين سلكوا هذه الطرق. واختص ذكر الشعب لاختصاصه[2] بالجبل وهو الوتد الثابت يريد المقام فإنه الثابت إذ الأحوال لا ثبات لها وإذا نسب إليها الثبات والدوام فلتواليها لا غير على القلوب .

أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا

المناظر العلى من حيث هى مناظر لا وجود لها إلا بوجود الناظر كالمقامات لا وجود لها إلا بوجود المقيم فإذا لم يكن ثم مقام لم يكن ثم مقيم وإذا لم يكن ناظر فما ثم منظور إليه من حيث ما هو منظور إليه فهلا كهم إنما هو من حيث عدم الناظر ؛ فهذا المراد بقوله سلموا أم هلكوا .

حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

لما كان الهوى يطالب بالشىء ونقيضه حار صاحبه وارتبك فإنه من بعض

---

(١) يقصد أن الصفات الإلهية قد ملكته أما مناظر الأشياء فلا تملكه لأن الله يقول « مازاغ البصر وماطغى » .

(٢) لاثبات للأحوال لأنها لاتتجددمن نوع واحد فالفيوضات الإلهية كثيرة لاحصر لها والمراد بالمقامات الأحوال .

مطالبه موافقة المحبوب فيما يريده المحبوب وطلبه الاتصال بالمحبوب فإن أراد الهجر فقد ابتلى المحب صاحب الهوى بالنقيضين أن يكونا محبوبين له فهذه هى الحيرة التى لزمت الهوى واتصف بها كل من اتصف بالهوى ؛ والهوى عندنا عبارة عن سقوط الحب فى القلب فى أول نشأة فى قلب المحب لا غير فإذا لم يشاركه أمر آخر وخلص له وصفاً سمى حباً فإذا ثبت سمى وداً فإذا عانق القلب والأحشاء والخواطر لم يبق فيه شىء إلا تعلق القلب به سمى عشقا من العشق وهى اللبلابة المشوكة .

وقال رضى الله عنه

ما رحّـلوا يوم بانوا البزّلَ العيسا
ألا وقد حمـلوا فيها الطواويسا

فيها بمعنى عليها ، والبزل الإبل المسّمنة ، ورحلوها جعلوا رحالها عليها ، والطواويس كناية عن أحبّته شبههم بهنّ لحسنهن .

المقصد : البزل يريد الأعمال الباطنة والظاهرة ، فإنها التى ترفع الكلم الطيب إلى المستوى الأعلى ، كما قال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »[1] والطواويس المحمولة فيها أرواحها ، فإنه لا يكون العمل مقبولاً ولا صالحاً ولا حسناً إلا حتى يكون له روح[2] مزينة عاملة أو همة وشبهها بالطيور لأنها روحانية وكنّى عنها أيضاً بالطواويس لتنوع اختلافها فى الحسن والجمال .

---

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٢) دوم العمل التصديق والاحتساب .

من كلٍّ فاتكة الألحاظ مالكة

تخالها فوق عرش الدر بلقيسا

الفتك القتل ، فى صورة مالكة حاكمة ، تخالها تحسبها ، العرش السرير ، بلقيس المذكورة فى القرآن فى قصة سليمان عليه السلام .

المقصد : يقول من كل حكمة إلهية حصلت للعبد فى خلوته فقتلته عن مشاهدة ذاته وحكمت عليه ، فإذا رأيتها حسبتها فوق سرير الدر يشير إلى ما تجلى لجبريل والنبى عليهما الصلاة والسلام فى بعض إسرائه فى رفرف الدر والياقوت عند سماء الدنيا ، فغشى على جبريل وحده[1] لعلمه بمن تجلى له فى ذلك الرفرف الدرى ، وسماها بلقيسا لتولدها بين العلم والعمل ، فالعمل كثيف والعلم لطيف ، كما كانت بلقيس متولدة بين الجن والإنس ، فإن أمها من الإنس وأباها من الجن ، ولو كان أبوها من الإنس وأمها من الجن لكانت ولادتها عندهم ، وكانت تغلب عليها الروحانية ، ولهذا ظهرت بلقيس عندنا .

إذا تمشت على صرح الزجاج ترى

شمساً على فلكٍ فى حجر إدريسا

إذا تمشت أى إذا سرت وسارت .

---

(١) ولم يغش على رسول الله صلى الله عليه وسلم لعظم روحه ففى ليلة الإسراء عندما جاءت السحابة البيضاء وقف جبريل وقال هذا مقامى لو تجاوزت شبرا أو فترا لاحترقت وطارت برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث شاء الله حيث وقع التجلى وفرضت الصلوات الخمس .

من كلٍّ فاتكة الألحاظ مالكة
تخالها فوق عرش الدر بلقيسا

الفتك القتل ، فى صورة مالكة حاكمة ، تخالها تحسبها ، العرش السرير ، بلقيس المذكورة فى القرآن فى قصة سليمان عليه السلام .

المقصد : يقول من كل حكمة إلهية حصلت للعبد فى خلوته فقتلته عن مشاهدة ذاته وحكمت عليه ، فإذا رأيتها حسبتها فوق سرير الدر يشير إلى ما تجلى لجبريل والنبى عليهما الصلاة والسلام فى بعض إسرائه فى رفرف الدر والياقوت عند سماء الدنيا ، فغشى على جبريل وحده (١) لعلمه بمن تجلى له فى ذلك الرفرف الدرىّ ، وسمّاها بلقيسا لتولدها بين العلم والعمل ، فالعمل كثيف والعلم لطيف ، كما كانت بلقيس متولدة بين الجن والإنس ، فإن أمّها من الإنس وأباها من الجن ، ولو كان أبوها من الإنس وأمّها من الجن لكانت ولادتها عندهم ، وكانت تغلب عليها الروحانية ، ولهذا ظهرت بلقيس عندنا .

إذا تمشت على صرح الزجاج ترى
شمساً على فلكٍ فى حجر إدريسا

إذا تمشت أى إذا سرت وسارت .

---

(١) ولم يغش على رسول الله صلى الله عليه وسلم لعظم روحه فى ليلة الإسراء عندما جاءت السحابة البيضاء وقف جبريل وقال هذا مقامى لو تجاوزت شبرا أو فترا لاحترقت وطارت برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث شاء الله حيث وقع التجلى وفرضت الصلوات الخمس .

المقصد : ذكر صرح الزجاج لما شبّهها ببلقيس ، وشبه الصرح بالفلك وكنّى بإدريس عن مقام الرفعة والعلوّ وكونها فى حجره أى فى حكمة من جهة تصريفه إياها حيث يريد ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا تعطوا الحكمة غير أهلها » فلولا الحكم عليها ما صح التحكم فيها بخلاف المتكلم بغلبة الحال عليه فيكون فى حكم الوارد ، فينبه فى هذا البيت على تملكه ميراثاً نبوياً ، فإن الأنبياء يملكون الأحوال ، وأكثر الأولياء تملكهم الأحوال ، وقرن الشمس وإدريس (١) لأنها سماؤه وشبهها بالشمس دون القمر تعريفاً بمقام هذه الحكمة من غيرها ، فكأنه يقول قوة سلطان هذه الحكمة إذا وردت على قلب صاحب التجريد أثمرت فيه أحوالاً حساناً ومعارف مختلفة ، وإذا وردت على قلب متعشق بما حصل فيه من المعارف أحرقتها وأذهبتها ، وذكر المشى دون السعى وغيره لنخوتها وعجبها وانتقالها فى حالات هذا القلب من حال إلى حال بضرب من التمكن .

تحيي إذا قتلت باللحظ منطقهـــا

كأنهـــا عندما تحيي به عيسى

المقصد : نبّه على مقام الفناء فى المشاهدة بقوله قتلت باللحظ وكنّى بالإحياء عند النطق لتمام التسوية لنفخ الروح ، ووقع التشبيه بعيسى عليه

---

(١) لم يثبت فى الكتاب ولا فى الحديث أن الكواكب فى السموات وإنما هذه من حدس علماء الهيئة القدامى كما أثبت هؤلاء العلماء أن الأفلاك أجرام وقد ثبت عند علماء الهيئة الحديثين أن الأفلاك مدارات وهمية ، والذى يعطيه القرآن أن الكواكب زينة تحت سماء الدنيا فإن الزينة غير المزين .

السلام دون التشبيه بقوله تعالى : « ونفخت فيه من روحى » ، أو بقوله تعالى : « أن يقول لهُ كُنْ » من وجهين :

الوجه الواحد : الأدب فإنا لا نرتفع إلى التشبيه بالحضرة الإلهية إلاّ بعد أن لا نجد فى الكون من يقع التشبيه به فيما قصدوا .

الوجه الآخر : أن عيسى عليه السلام لما وجد من غير شهوة طبيعية فإنه كان من باب التمثيل فى صورة البشر ، فكان غالباً على الطبيعة بخلاف من نزل عن هذه المرتبة ، ولما كان الممثل به روحاً فى الأصل كانت فى قوة عيسى إحياء الموتى ، ألا ترى السامرىّ لمعرفته بأن جبريل عليه السلام مَعْدن الحياة حيث سلك أخذ من أثره قبضة فرماها فى العجل فخار وقام حيًّا .

توراتها لوحُ ساقيها سنا وأنا أتلو وأدرسها كأننى موسى

الساق هنا جىء به لما كنى عنه ببلقيس والصرح وكانت قد كشفت عن ساقيها أى بينت أمرها ، ومنه قوله يوم يكشف عن ساق الأمر الذى يقوم عليه بيان الآخرة ، ومنه : (والتفت الساق بالساق) أى التفت أمر الدنيا بأمر الآخرة ، والتوراة من ورْى الزَّند فهو راجع إلى النور ويُنسب إلى التوراة أن لها أربعة أوجه فشبّه ساقيها بالتوراة فى الأربعة أوجه والنور والأربعة الذين يحملون العرش الآن وهى الكتب الأربعة وستأتى الإشارة إليها مع مناظرتها مع أصحاب الكتب الأربعة فى هذه القصيدة ، فكأنه يقول إن أمر هذه الحكمة قام على النور ، ولذا قال سنا فإن النور الذى وقع به التشبيه إنما وقع بأربعة : المشكاة والمصباح والزجاج والزيت المضاف إلى

الزيتونة المنزهة عن الجهات الثابتة فى خط الاعتدال ولما كنى عن ساقيها بالتوراة احتاج إلى ما يناسب ما وقع به التشبيه من التلاوة والدرس ، وذكر من أنزلت عليه ، وأتلو هنا أتبع وادرسها ، أى أطأ أثرها فيتغير بصفتى كما يطأ أحدكم أثر غيره فيغيره بوطئه إلى شكل ما وطئه به ، فإن الدرس التغيير :

أسْقَفَة من بنات الروم عاطلة ترى عليها من الأنوار ناموسا

الأسقف عظيم الروم ، والعاطلة الخالية من الْحُلِىِّ والناموس الخير .

والمقصد يقول إن هذه الحكمة عيسوية المحتد ولهذا نسبها إلى الروم ، وقوله عاطلة أى هى من عين التوحيد ليس عليها من زينة الأسماء الإلهية أثر كأنه جعلها ذاتية لا أسمائية ولا صفاتية ، لكن يظهر عليها من الخير المحض ما يكنى عنه بالأنوار وهى السُّبُحات المحرقة التى لو رفع سبحانه الحجب النورانية والظلمانية لأحرقت سبحات وجهه [(١)] ، فهذه السبحات هى التى كنى عنها بالأنوار التى فى قوة هذه الحكمة العيسوية فهى الخير المحض إذ هى الذات المطلقة .

(١) يشير رضى الله عنه إلى الحديث الذى رواه مسلم من كتاب الإيمان عن أبى موسى قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه (البخارى بيده الميزان) يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور وفى رواية النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه جـ ١ ص ١١١ .

وحشية ما بها أنس قد اتخذت في بيت خلوتها للذكر ناووسا

الناووس قبر من رخام كانت ملوك الروم تدفن فيها .

المقصد يقول إن هذه الحكمة العيسوية لا يقع بها أنس فإن مشاهدته فناء ليس فيها لذة كما قال السيادى ما التذ عاقل بمشاهدة قط لأن مشاهدة[(١)] الحق فناء ليس فيها لذة وجعلها وحشية أى أنها تشره إلى مثلها النفوس الشريفة وهى لا تألف إليها لعدم المناسبة ، فلهذا جعلها وحشية ، وقوله بيت خلوتها فكنى بالبيت عن قلبه وخلوتها فيه نظرها إلى نفسها فإن الحق يقول ما وسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن[(٢)] ، ولما كان هذا القلب الذى وسع هذه الحكمة الذاتية العيسوية فى مقام التجريد والتنزيه كان كالفلاة وكانت فيه كالوحش ، فلهذا قال أيضاً وحشية ، ثم ذكر مدفن ملوك الروم تذكرة لها أى يتذكر الموت الذى هو فراق الشمل فألفت من التألف بعالم الأمر والخلق من أجل الفراق فيذكرها ذلك القبر حالة الفراق فيزهدها فى اتخاذ الألفة .

قد أعجزت كلّ علام بملتنا وداوديًا وحبراً ثم قسيسا

لما كانت هذه المسألة ذاتية وكانت الكتب الأربعة لا تدل إلا على

---

(١) المشاهدة لم تقع لأحد فى الدنيا إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما يقع لهؤلاء الأكابر هو زيادة يقين كأنه مشاهدة ويدلك على هذا طلب الكليم لها لعلمه بجوازها ولما وقع له من اللذة حين الكلام فمنعها وهو الكليم .

(٢) هو أثر ولم يثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولعله من بعض الكتب السابقة .

الاسماء الإلهية خاصة لها لم يقاومها ما تحمله هذه الكتب من العلوم وكنى عنها بحاملها فكنى عن القرآن بالعلام وعن الزبور بالمنسوب إلى داود وعن التوراة بالحبر وعن الإنجيل بالقسيس .

إن أومأت تطلب الإنجيل تحسبها أقسة أو بطاريقا شماميسا

يقول إن كان من هذه الروحانية إشارة من كونها عيسوية إلى الإنجيل بطريق التأييد له فيما وضع له بحسب الخواطر هنا كنا لديها بمنزلة هؤلاء المذكورين الذين هم جمال هذا العلم وساداته والقائمون به خادمون بين يديها لما بقى عليه من العزة والسلطان .

ناديتُ إذ رحلت للبين ناقتها يا حادى العيس لا تحدو بها العيسا

يقول هذه الروحانية الذاتية لما أرادت الرحيل عن هذا القلب الشريف لرجوعه من مقام لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى إلى النظر فى مصالح ما كلف به من القيام بالعوالم بالنظر إلى الأسماء رحلت الهمة التى جاءت عليها لهذا القلب وكنى عنها بالناقة والملائكة المقربون المهيمنون هم حداة هذه الهمم ، فأخذ يخاطب روحانياً بكتابة الحادى أن لا يسيروا بها لما لها من التعشق والتعلق والإنسانية تمنّى استدامة هذه الحالة .

عبيت أجياد صبرى يوم بينهم على الطريق كراديسا كراديسا

سألت إذ بلغت نفسى تراقيها ذاك الجمال وذاك اللطف تنفيسا

أراد بالطريق المعراج الروحانى والكراديس الجماعات واحدها كردوس وقوله تفقيساً يريد ما أراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله إن نفس

الرحمن يأتيني من قبل اليمن . يقول: أريد إذ ولا بد من رحيلها فلا يزال عالم الأنفاس من جهتها يأتيني مع الأحوال ، وهو الذى أيضاً تشير به العرب فى أشعارها بإهداء التحية والأخبار مع الرياح إذا هبت، فكنى عن هذا المقام هنا بالأنفاس .

فأسلمت ووقانا الله شِرّتها وزحزح الملك المنصور إبليسا

يقول: فأجابت وانقادت إلى سؤالى ووقانا الله سطوتها ، كما قال: وأعوذ بك منك هذا مقامه ، وزحزح الملك يريد خاطر العلم والهداية إبليساً خاطر الاتحاد فإن هذا مقام صعب قل من حصل فيه فسلم من القول بالاتحاد والحلول [١] فإنه المشار إليه بقول الله : « كنت سمعه وبصره » الحديث .ـ

* * * ٨

خليليّ عوجا بالكثيب وعرجا على لعلع واطلب مياه يَلَمْلَم

يخاطب عقله وإيمانه أن يعرجا بالكثيب الذى هو محل المشاهدة التى نص عليها الشرع، وعرجا قبل الوصول على لعلع موضع حال دهش وحيرة وتولع لتقع الرؤية عن محبة وشوق، واطلب مياه يلملم جهة كائنة أى رُدّ عَلَيّ موطن الحياة إذا كان من الماء كل شيء حى ، ولما كانت الأنفاس يمنية فلتكن الحياة أيضاً من مناسبة هذه الجهة للمشاكلة ثم قال :

فإن بها من قد علمتُ ومن هم صيامى وحجى واعتمارى ومَوْسِمى

---

(١) ينفى الشيخ صراحة ما نسبه إليه بعض الزنادقة من الاتحاد والحلول.

فلا أنس يوماً بالمُحصَّب من منى ... وبالمنحر الأعلى أموراً وزمزم

أفرد الخطاب يريد الإيمان دون العقل فإن العلم بالذات وما تستحقه من النعوت إنما هو من طريق الإيمان لا من طريق العقل ، فلهذا قال من قد علمت ولم يقل علمتها ، والضمير فى بها يعود على المياه فإنها التى تعلم ، لا على الذات إذ الذات ترى ولا تعلم ، لأنها لو علمت أحيط بها وهو سبحانه لا يحيط به علم تقدس وتعالى عن أن يحيط به علم الممكن أو تكون ذاته تعطى الإحاطة فهو المحيط ولا يحيط به شىء ، إذ لو أحاط به شىء لحصره ذلك الشىء ، ثم قال: « ومن لهم » خطاباً لنعوت الإلهية وقوله صيامى يريد صفة الصمدانية ، كما قال تعالى الصوم لى أى الصمدانية للعبد لا تصح ولا يستحقها والصوم له مدخل فيها لأنه إمساك عن الطعام والغذاء وقوله وحجى يريد تكرار القصد بالتوجه إلى هذه الذات المنزهة من أجل دعاء الأسماء الإلهية فى كل نفس وحين ، وقوله واعتمارى يريد فزياراتى إليها فى وقت شوقى وطلبى والعلة دائمة والزيارة دائمة لا يزال العبد مع الأنفاس حاجًّا ومعتمراً لأنه فى كل نفس فى انتقال من اسم إلهى إلى اسم إلهى ، وقوله وموسمى كما قال الآخر حين جعله عيده ، ولما كان الموسم عبارة عن محل مكانى وزمانى تجتمع فيه قبائل مختلفة لمقصد واحد بلغات مختلفة تدل على معنى واحد جعله عيده كذلك مقامات هذا العبد وأحواله والحقائق الإلهية إذا حصل القلب فى محل الجمع لما ذكرناه كان ذلك موسمه وعيده وإنما سمى موسما من حيث السمة أى أنه علامة على تحصيل هذا المقام الجمعى وسمى عيد العودة

على بدنه لأن الأمر فيه دورى وإن كانت الواردات الإلهية لا تتناهى فالمقامات بلا شك تتناهى ، وقوله فلا أنسى يوماً يقول تخلقاً إلٰهيا من مقام كنت سمعه وبصره ، فنبه على أنه أيضاً قد حصل فى مقام وما كان ربك نَسِيًّا تخلقاً إلٰهيا واعتناء ، وقوله بالمحصب من منى الذى هو موضع رمى الجمار يقول فلا أنسى يوماً بمقام قوله: «فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً» أى أديموا ذكر آبائكم فى هذا الموطن من قلوبكم وألسنتكم ، فإن قوله تعالى : «أن اشكر لى ولوالديك» إنما ذلك فى مقام إيجاد عين العبد حيث كان إيجاده عند سبب اجتماع والديه بالنكاح وتعبهما فى إيجاده وهذا ما هو ذلك المقام فلا يلزم هنا هذا الدخل على من قيل له اطرح ذكر آبائك هنا فإن كل مقام يعطى حقيقته وذكر منى لأنه من باب الأمانى ، وقد قيل ولا تغرنكم الأمانى، وقوله وبالمنحر الأعلى يشير إلى القربان كما قال: تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى ودمى ، يعنى نفسه ، وقوله أموراً يريد الحياة الأبدية .

مُحصّبُهم قلبي لرمى جمارهم   ومنحرُهم نفسي ومشربهم دمى

الضمير فى هذا البيت بمحصبهم وغيره يعود على الحقائق الإلهية فإنها الواردة على القلب بهذه الصفات كلها فرمى جمارهم هو ما يحصون به الخواطر النفسانية والشيطانية ، وإن كانت إلهية ، ولكن من حيث المحل الذى وردت على هذا القلب منه، لذلك كان المحصب ولذلك توجه الذم كما قال: «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» ، وقال: « كل من عند الله »، ثم قال :

« فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » إشارة لما جرى قديماً يقول فما لهؤلاء المعترضين لا يفقهون ماحدثناهم به من أن الكل من عندنا ذماً وحمداً فلا يذمون ما سميناه مذموماً ويحمدون ما سميناه محموداً وينظرون الأشياء من حيث ما علمناهم ووضعناها لا من حيث إسنادها إلينا بحكم الإيجاد وقوله ومنحرهم نفسي يريد قربانها كما قلنا .

وأهدى عن القربان نفساً معيبة

وهل رِىءَ خلق بالعيوب تقربا

والحكاية مشهورة فى الفتى الذى قرب نفسه بمنى بهمته حين رأى الناس قربوا قرابينهم فجعل نفسه قربانه فمات من حينه وقوله ومشربهم دمى وأن الدم لما كان سريانه فى العروق سبب الحياة الحيوانية كنى عنه بالشرب فإن الماء جعله الله سبباً لكل شيء حى فقال : « وجعلنا من الماء كل شيء حىّ » ، ثم قال:

فياحادى الأجمال إن جئت حاجراً

فقف بالمطايا ساعة ثم سلم

الحادى هو الذى يسوق الإبل من خلفها والهادى هو الذى بيده زمامها فهو يخاطب الشوق الذى يحدو بالهم إلى منازل الأحبة ، وقوله إن جئت حاجراً الحاجر العقل ، والطريق إنما هو بالإيمان والمشاهدة لا بالعقل من حيث قوة فكره ، بل هو من جهة عرفانه و إيمانه ، والحاجر هو الحاجز بين الشيئين ليتميزا ، والأحبة قد حجروا على نفوسهم وأعيانهم ليمتازوا عن

سائر المقصودين فإنه قد يصدق الشيء من كونه محبوباً وسبباً لاتصال بمحبوب ، ثم أنه أمر لهذا الحادي الذي هو الشوق بالسلام على منازل الأحبة ولكن بعد وقوف ساعة ، وذلك أن المحب إذا ورد على منزل الأحبة أخذه دهش وحيرة في أول وروده وربما غُشِيَ عليه فيدركه كذلك تبلبل ، فلا يوفي الأدب في السلام مع هذا الدهش ، فقال له قف ساعة حتى يزول عنك الدهش والبهت فتعرف ما تستحقه الأحبة من الأدب في السلام وحينئذٍ كما قالت العامة لكل داخل دهشة وهذا ذوق محقق :

وناد القباب الحمر من جانب الحمى

تحيـــة مشتاق إليكم متيم

يقول لشوقه إذا سلمت ونظرت إلى اختلاف ألوان القباب فلا تناد منها إلا القباب الحمر فإنها محل الجمال والمخصوصة بالعرائس المخدرات ولهذا يقول حين ذكرت الألوان ، فقالت في الخضرة إنها أنبل ، وقالت في السواد إنه أهول ، وقالت في البياض إنه أفضل ، وقالت في الحمرة إنها أجمل ، ولذا قال ترجمان اليمامة حين قصدته سجاح بعسا كرها فقال انصبوا لها القبة الحمراء فإنها إذا رأتها تشتهي النكاح وخلا بها فيها ، ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الركوب على المياثر الحمر ، فلما كان فيها هذا السؤال الشهواني لهذا جعلناها قباب الأحبة لأن الحب أعظم شهوة وأكملها وقوله : من جانب الحمى يقول إنها عزيزة المنازل لحجاب العزة الأحمى الأعز من هو أهل لها وهي أهل له كما قال الآخر :

فـلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولورامها أحدٌ غيره لزلزلت الأرض زلزالها

وجعلها قبة لـكون الشكل الـكرى أفضل الأشكال وأول الأشكال. فيقول إن الأحبة فى المنازل الأول التى هى عند الحق لا عند شىء فهى من عالم الأمر، والشكل الـكرى ليس له أول ولا آخر إلا بحكم العرض فيه كذلك هؤلاء الأحبة الذين هم الحقائق الإلهيـــة الأمر فيها دورى كرّى قال :

فإن سلموا فاهد السلام مع الصّبا
وإن سكتوا فارحل بها وتقدم

يقول إن ردوا عليك السلام فتعرّف أنك من أهلهم وممن أهّل لهم فابعث سلامهم مع عالم الأنفاس من مقام الميل فإن الصبا الميل ، فلهذا قصد الصبا دون الجنوب والشمال وغيرها أى أهد السلام مع من ترى من عالم الأنفاس مائلاً إلى جهتنا وقوله وإن سكتوا يقول إن لم يردوا عليك السلام فتعلم أنك لست ممن أهّل لأهل تلك المنازل ولا أهّلت لك فارحل واطلب منازل غيرها ممن أهّلت لها وأهّلت لك ، ولـكن أقدم لا ترجع وراءك تحرزاً ممن قيل لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً :

إلى نهر عيسى حيث حلت ركابُهم
وحيث الخيامُ البيضُ من جانبِ الفم

يعنى فم النهر يقول تقدم إلى نهر عيسى أى العلم المتسع العيسوى المشهد فافعل معه ما فعلت مع القباب الحمر واجعل خيام هؤلاء الأحبة بيضاً لأنه مقام عيسوى نزيه عن الشهوة النكاحية فإنه كان عن غير نكاح بشرى فلهذا كان نكاح أبيض ولم يكن أحمر ، يقول : ويكون مجيئك لهذا العلم العيسوى من جانب الفم أى من حيث الفهوانية واللسن ، ولذلك أعطى كن .

وناد بدعد والرباب وزينب وهند وسلمى ثم لبنى وزمزم

يقول إذا وصلت المنازل فنادِ بأسماء هذه الحقائق الإلهية على اختلافها حتى يجيئك منها ما هو لك فتعرف عند ذلك مقامك منها ما هو ، فكنى عنها بهذه الكنايات من أسماء محبوبات الأعراب وقوله وزمزم يريد قم فى مقام السماع لهم فإن السماع منشأ الوجود فإن كل موجود يهتز كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أذن الله لشىء كإذنه لمن يتغنى بالقرآن[1] » ، فانظر منظر هذه الحقيقة الإلهية فى الإصغاء الإلهى لصاحب هذا المقام ، وهذا الحديث يقوى أحد محتملات قوله عليه الصلاة والسلام «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن» ، فهو من الغنى لا من الاستغناء ، ثم قال :

---

(١) أخرج بمعناه فى الصحيحين ولفظه «ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن ويجهر به » .

وسَلْهنّ هل بالحلبة الغادةُ التي تريك سنا البيضاء عند التبسم

الحلبة محلة ببغداد والغادة المائلة والبيضاء اسم من أسماء الشمس يقول وسل من ناديت من الحقائق الإلهية والنعوت الأزلية هل بالحلبة والحلبة مجارى الخيل فى السباق فإن الحقائق الإلهية تتسابق إلى الكيان لتظهر آثارها فيظهر سلطانها فيهم ولهذا أسماها غادة أى مائله إلى الكون ثم: وصفها بأن لها نور الشمس إذا ابتسمت، قال النبى صلى الله عليه وسلم «ترون ربكم فى الجنة كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب[1] » فأوقع التشبيه فى الرؤية لا فى الشمس وكنت فى مقام عيسوى ، وأنت الآن تسأل عن مقام إدريسى علوى قطبى ، فإن له السماء الرابعة ثم ذكر التبسم فى هذا المقام يشير إلى مقام البسط ، فإن المقامات العلية لما كانت الهيبة تستصحبها لم يتمكن القادم عليها أن ينبسط لسموها وعلوها ، فإذا وقع منها حالة التبسم بسطت العبد وانشرح القلب وعرف أنها معه فى مقام الأنس والجمال .

***

وقال رحمه الله

سلامٌ على سلمى ومن حل بالحمى
وحق لمثلى رقةً أن يسلما

---

(١) جاء معناه فى الصحيحين .

يشير بسلمى إلى حالة سليمانية وردت عليه من مقام سليمان عليه السلام ميراثاً نبوياً . ومن حل بالحمى يعنى أشباهها وقوله بالحمى أى أنها فى مقام لا يناله وهو النبوة فإن بابها مسدود فنعته بالحمى، فذوق هذه الحكمة لسليمان عليه السلام من كونه نبياً خلاف ذوقه لها من كونه ولياً ، وهو المقام الذى شاركناه فيه بذوقنا لها من الولاية التى هى الدائرة العظمى، وقوله وحق لمثلى يعنى أنه فى مقام المحبة والرقة إشارة إلى الانتقال إلى عالم اللطف ، فإن الكثيف غليظ الحاشية ، يقول إن يسلم على الوارد عليه فإن السلام فى هذه الواردة إنما يتقدم المورود عليه لا الوارد وسببه لأنه الطالب وليس فى قوته المعراج فى الحقائق الإلهية ، فلما وردت عليه بدأ هو بالسلام عليها يشير أنه الطالب لها وهو أولى بالقدوم لو أعطت الحقائق العروج وسبب عدم العروج الجهل الذاتى بالمكانة الإلهية فلا تعرف ولا تقصد بالمعراج لكن بالسؤال

وماذا عليها أن ترد تحيـــــة
علينا ولكن لا احتكام على الدمى

يقول إن ردت التحية علينا فمن باب المنة لا من باب أنه يجب عليها ذلك فإن الله لا يجب عليه شيء تعالى من ذلك فكل ما يكون لنا منه ابتداء أو إعادة إنما ذلك منه منّة سبحانه وكنى عن هذه النكتة الإلهية السليمانية النبوية بالدمى التى هى صورة الرخام صفة جمادية أى لا ترد بلسان نطق لأنه لو وردت بلسان نطق لكان نطقها غير ذاتها فتكون مركبة وهى وحدانية الذات من جميع الجهات فورودها عين كلامها وعين شهودها وعين سماعها

وهكذا جميع الحقائق الإلهية والنسب الربانية فلو كني عنها بالصورة الحيوانية لم يتبين هذا المقام الذى هو مراد لهذا القائل ، ثم قال :

سروا وظلام الليل أرخى سدوله
فقلت لها صبا غريباً متيما

قوله سروا الإسراء لا يكون إلا بالليل ، وكذا معارج الأنبياء لم تكن قط إلا بالليل لأنه محل الإسرار والكتم وعدم الكشف وقوله وظلام الليل أى حجاب الغيب أرخى حجابه الذى هو وجود الجسم الكثيف فهو ليل هذه النشأة الحيوانية لما كان ستراً على ما تحويه من اللطائف الروحانية والعلوم الشريفة فلا يدرك جليسه ما عنده إلا بعد العبارة عن ذلك والإشارة إليه ، أى كان سُراه بالأعمال البدنية والهمم النفسية ، وذلك لما سرت ورحلت هذه الحكمة عن قلبه وقت شغله بتدبيره بعض عالمه الكثيف فلما عاد إلى سره وجدها قد رحلت ، فأسرى خلفها بهممه يطلبها وهو يقول لها ارحمى صباً أى مائلا إليك بالمحبة والصبابة التى هى رقة الشوق غريباً من أرض وجوده متيما أى قد تيمه الحب يقول تعبده وتذلله .

أحاطت به الأشواق صوناً وأرصدت
له راشقاتُ النبل أيما أيان يَمَّمَا

يقول إن الأشواق لما أحاطت بهذا المحب ولزمته فى حال بعد وقرب وصفها بالشوق إليه ولما كانت التجليات فى أوقات تقع فى الصور الجميلة

الحسنة فى عالم التمثيل كما قال تعالى : « فتمثل لها بشراً سويّاً » وصف هذه الصور بأنها ترشق قلبه بسهام اللحظ حيث توجه القلب يصف قلبه بعبارات الشهود كما قال تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » ثم قال :

فأبدت ثناياها وأومض بارق ‏ ‏ فلم أدر من شقّ الحنادس منهما

لما كان التبسم كشفاً يسرع إليه الستر وكان البرق مثل ذلك ، لذلك قرنه به ووجد هذا المحب ذاته كلها نوراً كما يستر الليل عند وميض البرق من قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض مثل نوره) ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه : «اللهم اجعل فى سمعى نوراً وفى بصرى نوراً» وذكر الشعر والبشر والقلب والعظم وجميع الأعضاء ، إلى أن قال:«واجعلنى كلى نوراً » يعنى بهذا التجلى [1] . والتجلى الذاتى هو البارق لعدم ثبوته ، فكأنه يقول : لما أضاءت زوايا كونى كلها وأضاء هيكل طبيعتى وأنا فى مقام حكمة متجلية من حقيقة إلهية فى صورة مثالية فى مقام بسط ، وتبسمت هذه الصورة فأشرقت أرضى وسمائى بنورها واستنار ليلى واتفق معها تجلٍ ذاتى مقارن لتبسمها لم أدر ممن أشرق كونى منهما ولا من شق حِندِس ذاتى من هذين التجليين بنوره يقول التبس علىّ الأمر فى ذلك . ثم قال :

وقالت : أما يكفيه أنى بقلبه ‏ ‏ يشاهدنى فى كل وقت ، أما أما

يقول : قالت هذه الحقيقة الإلهية فى هذه الصورة المثالية بلسانها لا تطلبنى

---

(١) أنظر الكلام عليه ص ١٥ .

من خارج ويكفيه تنزلى عليه بقلبه كما قال تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك) فهو يشاهدنى فى ذاته بذاته فى كل وقت ، يعنى بالأوقات أيام الله الذى يقول تعالى : (كل يوم هو فى شأن) ، فتلك أيامه سبحانه التى يوقع الشوق فيها .

***

أنجد الشوق وأتهم العزاء فأنا ما بين نجد وتهام

يقول : طلب الشوق نجداً لأن تعلقه بالمستوى الأعلى ، وطلب الصبر تهامة يريد أن الصبر والشوق لا يجتمعان كما أن العلو والسفل لا يجتمعان ، وأنا ما بينهما فى برزخ الآلام ، فالموطن يطلبنى بالصبر لأنه ليس محل اللقا والشوق يطلبنى بمفارقة التركيب الذى هو هذا الهيكل الطبيعى المانع اللطيفة الهائمة المتيمة لما ناسبها من العالم العلوى لكونها وجدت مدبرة له إلى أجل مسمى ، فالشوق يجذبنى إلى العلو والصبر يجذبنى إلى السفل والصبر أغلب من الشوق ، ولإعانة الموطن له الذى هو الحياة الدنيا .

وهما ضدان لن يجتمعا فشتاتى ما له الدهر نظام

يقول : لما كانت اللطيفة الإنسانية لا توجد دنيا ولا آخرة إلا مدبرة لمركب لا تترك لحظة لمشاهدة بسيطها عربت عن مركبها من غير علاقة كما يراه بعض الصوفية والفلاسفة مما لا علم له بما هو الأمر ، فلهذا قال :

* فشتاتى ما له الدهر نظام *

أى : لا أتصل بالمنزه إلا على البسيط المشا كل الذاتى والحقيقى ، فإن مرتبة التدبير لى وصف لازم لا يصح مفارقتة لكونى على الصورة الإلهية والرحمانية مخلوق ، كما أن الألوهية نعت لازم للحق سبحانه ، وإذا كان الأمر هكذا فالشوق جهل لهذا المقام ، فإنه لا يحصل ، لكن الشوق للمحبة وصف لازم تابع لها وهو مؤمن حكمها فلهذا لا تنفك عنه مع العلم بأن المشتاق إليه لا يقع به وصلة فهو غير نافع .

ما صنيعى ما احتيالى ذلنى　　يا عذولى لا ترعنى بالملام

أقسم الله بالنفس اللوامة ، غير أن اللوم المقصود فى هذا البيت من هذا اللائم ليس هو حال بعينه ، وأيضاً المحب أى اسم تعلق به وحن إليه ، وأى عالم وجد عذولا فى نفسه يعدله عن تعلقه ، ويدعوه إلى جنابه ، وذلك أنه لما كان مجموع العلم والحضرة الإلهية صار كل جزء منه وكل حقيقة تطلب مناسبها أن تتصل به وتعذله أن لاينظر إلى غيرها بحكم الميل والإشارة والعارف لا يخلو عن ميل فلا يخلو عن عاذل دائماً أبداً .

زفرات قد تعالت صُعُدًا　　ودموع فوق خَدَّىَّ سِجَام

يقول : إن النيران الشوقية تعالت نحو عنصرها الذى هو الشوق الأعظم الموصوف به الجناب العالى كالمحبة منا تطلب المحبة الإلهيةمن قوله: «يحبهم ويحبونه» ، فحبنا نتيجة عن حبه ، يقول : إن سر الحياة الذى هو الماء تختلف عليه الأسماء والأحكام باختلاف محله ، فيسمى فى العين دمعاً وفى

الفم ريقاً وفى المعى بولا ؛ فقال إن هذا السر ظهر فى العين بحكم ما فى النفس من ألم البعد ووجود الصد والهجران الذى هو نعت لازم كما ذكرناه ، فكان فيه حرارة لأن زفرات الأشواق التى هى أصوات نيرانها سخنة وظهوره للعين تظهر له لملاحظة الأغيار إذ كان ينبغى له أن لا ينظر إلى غير محبوبه إلى أن يغلب عليه مقام نظره بعين الله أو مقام رؤية الله فى كل شىء فحينئذ يرتفع عنه البكاء والزفرات لهذا المشهد الكريم وهو الغاية التى يصل إليها العارف . ومن هذا المقام قال عيسى عليه السلام : (والسلام على يوم ولدت) فكان أكمل فى الوُصلة ممن قيل عنه : وسلام عليه يوم ولد وهو يحيي ؛ فهذا مقام أول لهذا المقام الثانى العالى فإن يحيي من الحياة وهى المسخرة لعيسى عليه السلام فإنه كان يحيي الموتى ، فلهذا قلنا فيه إنه أعلى فى قوله : «والسلام علىّ» ، فافهم .

حنت العيس إلى أوطانها　　من وجيز السير حنين المستهام

ما حياتى بعدهم إلا الفنا　　فعليها وعلى الصبر سلام

يقول : إن الأعمال التى يصعد عليها الكلم الطيب إلى المستوى الأعلى يقول : حنت إلى أوطانها التى هى الأسماء الإلهية التى عنها صدرت وبها تعرفت . وهذا الحنين هو الذى أوجب لها سرعة السير . وقد تكون أيضاً الهمم وهى عندنا من الأعمال فلهذا شرحناها بالأعمال لتضمنها الهمم وجعله حنين محبة وشوق لا حنين عرض يزول بزوال متعلقه . وقوله :

* ما حياتى بعدهم إلا الفنا *

يقول : إذا ارتفعت الهمم نحو مقصودها أقيمت فى الفنا عن الفنا فاتصلت بالحياة التى لا تنفد ولا يعقبها صد ثم سلم وأودع الصبر والحياة الطبيعية لفراقه موطنها الذى هو عالم الحس والتركيب الطبيعى .

٧ * * *

بان العـزاء وبان الصـبر إذ بانوا
بانوا وهم فى سـويدا القلب سُكّان

يقول : بان مقام المنعة والصبر بانوا ؛ يعنى المناظر الإلهية عنى . وقوله : * . . . فى سويدا القلب سكان * يقول : لـما كان المناظر الإلهية لا تشبه لها إلا بالمنظور إليه وهو الله ؛ وهو سبحانه فى سـويداء القلب كما يليق بجلاله من قوله تعالى : « ما وسعنى[1] أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن » فهو فى قلب العبد لـكنه لما لم يعط تجلٍ فى هذه الحالة لم توجد المناظر فبانت من كونها مناظره مع كونه فى القلب ؛ ويقال : عز الأمر إذا امتنع فلم يوصل إليه والصبر حبس النفس عن الشكوى ؛ يقول : بان هذا كله لبينهم ؛ ثم قال :

---

(١) أخرجه مسلم جـ ٨ ص ١٤٢ ، ١٤٣ فى باب صفة الجنة ونعيمها .

سألتهم عن مقيل الركب قيل لنا :

مقيلهم حيث فاحَ الشيحُ والبانُ

يقول : سألت العارفين حقائق الشيوخ المتقدمين الدين أبانوا لنا الطريق وأوضحوا لنا مناهج التحقيق لما رأيناهم فى تجلياتنا كشفاً فالضمير فى سألتهم يعود عليهم عن ركب هذه المناظر الإلهية أين قالوا ؛ يقول: أى قلب وعين اتخذوه مقيلا فقالوا لنا اتخذوا مقبلا كل قلب ظهرت فيه أنفاس الشوق والتوقان وهو قوله * . . . فاح الشيخ والبان * فالشيح من الميل والبان من البعد وفاح من الفوح وهى الأعراف الطيبة ؛ وإن أراد أن يجعله من الفيح الذى هو الاتساع ساغ أيضاً فإنه يليق به فإن السعة مطلوبة فى هذه الحالة لأنه قال : ما وسعنى ؛ ولا يكون الفيح هنا من فاحت الجيفة تفيح فيحاً وهى الرائحة الكريهة فإن هذه المقامات لا تليق بها وهذا أن النبات ريحها طيب فكأن المعنى يناقضه . ثم قال :

فقلت للريح سيرى والحق بهم فانهم عند ظل الأيك قطّان

يقول لما قال لى المسؤلون أن قيلولة أحبتى حيث كان عالم الأنفاس الشوقية لذلك قال فقلت للريح يقول بعثت نفسا شوقيا من أنفاسى الحق بهم ليردهم إلى والأيك شجرة الأراك وهى مساويك يشير إلى مقام الطهارة ومرضاة الرب للخبر الوارد أن السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب

وقطان مقيمون فى راحة فإن الظل الراحة لا سيما ظل الأشجار والكَنَف فإنه من قعد فى ظلك فهو فى كَنَفِك .

وبلغهم سلاما من أخى شَجَنٍ فى قلبه من فراق القوم أشجان

يقول وأوصل إليهم سلاماً من قوله تعالى : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)[1] مصدر، يعنى لا يعترض عليكم من أخ ذى شجن يقول: من صاحب حزن فى قلبه من فراق القوم أشجان يقول : إنه فى مقام التلوين فكنى عنه بالقلب من تقلبه فى هذه الأحوال والأحزان التى فى قلبه لفراقهم إنما هو من حيث أنه لم ير وجه الحق فيمن أعقبهم فى محله حين لا يحس بفراق أصلا ، وإن كان لا يصح قبل هذا المقام لأن الحقائق تأباه وترد وجوده فإن النبى صلى الله عليه وسلم يقول « لى وقت لا يسعنى فيه غيرُ ربى» ففرّق بين الأحوال وإن كان الحق مشهوداً له فى كل حال غير أنه لما كان حال شهود الذات أسنى الشهود وأحلاه وأعظم أثراً لذلك يقوم عنده وجه الحق فيما عدا هذا الشهود كما يقول لو تعشق بالتعلقات الإلهية لكانت لذة شهود تعلق العلم أعلى من شهود تعلق القدرة لأنه أعم وتعلق القدرة أخص لأن محلها الممكنات لا غير .

***

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .

وقال رضى الله عنه

وزاحمنى عند استلامى أوانِسٌ أتين إلى التطواف مُعْتَجِرات

يقول لما امتدت اليمين المقدسة إلىّ لأبايعها البيعة الإلٰهية من قوله تعالى (إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم)[1] جاءت الأرواح الحافون من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويطلبون يبايعونه هذه البيعة فى هذه الحال التى أقمت فيها وسماهم أوانس لوقوع الأنس بهن وأنثهم لأن اللفظة التى تطلق عليهم تقتضى التأنيث وهو الملائكة والجنة ، ولهذا جعلهم من جعلهم بناتاً وإناثاً وقوله معتجرات أى غير مشهودة له سُبحات وجوههم لأنهم غيب لنا لا نراهم ثم قال :

حَسَرْنَ عن أنوار الشموسِ وقلن لى
تَوَرَّع فموت النفس فى اللحظـــات

يقول : ظهرن له وارتفع الحجاب فسطعت أنوارهم لعينه مثل الشموس واختص ذكر الحافين حول العرش لمناسبة الطائفين فإنهم حافون من حول الكعبة ، وقوله تورع يقول اجتنب الملاحظة لئلا تذهب بنور بصرك المفيد كما جاء « لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » فيقول هذه الأرواح تقول له لا تنظر إلينا فتعشق بنا حالا ومقاماً ، وأنت إنما خلقت له لا لنا فإن احتجبت بنا عنه أفناك عن وجودك به فمت فتكون عليك لحظة مشومة فنصحوه بقولهم تورع تنبيهاً .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الفتح .

وكم قد قتلنا بالمُحَصَّب من منى نفوساً أبيّات لدى الجمَرات

يقول : كم من نفس أبية ، يعنى بالنفوس الأبية هى التى تحب معالى الأمور ، وتكره مذام الأخلاق والتعلق بالأكوان ، ومع ذلك حجبهم ، وتيمهم جمال الأكوان فى أوقاتٍ ما وفى مقامات ما ، فتحفظ لئلا تلحق بهم ، ولم يريدوا أنفسهم خاصة بهذا الخطاب ، فإن هؤلاء الأرواح ما لهم دخول فى المحصب ولا غيره فإنهم حافون ، وليس لهم مناسبة إلا مع الطائفين ، وإنما تعنى أمثالها من الأرواح فى كل مقام ، كما قال : (كخيفتكم أنفسكم) يعنى أمثالكم لا يريد عين نفس الخائف .

وفى سَرْحَة الوادى وأعلام رامةٍ وجَمْع وعند النَّفر من عرفات

يقول : فى هذه المواطن المذكورة كلها ماتت نفوس أبيّات كانت تزعم أن لا تعلق لها ولا تعشق إلا بالنور المحض المطلق ، فلما تجلى عند مفارقتها ظلمة الطبيعة والهبا ، وارتفعت عن حضيضها إلى أنوار الروحانيات العلى فى هذه المواطن وأمثالها بهرها حسن ذلك النور وجماله وبهاؤه ، فوقفت معه عن مقصودها لجهلها به فلا تسكن مثلهم فتندم .

ألم تدر أن الحسن يسلبُ من له عفافٌ فيُدْعى سالبَ الحسنات

فموعدنا بعــد الطواف بزمزم

لدى القبة الوسطى لدى الصَّخَرات

يقول : إن الجمال محبوب لذاته ومن ملكه شيء كان لما ملكه والحسنة مشتقة من الحسن والحسن معشوق لذاته والحسنة ما لها قوة الحسن فإنها

معنوية من باب الإيمان غَيبٌ فى الشهود وهو من نتائج الأعمال الشاقة وتحمل المكاره ، فهى نتائج مضافات ومكارم فلهذا كان الحسن المشهود غالباً عليها حاكماً على من شاهده فلهذا يقال له سالب الحسنات لا يترك التلذذ بمشهد الحسن فيمن كان يفعل إلا ما يشير به حامل ذلك الحسن وقد يشير بما يحول بينك وبين معالى الأمور من حيث التوصل إليها لا من حيث هى فإن التوصل إليها بالمكاره كما قال عليه الصلاة والسلام: « حفت الجنة بالمكاره[1] » وكما رأى بعض المشاهدين معروفاً فى النار فى وسطها وقد حفت به وكانت المكاره التى حازها إلى مكانه الذى رآه فيه يشير له فى كشفه أنه لا يصل إلى مقامه إلا بعد أن يخوض غمرات تلك النيران ، ثم قال : * فموعدنا بعد الطواف بزمزم * البيت بكماله .

يقول : تقول له هذه الروحانيات أشهدناها من مقامات الحياة التى نحن لها فإنها أرواح والمناسبة بينها وبين الماء الحياة ، وقوله : لدى القبة الوسطى يعنى البرزخ لدى الصخرات، يقول تنزل المعانى النفيسة فى القوالب المحسوسة وكنى عنها بالصخرات التى هى الجمادات الخالية للعبادة والعرف ، أى أن هذه الأرواح فى هذه الصور الخيالية معان لا ثبات لها فإنها سريعة الزوال من النائم باليقظة ومن المكاشف بالرجوع إلى حسه كما أن النساء الذين يصلون إلى ذلك الموضع إنما يعمرونه ساعة ثم ينصرفون إلى أماكنهن فلهذا أوقع التشبيه بذلك يقول لا تغتر بتجلى حسن الأكوان العلوية

---

(١) أخرجه مسلم فى باب صفة الجنة ونعيمها جـ ٨ ص ١٤٢ / ١٤٣ .

والسفلية لعينك فإنه كل ما خلا الله باطل أى عدم مثلك فكأنك ما زلت عنك فكن له ليكون لك لا تكن لك فقد نصحوا صلوات الله عليهم .

هنالك من قد شفه الوجد يشتفى بما شاءهُ من نسوة عَطِرات

يقول: فى عالم البرزخ يشتفى من أراد التلذذ بالمعانى القدسية فى القوالب الحسية من عالم الأنفاس والأرواح ، وسبب ذلك الجمع بين الصورتين المعنى والصورة فليلتذ عيناً وعلماً .

إذا خفنَ أسدلنَ الشعور فهنّ من
غدائرها فى أُلْحُفِ الظلمات

يقول هذه الصور الجليلة إذا خفن فى تجسدهنّ من تقييدهنّ بالصورة عما هى عليه من الإطلاق أشعروك بأنهن حجاب على أمر هو ألطف مما رأيت فعندما تحس أنت بذلك الشعور ارتفعت همتك لذلك فانسترت عنك فأخاين الصور واسترحن من التقييد وانفسحن فى مراتبهن المنزهة .

* * *

درست ربوعهمُ وإنّ هواهمُ أبداً جديداً بالحشا ما يدرُس

يقول : إن محال الرياضات والمجاهدات التى هى منازل الأعمال تغيرت للسن وعدم قوة الشباب واختص ذكر الربع دون الطلل والرسم والدار والمنزل ليكون له اشتقاق من زمن الربيع الذى هو بمنزلة الشباب من عمر الإنسان فإن التغيير إنما لحق قوة الشباب وريعانه وكنى عن النفس التى هى محل الهوى بالحشا لأنها كالمحشوة فى البدن أى هو حشو فيه ، ولذا

قال : (فلولا إذا بَلغَت الْحلقوم)[1] يعنى عند خروجها بالموت فنقول إن هواهم بالنفس ما يتغير ، بل هو على غضاضته وطراوته لأنه قائم بذات غير طبيعية :

هذى طُلُولُهمُ وهذى الأدمعُ ولذكرهم أبداً تذوبُ الأنفس

يقول : هذى طلولهم يقول أشخاص منازلهم كأن الشخص هو الطلل وهو من طل إذا بدا يظهر ومنه الطل الذى هو أول نشء المطر فهو ضعيف وهذه الأدمع مناسبة للطلل لاشتقاقه من الطل أى يبكى على التقصير لعدم مساعدة الآلات فيما يريده من الطاعات ، وقوله : ولذكرهم وهو حنين العارفين فى نهايتهم إلى موطن بدايتهم ، وأنه ليس شىء أعظم لذة من البداية .

ناديت خلفَ ركابهم من حُبِّهم يا من غناه الحُسن هاأنا مفلس

يقول : لما رحلت قوى الشباب وملذوذات البداية فى الفترة والحيرة والهمم تزعج والمركب غير مساعد بقيت فى صورة المفلس الذى يرى أطايب الملذوذات ويدخل سوق النعيم والشهوات وماله درهم يصل به إلى نيل شهوة من شهواته والضمير فى غناه يعود إلى عصر الشباب وعلى عصر البدايات فهو متوجه لها ، ونسب إليه الحسن لكونه معشوقاً ، فإن الحسن معشوق لذاته فى كل شىء ظهر .

---

(١) الآية ٨٣ من سورة الواقعة .

مرّغت خدى رقةً وصبابةً فبحق حق هوا كُمُ لا تؤيسوا

يقول : مرّغت خدّى رقة وصبابة يشير إلى نزوله لحقيقة من الذل والافتقار طلباً للوصال ، فإن الحق يقول تقرب إلى بما ليس لى هو والذلة والافتقار والصبابة رقة الشوق ، فإذا كانت الذلة بضرب من المحبة هى أمكن فى الوصلة من الذلة بلا حب،وقوله رقة يشير إلى حالة اللطف والارتقاء عن عالم الكثافة وجعل للهوى حقاً يقسم به لكونه ذا سلطان لأنه من العالم العلوى ، ولهذا سمى سقوطه فقيل فيه هوى أى سقط .

من ظلّ فى عبراته غَرَقاً وفى نار الأسى حَرَقاً ولا يتنفس

يقول إن حالته مترددة بين عبرته وزفرته فكنى بالعبرة من الاعتبار الذى هو الجواز عن حالة النجاة له إلى الهلاك فيه وهو الغرق وكنى بالزفرة عن نار الأسى أى مقام الحزن وحرارة الشجن ولا نفس رحمانى بارد يثلج به الفؤاد فيبرد حرارة الحزن لفوت المحزون عليه بمشاهدة ما ، عن عناية إلهية ولا منج يأخذ بيده ليخلص من الغرق فى بحر الدموع من كونها عبرات فلا يجوز إلى شىء من شىء ، بل يشهده فى كل شىء فإن التفرقة للمعارف من حيث المشهود شديدة .

يا موقد النار الرُّوَيدا هذه نارُ الصَّبابةِ شأنكم فلتقبسوا

يخاطب كل طالب نار ، يقول له لا تتعنّ فى طلب نار بوجودى فهذه نار الشوق فى كبدى ظاهرة نخذ حاجتك منها أى انتقل إلى النار اللطيفة التى هى حالة موسوية منشأ لطلب نار لأهله يصلح به عيشهم فنودى من

حيث طلبهم فى نار يسرع بالإجابة من غير انتقال من حال إلى حال وكان التغيير فى النارين لما فى الطلب ، فإن أوحد الهمة لأنه ما تراءى له المشهود إلا فى صورة نارية متعلقة بشجرة وادية من التشاجر وهو مقام تداخل المقامات لأنه مشهد للكلام والكلام متداخل المعانى على كثرتها فأشبه الشجرة فنودى من الشجرة هذا المعنى ، وفى النار لأنها مطلوبة فلا يتغير عليه حالٌ .

* * *

لمعت لنا بالأبرَقين بروق فصفت لها بين الضلوع رعود

الأبرقين مشهدين للذات مشهد فى الغيب ومشهد فى الشهادة فالغيب غير متنوع لأنه سلبى والشهادى متنوع لأنه فى الصور وقوله بروق لتنوع الصور فيه ، وكنى عنها بالبروق لسرعة زوالها وجاء بالرعود بعده الذى هو الصوت عبارة عن مناجاة إلٰهية حصلت عقب هذه الشهود حالة موسوية تراءى له عن النار الذى هو كالبرق ، ثم نوجى فأعقبه الكلام فكنى عنه بالرعد لأجل البرق ولأنها مناجاة زجر .

وهمت سحائبُها بكل خميلةٍ وبكل ميَّادٍ عليك تميد

الخميلة الروضة وهى قلب الإنسان بما يحمله من المعارف الإلهية والسحاب هنا هى الأحوال التى تنتج المعارف وهمت سحت وسكبت عن المطر وذكر السحاب لتضمنه مع قوله همت فاستغنى وكذلك الخميلة فهى مطر فى السحاب وإزهار فى الرياض ، وكنى بالغصن فى هذه الروضة يعنى

الحركة المستقيمة التى هى نشأة الإنسـان من قوله خلق آدم على صورته فمن هذا المقام يميد أى يميل عليك ليفيدك ، ثم قال :

نجرت مدامعها وفاح نسيمها   وهفت مطوّقة وأورق عودُ

يقول : سالت أودية معارفها ونم عالم الأنفاس بما تحمله من طيب أعراف أزهار المعارف الإلهية بحسب مشام الطالبين والطوقة إشارة إلى النفس الكلية بالأثر الذى لها فى النفس المروية التى ظهرت على صورتها فى كونها ذات قوتين علاّمة فعالة وقوله وأورق عود الذى هو لباس الأغصان يقول: (خذوا زينتكم عند كل مسجد)، فإن زينة الله غير محرمة علينا والذى وقع الذم عليها زينة الحياة الدنيا أى الزينة القريبة الزوال أى لا تلبسوا من الملابس إلاّ ما يكون دائماً كملابس العلوم والمعارف فإنها لا تخلق ولهذا قال(ولباسُ التقوى ذلك خَيْر)[1] يعنى المعلم الذى ألبسك التقوى من قوله : (واتقوا الله ويعلمكم الله)[2] .

نصبوا القباب الحمر بين جداول   مثل الأساوِد بينهن قعود

أشار بالقباب الحمر إلى حالة الأعراس بالمخدرات ، يريد الحكم الإلهية والجداول فنون العلوم الكدنية التى متعلقها الأعمال الموصلة أى هذه الحكم وشبهها بالأساود وهى الحيات لمشيها على بطونها ، فإنه قال تعالى(فمنهم من يمشى على بطنه) يشير إلى الباحثين من أهل الورع عن أغذيتهم فإنه بطيب المطعم على الوجه المشروع الذى يحدث القوى لاستعمال الطاعات يتنور

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة

القلب فتنزل هذه الحكم الإلهية التى قال عنها بأنهن قعود بين هذه الجداول فى القباب الحمر ، فتنبه لما أشرنا إليه ، ثم أخذ يصف مراتبهن فى البيت بعده .

بيضٌ أوانس كالشموس طوالعٌ عين كريمات عقائل غيد[1]

وصفهن بالبياض أى لا شك فيهن مثل النصوص كما قال « ترون الشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب » أى هى من الوضوح بحيث أن لا يدخل فيها شك لمن ينظر إليها ، وقوله أوانس يتونس بهن من الأنس والنظرة والنظر فيها أى يبصرهن كما جاء فى الخبر الإلهى : (كنت بصره الذى يبصر به) ، وقوله كالشموس فى الرفعة ومقام القطبية وارتفاع الشكوك وإعطاء المنافع فى المولدات والطوالع المستشرفات على القلوب الطالبة لها المتشوقة لنزولها عليها وظهور أنوارها فيها والعين الواسعات النظر يريد قوة النور والكشف والكريمات الطيبات الأصول ، أى أنها على نتائج الأعمال المشروعة التى نصبها الحق ما هى مثل حكم الفلاسفة التى هى نتائج أوضاعهم ، ويعرف ذلك أصحاب الذوق والعقائل مشتقة من العقل أى هن ممن يعقلن ما يلقى إليهن ويعرفن مقداره ويميزنه ، فيكون تنزلهن على ذلك القدر والحد وقوله غيد أى مائلات لمن نزلت عليه بضرب من الحنو

---

(١) أوانس : آنسة طيبة النفس التى يؤتنس بها . عقائل جمع عقيلة . وهى فى الأصل المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل فى الكريم النفيس من كل شىء من الذوات والمعانى . غيد . الغيد بفتحتين النعومة .

فإن الميل حنو يشير إلى مقام الحنان والرأفة والعطف والمحبة والرغبة والميل لا يكون إلا من استواء فيشير إلى أنهن من حيث هن فى مقام الاستواء والاعتدال وعدم الالتفات ، وإذا استدعوا بالسؤال والرغبة والتواضع والشوق والمحبة ملن عن ذلك الاستواء إلى المنادى لما لم يكن فى قوته العزوج إليهن فكان منها النزول .

* * *

وقال رضى الله عنه

إنى عجبت لصبٍ من محاسنه تختال ما بين أزهارٍ وبستانِ
فقلت لا تعجبى ممن ترين فقد أبصرتِ نفسكِ فى مرآة إنسانِ

قالت يعنى الحضرة الإلهية عجبت لصبٍ يعنى المائل إليها بالمحبة ووصفها بالتعجب من باب قول النبى صلى الله عليه وسلم « أن الله يتعجب من الشاب ليست له صبوة » وقوله من محاسنه تختال ما بين أزهار وبستان يعنى بالأزهار الخلق والبستان المقام الجامع وهى ذاته ووصفه بالخيلاء مناسبة لقولها عجبت ومن باب قول عتبة الغلام لما أخذ يختال ويتيه فى مشيته فقيل له فى ذلك فقال وكيف لا أتيه وقد أصبح لى مولى وأصبحت له عبداً وإذا تحقق العبد بالحق تحقق كنت سمعه وبصره وتحقق أن يكون كله نوراً فجميع ما ينسب إلى الحق إذا انتسب إليه يستحقه ذلك المقام ثم أعاد القول هذا المحب على الحضرة فقال لا تعجبى مما ترين فإنى لك كالمرآة وهذه

أخلاقك التى تخلقت بها فنفسك أبصرت لا أنا ولكن فى إنسانيتى القابلة لهذا التجلى ، فهى لها كالبستان وهذا مقام رؤية الحق فى الخلق وعند بعضهم مقام رؤية الحق فى الخلق أعلى من مقام رؤية الخلق فى الحق وسر هذين المقامين عجيب فإن الناس فى حال نعيمهم فى الجنة وتصرفاتهم هو فى مقام رؤية الخلق فى الحق فلهم الاقتدار وهم فى الكثيب فى رؤية الخلق فى الحق وبتلك الصفة يرجعون إلى الجنة والأمر على الحقيقة رؤية حق فى حق لأنهم يشهدونه فى الكثيب .

ألا يا حمامات الأراكةِ والبـــان

ترفقن لا تُضْعِفنَ بالشَّجْوِ أشجانى

أراد بالحمامات واردات التقديس والرضى والنور والتنزيه ، فالتقديس والرضى للأراكة لأنه شجر يستاك به وهو مطهرة للفم ومرضاة للرب ، والنور والتنزيه للبان من حيث الدهن ومن حيث البعد كما قال ، فكانت البان أى كانت سليمى فقال للواردات رفقاً على لا تضعفن من التضعيف ما تلقين إلىَّ فى خطابكن من ثمرات التعشق والمحبة المهلكة للمحبين أى خطابكن يشجى ويضاعف شجوى ، وقد يكون من الضعف أى شجوى يضعف لشجوكن من باب قوله من تقرب إلىَّ شبراً تقربت منه ذراعاً .

ترفقن لا تُظْهِرْن بالنَّوحِ والبكا خَفِىَّ صَباباتى ومكنون أحزانى

يخاطب الواردات التى ذكرناها يقول : لا تظهرن بالنوح التى هى المقابلة فى الشجون والبكاء إرسال المدامع لسبق المقدور وعدم تبدله وقد رأيته فى

مشهد من المشاهد يبكى على ما سبق فى العلم من شقاء الدجال وأبى لهب وأبى جهل من باب قوله تعالى (ما ترددت فى شىء كترددى فى قبض روح عبدى المؤمن وهو يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له من لقائى) فمن هذا المقام يكون هذا البكاء ، وقوله خفى صباباتى ما تنطوى عليه الضلوع من رقة الشوق للمنظر الأجلى ، ومكنون أحزانى ما تستره من ألم الفقد عند رجوعها إليها .

أطارِحُها عند الأصيلِ وبالضُّحى بحَنَّة مشتاق وأنة هَيْمان

يقول : أطارحها أقول مثل ما تقول يشير إلى حالة الصدى الذى هو رد الصوت إليك بما يخرج منك قال الله تعالى للنفس أول ما خلقها : من أنا ، قالت له من أنا لصفائها فأسكنها فى بحر الجوع أربعة آلاف سنة ، فقالت له أنت ربى ، وقوله عند الأصيل وبالضحى وهما طرفا النهار وهو قوله تعالى (بالعشى والأبكار) وقوله(قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) فهو المقدس نفسه بنفسه ، ويظهر الأثر فى غيره ، فينسب إليه الأمر وهو ليس هناك لأنه به يتكلم وبه يسمع وبه يبصر ، وقوله تحية مشتاق وأنة هيمان من قوله يحبهم ويحبونه ، فمن هذا المقام تكون المطارحة بين من ذكرنا والحنين للاشتياق والأنين الهيمان .

تنَاوَحتِ الأرواح فى غَيْضة الغَضَا

فمالت بأفنانٍ علىّ فأفنـــانى

يقول تقابلت الأرواح جمع روح وإذا أراد جمع ريح فيريد عالم الأنفاس

وكنى عن نيران الحب بالغضا والغيضة شجرة ووصفها بالميل فإن لهيب النار الذى هو المارج فإنها للنار بمنزلة الأغصان للشجر فتميلها الرياح كما تميل الأغصان ، فمن هنا أوقع التشبيه لها بالغيضة والأفنان ، قال وكان ميل هذه الأفنان الشوقية اللهيبية لتفنينى عنى حتى يكون هو ولا أنا غيرة على المحب أن يكون له وجود فى نفسه لغير محبوبه ، فكان كما أراد ، فقال فأفنانى ميل هذه الأفنان ووصفها بالمناوحة لكون المحبة تقتضى الجمع بين الضدين

وجاءت من الشوق المُبَرِّح والجوى
ومن طرف البلوى إلىّ بأفنان

يقول ساقت معها إلىّ فنوناً كثيرة من الشوق المبرح أى المظهر لما يكنه جنانى من هواه ، والجوى الذى هو الإنفساح فى المحبة لأنه على الحقيقة مأخوذ من الجوّ ومن طرف جمع طرفة ، وهى أوائل كل طرفة وأول كل بلاء أصعبه ، فإذا سكنت إليه النفس هان عليها والبلوى من الابتلاء أى ساقت إلىّ أوائله التى هى أصعبها .

فمن لى بجمع والمحصب من منى
ومن لى بذات الأثل من لى بنعمان[1]

يقول من لى بالجمع بالأحبة فى مقام القربة وهى المزدلفة والمحصب موضع تحصيب الخواطر المانعة من قبل هذه النية المطلوبة للمحبين ومن لى بذات الأثل الذى هو الأصل ، فإن الأصل فى المحبة أن تكون أنت عين

---

(١) ذات الأثل اسم مكان ولكنه قصد به ماذكره .

محبوبك وتغيب فيه عنك فيكون هو ولا أنت[1] من لى بنعمان أى بهذا المقام الذى يكون به النعيم الإلهى القدسى .

تطوفُ بقلبى ساعةً بعد ساعةٍ   لوجدٍ وتبريحٍ وتلثمُ أركان
كما طاف خير الرسل بالكعبة التى   يقول دليل العقل فيها بنقصان
وقبّل أحجاراً بها وهو ناطق   وأين مقام البيت من قدر إنسان

شرح البيت الأول ، أى تتكرر عليه مع الأنات لتقلبه هو فى الحالات ولذلك جاءه بالقلب ولم يقل بالنفس ولا بالروح ، وقوله لوجد وتبريح من أجل إلقائها فى الوجد بها والشوق المزعج إليه وتلثم أركانى يعنى بالأركان الأربعة التى قام عليها هذا الهيكل وتلثمه أى تقبله فوق اللثام يعنى الحجاب فإنه ما فى قوته مشاهدتها إلا بواسطة ، وقد طافت بقلبه فقد عمرت ذات المحب حسّاً ومعنى هذه الحقائق .

فكم عهدتْ أن لا تحول وأقسمت   وليس لمخضوبٍ وفاء بأيمان

يقول هذه الواردات قد يكون منها ما فيه امتزاج بالمزاج فكنى عما فيها منها بالمخضوب ، ولهذا وصفها بعدم الوفاء ، وتسمى هذه واردات نفسية وهى التى وردت على النفس حين خاطبها الحق (ألست بربكم) وأخذ

---

(١) معناها شدة المحبة وتمام التعلق وأما ما يسبق إلى الذهن من الاتحاد أو الحلول فقد نفاه رضى الله عنه فيما سبق

عليها العهد والميثاق ، ثم بعد ذلك لم تثق بمقام التوحيد له بل أشركت على طبقاتها فإنه ما سلم من هذا الشرك أحد ، فإن كل أحد قال أنا فعلت وقال على حين غفلة عن مشاهدة القائل فيه وبه من هو .

ومن عجب الأشياء ظبي مبرقع يشير بعُنّابٍ ويُومي بأجفان

يقول من أعجب الأشياء ظبي يريد لطيفة الإلهية مبرقع يقول محجوب بحالة نفسية وهي أحوال العارفين المجهولة ، فإن العامة تظهر بما تظاهر به الطائفة المحققة من الصور بخلاف أصحاب الأحوال ، ولا يتمكن التصريح من أهل هذا المقام بأحوالهم ، فإنهم يكذبون لعدم الشاهد ، ولكن يعرفون بالإشارة والإيماء عند بعض الذائقين لأوائل أحوالهم وأراد بالعناب هذا ما أراده بالمخضب في اليد قبله والإيماء بالأجفان يقول أدلة النظر في أحكام أصحاب هذا المقام يقوم للذائقين لأوائله فتقع المعرفة لهم فيهم أنهم وإن اشتركوا مع العامة في صورة الحكم الظاهر فهم بائنون في أسرارهم في أصلها فشتان بين من ينطق بنفسه وبين من ينطق بربه واللسان واحد عند السامع في الشاهد .

ومرعاه ما بين الترائب والحشا ويا عجباً من روضة وسط نيران[1]

يقول ومرعاه بين الترائب والحشا من العلوم التي في صدره والحشا

---

(١) الترائب : ضلوع الصدر . الحشا : ما دون الحجاب مما في البطن من كبد وطحال وكرش وما تبعه .

ما حشى به باطنه وقلبه من الحكم والإيمان كما قال وضرب بيده إلى صدره: إن هاهنا لعلوما جمة لو وجدت لها حَمَلة ، ثم أخذ يتعجب من محب أحرق بنيران المحبة والاشتياق كيف لم تحرق ما يحمله من الحكم والعلوم التى بين ترائبه وفى حشاه ، ووصفه بالروضة لاختلاف أزهارها وأثمارها فإن فنون العلوم كثيرة متنوعة ، ومن شأن النار إذا تعلقت بالأشجار أحرقتها وهذه علوم محمولة فى هذا الشخص ونار الحب متأججة فى ذاته فكيف لم تذهب بهذه العلوم فلا يبقى لديه علم أصلا ، والجواب عن هذا أنه منه تكون وإذ تكون شىء عن شىء لم يعدمه ذلك الشىء كما يقال فى السمَنْدَل (١) إن كان حقاً أنه حيوان يتكون فى النار فلا تعدو عليه ، ولما كانت هذه العلوم والمعارف نتائج عن نيران الطلب والشوق إليها لم تغن بها .

لقد صار قلبى قابلا كلَّ صورة فمرعى لغزلان ودَيْرٌ لرهبان

لقد صار قلبى قابلا كل صورة كما قال الآخر ما سمى القلب إلا من تقلبه فهو يتنوع بتنوع الواردات عليه وتنوع الواردات بتنوع أحواله وتنوع أحواله لتنوع التجليات الإلهية لسره وهو الذى كنى عنه الشرع بالتحول والتبدل فى الصور ، ثم قال فمرعى لغزلان أى إذا وصفناه بالمرعى كنيناً عن السارحين فيه بالغزلان دون غيرهم من الحيوانات لأن كلامنا بلسان الهوى وبالغزلان يقع التشبيه بالأحبة للمحبين فى هذا اللسان ولاشك

---

(١) السمندل قال فى القاموس طائر بالهند لا يحترق بالنار .

أن عين الفرس سوداء متسعة ، ولكن ما وقع التشبيه إلا بعين الغزلان وقوله ودير لرهبان يقول إذا جعلناهم رهباناً من الرهبانية جعلنا القلب ديراً للمناسبة لأنه منزل الرهبان وموضع إقامتهم .

وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن

يقول وهذا القلب صورة بيت الأوثان لما كانت الحقائق المطلوبة للبشر قائمة به التي يعبدون الله من أجلها ، فسمى ذلك أوثاناً ولما كانت الأرواح العلوية حافين بقلبه سمى قلبه كعبة وهى الأرواح المذكورة له إذا مسه طائف من الشيطان ، فهن أصحاب اللمات الملكية ولما حصل من العلوم الموسوية العبرانية جعل قلبه ألواحاً لها ، ولما ورث من المعارف المحمدية الكمالية جعلها متحفاً وأقامها مقام القرآن لما حصل له من مقام أوتيت جوامع الكلم ثم قال :

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالدين دينى وإيمانى

يشير إلى قوله (فاتبعونى يحببكم الله) فلهذا سماه دين الحب ودان به ليتلقى تكليفات محبوبه بالقبول والرضى والمحبة ورفع المشقة والكلفة فيها بأى وجه كانت ولذا قال أنى توجهت أى آية سلكت مما يرضا ولا يرضى فهى كلها مرضية عندنا ، وقوله فالدين دينى وإيمانى أى ما ثم دين أعلى من دين قام على المحبة والشوق لمن أدين له به وأمر به على غيب وهذا مخصوص بالمحمديين فإن محمداً صلى الله عليه وسلم له من بين سائر الأنبياء مقام المحبة بكمالها مع أنه صفى ونجى وخليل وغير ذلك من معانى مقامات الأنبياء

وزاد عليهم أن الله اتخذه حبيباً أى محباً محبوباً وورثته على منهاجه .

لنا أسوة فى بشرٍ هندٍ وأختها   وقيس وليلى ثم مىّ وغيلان

ذكر المحبين فى عالم الكون المُهيمين بعشق المخدرات فى الصور من الأعراب المتيمين ويعنى بأختها جميل بن معمر مع بثينة وبياض ورياض وابن الدريج ولبنى وغيرهم يقول الحب من حيث ما هو حب لنا ولهم حقيقة واحدة غير أن المحبين مختلفون لكونهم تعشقوا بكون وإنا تعشقنا بعين والشروط واللوازم والأسباب واحدة ، فلنا أسوة بهم فإن الله تعالى ما هيم هؤلاء وابتلاهم بحب أمثالهم إلا ليقيم بهم الحجج على من ادعى محبته ولم يهم فى حبه هَيمان هؤلاء حين ذهب الحب بعقولهم وأفناهم عنهم لمشاهدات شواهد محبوبهم فى خيالهم ، فأحرى من يزعم أنه يحب من هو سمعه وبصره ومن يتقرب إليه أكثر من تقربه ضعفاً .

بذى سَلَمٍ والدير من حاضر الحما

ظباء تريك الشمس فى صورة الدمى

ذو سلم مقام ينقاد إليه لجماله والدير حالة سريانية وحاضر الحمى ما طاف بحجاب العزة الأحمى ثم شبه ما ينزل على روحه من الحكم الإلهية النبوية بالظباء فى شرودها وملازمتها الفيافى التى هى مقام التجريد وبالشمس من نورها وشموسها وسريان منافعها وبالدمى صور الرخام وهى المعابد السريانية العيسوية معارف لم يقترن معها عقل ولا شهوة فجعلها جمادية فإن الجماد والملك مجبولان على المعارف من غير شهوة ولا عقل والحيوانات فطروا

على المعارف والشهوات ورفع عنهم الحرج فى ذلك من جانب المطالبة الإلهية، والانسان والجن فطروا على العقول والشهوة وجعل لهم القوة والفكرة وسائر القوى لتحصل المعارف ، فعقولهم لردّ شهواتهم لا لإفشاء العلوم .

فأرْقُبُ أفلاكا وأَخْدُمُ بيعةً وأحرُسُ روضاً بالربيع منمنماً

فمن كون هذه المعارف شمساً قال أرقب أفلاكا أى أرصد مجاريها التى تدور بها وفيها ، وهى الحالات التى تظهر فيها هذه المعارف فى باطنه ويقول ومن حيث هى دمى أى صورة الرخام أخدم بيعة لأنها محل هذه الصور وهى المعابد السريانية العيسوية من مقام الكلمة والروح ويقول ومن حيث هى ظباء أحرس لها روضاً بالربيع منمنماً لتسرح فيه وهى ميادين المعاملات والأخلاق الإلهية والمنمنم الموشى بضروب الألوان أى أنها مزينة بالحقائق الإلهية وجعل لها الربيع لأنه زمان استقبال الشباب لحداثتها وطروها من قوله تعالى : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)[1] فهو أعشق للنفوس وأمكن فى القبول ، لأن اللذة بالجديد الطارىء أعظم فى النفس من ملازمة الصحبة ، وفى هذا أسرار فى حدوث نعيم الجنان مع الأنفاس ، وحدوث الأنفاس .

فوقتاً أسمّى راعىَ الظبى بالفلا ووقتاً أُسمّى راهبـاً ومنجما[2]

---

(١) من الآيه ٢ من سورة الأنبياء .

(٢) الفلاة : المفازة ، والجمع فلا .

يقول : من كونى أحرس الروض لهذا الظبى سميت راعياً ، ومن كونى أخدم البيعة من أجل الدمية سميت راهباً ، ومن كونى أرقب الشمس فى فلكها سميت منجماً .

والمقصد : اختلاف الحالات عليه فى باطنه فتختلف عليه الواردات الإلهية والعلوم بحسب ما تعطيه قوى هذه الأحوال بما وقع به التشبيه من هذه الأكوان ، فهذه أذواق مختلفة وإن كانت العين واحدة فى هذا كله فهو من باب ما ذكره مسلم فى كتاب الإيمان من التحول فى الصور بالعلامات على الاعتقادات ، فمن عبده فى الشمس رأى شمساً ، ومن عبده فى الحيوان رأى حيواناً ، ومن عبده فى الجمادات رأى جماداً [1] ، ومنهم من عبده ليس كمثله شىء رأى ، ليس كمثله شىء ، فلهذا الباب يرجع ما ذكرناه .

تثلث محبوبى وقد كان واحداً كما صيروا الأقنام بالذات أقنما

يقول : العدد لا يولد كثرة فى العين كما تقول النصارى فى الأقانيم الثلاث ثم تقول الإله واحد كما تقول باسم الرب والإبن وروح القدس إله واحد

---

(١) والمسألة كما بينها الله تعالى فى سورة الأنعام حينما تنزل خليل الله إبراهيم مع قومه ليأخذ بأيديهم من ظلمات الشرك إلى أعلى درجات التوحيد بقوله تعالى « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً » إلى قوله « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » ، وما جاء فى الصحيحين صريح فى اعتقادهم عبادة غير الله عز وجل .

وفى شرعنا المنزل علينا قوله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا) ففرّق (فله الأسماء الحسنى) فوحّد ، وتتبعنا القرآن العزيز فوجدناه يدور على ثلاثة أسمـاء أمهات إلهـا تضاف القصص والأمور المذكورة بعدها ، وهى : الله ، والرب ، والرحمن ؛ ومعلوم أن المراد إله واحد ، وباقى الأسماء أجريت مجرى النعوت لهذه الأسماء ولا سيما الاسم الله فمن ذلك النفس هو ما ذكرناه فى هذه الأبيات .

فلا تنكرن يا صاح قولى غزالةً
تضىء لغـــــزلان يطفن على الدما

يقول : لا تنكروا هذا الليث مع كونى أريد عيناً واحداً ، فإن لكل إشاره معنى مقصوداً ، والغزالة هنا اسم من أسماء الشمس ، وقد ذكرنا القصد فى البيت الذى يأتى بعده .

فللظبى أجياداً وللشمس أوجهاً
وللدمية البيضاء صدراً ومِعْصما

يقول : فاتخذنا من الظبى عنقه ، وهو إشارة إلى النور من باب قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » أى أنواراً ، وللشمس أوجهاً من قوله صلى الله عليه وسلم : « ترون ربكم كما ترون الشمس » . * وللدمية البيضاء صدراً ومعصما * ما جاء فى حديث الصدر وذراع الجبار .

كما قد أعرنا للغصون ملابساً
وللروض أخلاقا وللبرق مَبسما[1]

(١) المبسم — كمنزل — الثغر ، و — كمقعد — التبسم ، ومراده كما ذكر

يريد بالغصون النفوس الهيمة بجلال الله تعالى التى أمالها الحب عن رؤية ذاتها ومشاهدة كونها ، والملابس ما حملته من الأخلاق الإلهية ، والروض مقام الجمع الذى أقامهم الحق فيه أخلاقاً للأنفاس الرحمانية العطرية النشرية الطيبة الريح ، وهى الثنـاء الجميل من باب « أنت كما أثنيت على نفسك » ، وللبرق مشهد ذاتى مَبْسِما من قوله صلى الله عليه سلم :«لله أفرح بتوبة عبده» ومن باب ما ذكره مسـلم : « إن الله يضحك[1] » ، فالمخرج واحد والمقصد .

وهذه قصيدة ما رأيت نفسها فى نظم ولا نثر لأحد قبلى ، وهو مشهد عزيز ساعدتنى على إبرازه عبارة لطيفة روحانية غزليـة مشوقة ، كل بيت منها فيه تثليث .

* * *

ناحتْ مطوَّقةٌ فحنَّ حزين وشجاهُ ترجيع لهـا وحنين

يقولُ : قابلت صورة ، ونفخت فيه من روحى المتولد عنه وهى اللطيفة الإنسانية والتطويق المنسوب إليها ، وهو ما أخذ عليها من الميثاق الذى

---

(١) إطلاق الضحك وغيره على المنزه عن سمات الحوادث مجاز عن الرضـا بفعلها والثواب عليه ، وانظ مسلم : « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة ، قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : يقاتل هذا فى فى سبيل الله عز وجل فيستشهد ، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيقاتل فى سبيل الله عز وجل فيستشهد » .

طوقت به ، فوصف بأن الكل بكاء على جزءيه بضرب من المقابلة ، ولهذا جاء بالنوح ليجمع بين المقابلة بحالة البكاء .

وقوله : « فحن حزين » يريد الروح الجزئى الإنسانى من هذا المعين . وقوله : « وشجاه » أى : أحزنه « ترجيع » وهو ما أنت به من طيب نغمات الاستدعاء إلى الاتصال الذى هو الحشر الأول بالموت ، والحنين من باب الرأفة والتعطف الذى للوالد على ولده ، ومن الجزئى حنين الولد إلى والده ، والشخص إلى وطنه .

وليس يريد هنا قوله : « خلق آدم على صورته »[1] من أجل الطوق ، وإن كان قد دخل المقام الأقدس تحت قوله : « كتب ربكُم على نفسه الرحمة»[2] وتحت قوله فيمن جاء بالصلوات الخمس لم يضيع من حقهن شيئا : « إن له عند الله عهداً » ، وقد أدخل الله سبحانه مع عبده نفسه فى عهود منه منة وفضلا لا إيجاباً .

ولكن ما هو مقصود فى هذا البيت من أجل الحنين وإن كان سبق القضاء له أثر فى الحكم ، كما جاء التردد فى قبض نفس المؤمن كما قلت فى بعض قصائدى له :

يحن الحبيب إلى رؤيتى وإنى إليه أشد حنينا
وتهفو النفوس ويأبى القضا فأشكو الأنين ويشكو الأنينا

---

(١) أى على هيأته لم يتدرج من الطفولة إلى الرجولة .
(٢) من الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

وعلى بأن أصحابنا من أهل هذا الشأن يعرفون ما أشرنا إليه فى هذا الإيماء ، والإجمال أغنانا عن التفصيل والتصريح .

وعلم الله ما قيدت هذا القدر فى هذا البيت إلا والحمى تنفضنى فى باطنى مما أجده من قوة الوارد وازدحام تموج المعارف فيه ولا أقدر على إذاعة ما أجده مع القوة التى أعطانى الله على التعبير عنه وإيصاله إلى الأفهام القاصرة فأجرى ما فوقها من الأنهام ، ولكن الغيرة الإلهية وحجاب[1] العزة الأحمى المنصوب بين عينىّ منع من ذلك ، وهذه نفثة مصدور .

جرت الدموع من العيون تفجعاً

لحنينها ، فكأنهنّ عيون

وصف الأرواح بالبكاء وجرى الدموع ، وإن كانت هذه الأوصاف مما يتعلق بالعالم الطبيعى ، ولكن لما كان فى قوة الأرواح التمثل فى الصور الجسدية ، كما قال تعالى : (فتمثل لها بشراً سوياً) لذلك قبلت هذه النعوت الطبيعية .

وقد ورد فى الخبر : « إن جبريل وميكائيل يبكيان من خوف مكر الله »[2] ، وكان سبب هذا البكاء من هذه الأرواح الجزئية لحنين الروح

(١) يقول الشيخ : المشاهدة ليست ممكنة لوجود حجاب العزة ولم تقع المشاهدة إلا للسيد المعصوم خاتم النبيين ، عليه وعلى آله الطاهرين أفضل الصلاة والتسليم .

(٢) من خشية عقابه لسبب خفى لا يعلمونه .

الـكلى إليها الذى هو أبوها ، فإنها وإن حنت إليه بالأصالة والتولد ، فحنينه أشد إليها فإن حنين الأبوة أعظم ، فإن النبوة من الأبوة وليست الأبوة منها ، بل هى عينها ، فهو من باب حنين الشىء إلى نفسه ، وشبهها لـكثرة الدموع بعيون المياه الجارية ، أى أنها لا تنقطع ، وجريانها من غيب إلى شهادة ، وقد يريد تفجعاً لحنينها ، أى يريد أن يكون لهـا مثلا لذلك الحنين إلى المناظر العلى ، ولا تحجب لتعشق الأكوان عما خلقت له ، ثم قال :

طارحتها ثُـكلا بفقد وحيـــــدها
والثـكلُ من فقد الوحيد يكون

الوحيد الذى فقدته هى الخاصية التى انفردت بها عن العالم ، وفقدها إياها كونها لا تعرف ما هى ولا يتعين لها بل تعرف أن ثم أمراً تنفرد به عن غيرها على الإجمال وهى وحدانيتها ، ومنها تعرف وحدانيـة من أوجدها ، إذ لا يعرف الواحد إلا الواحد ، وهى التى أراد القائل بقوله :

وفى كل شىء له آية تدلُّ على أنهُ واحـد

يشير إلى خاصية كل وهى أحديته ، فجعلها علامة على أحدية الأحد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحـد ، وقوله طارحتها أى بكيت مثل بكائها على مثل من بكت هى أيضاً فإن أكثر العارفين ماتوا بحسرة فقد هذه المعرفة ، التى هى أحديتهم فـكلهم عرفوا وحدانيتهم والأحدية لا يعرفها إلا القليل من أهل العناية والتمـكين .

طارحتها والشَّجْوُ يمشى بيننا   ما إن تبينُ وإننى لأبين

يقول بكيت مثل ما بكت غير أنها لما لم تكن من عالم العبارة والتفصيل لم تبين ما بها من الشجو للسامعين من طريق الفهوانية وأنا أبنت لهم بما أبديت من العبارة والإيماء والاشارة والتعداد فى حال البكاء وأخبر عما هو الأمر عليه فى عينه وقولهم الشجو يمشى بيننا كما قال ابن زهر :

وقد تعب الشوق ما بيننا   فمنه إلىَّ ومنى إليه

يقول أى طارحتها مطارحة حزن لا مطارحة سرور لأنه عن فقد لا وجود .

بى لاعجٌ فى حُبِّ رملةِ عالج   حيث الخيام بها وحيث العِين

يقول : بى حرقة اشتياق من حب دقائق العلوم الكسبية وهى علوم التفصيل ولهذا جعلها رملية ، وأضافها إلى عالج من المعالجة ، وهى من باب قوله : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم)[1] ، فهذه هى معالجة الأعمال وهو التكسب ، ثم قال : (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) إشارة إلى هذه المعارف ، فما كان من فوقهم هو بمنزلة ما تشبه به العلوم من الأمطار ، وفى المشاهد من البرق ، وفى المناجاة من الرعود ، وفى الفنا[2] باحتراقات أعيان الحجب من الصواعق ، وما كان

---

(١) الآية ٦٦ من سورة المائدة .

(٢) ومعنى الفناء المذكور عند القوم هو شدة المحبة .

من تحتهم بالرمال والحصى وما تحملهم الأرض وتخرج من زهرتهـا ، وكل علم من ذلك بما يناسبه فى التشبيه على حسب ما يعرفه من تنزل ، وقوله : حيث الخيام بها وحيث العين ، يعنى المقصورات فى الخيام مقامات الحجب والغيرة والصدق والعين وما تستره هذه الخيام وتحتوى عليه من العلوم ، وكل علم بحسب خيمته ، فإن كان صدقاً فهو جوهر ، وإن خيمة فهى عذراء ، ثم نعت هذه العين فقال :

من كل فاتـكة اللحاظ مريضة أجفانُها لظبى اللحاظ جفون

يقول : من العلوم التى ترد على أصحاب الخلوات فتقتلهم فى خلواتهم ، أى تفنيهم عن ذواتهم بسلطانها ونظرها إليهم ، فإن الفتك القتل فى خلوة ، وقوله : مريضة أى منها أصحاب الخلوات ، والمرض الميل ، ونسبها إلى اللحاظ التى هى المشاهدة ، فيريد أنها علوم مشاهدة وكشف لا علوم إيمان وغيب ، لـكنها عن تجليات صور ، ولهذا قال : لظبى اللحاظ جفون ، أى هى بمنزلة جفون السيف ، فإنه لمـا ذكر الفتك جاء بآلة القتل ، فجاء باللحظ وشبهه بالسيف .

ما زلت أجـــرع دمعتى من غُلَّتِى
أخفى الهوى عن عاذلى وأصون[1]

يشير إلى حالة الستر والـكتمان ، وهى حالة الملامتية الذين يظهرون فى كل عالم بحسب المواطن ، وهم رجال هذه الطريقة ، والعذال هم المنـكرون

---

(١) الغلة والغليل : حرارة العطش .

على أهل هذه الطريقة أحوالهم لأنهم لا يعرفون جمال من تعشقوا به فإنه غيب لهم وليس عندهم إيمان فإنه يتجلى إلى قلب من شاء من عباده بضرب من ضروب المعرفة ليهيمهم ذلك التجلى فيه ، فتهون عليهم الشدائد التى تجرى بها الأقدار عليهم ، وسبب إخفائه عن العدول الغيرة عن عرض المحبوب لئلا يقع العاذل فى جناب من يستحق التعظيم بما لا يليق بجنابه ، فيفعل ذلك صيانة للمحبوب وإيثاراً لا ضجراً لنفسه من الملامة التى تعود عليه من ذلك ، فإنه ملتذ بسماع ذكر محبوبه لكن لا يحب أن يجرى عليه فى الذكر الألفاظ التى لا ينبغى بجلاله الأقدس ، فهو من باب (وما قدروا الله حق قدره)[1] .

حتى إذا صاحَ الغـــرابُ بِبَيْنِهِم
فضحَ الفِرَاق صـــبابة المحزُونُ

يقول : إن العناية إذا حانت لبعض أهل هذا المقام ، وحيل بينه وبين هذه المناظر التى كانت متجلية له ، وهو ناظر إليها بفترة تلحقه أو وارد إلهى له حكمة بالغة ، ولم يعط الصبر على ذلك أدّاه هذا الفراق إلى إظهار ما كان يخفيه من رقّة الشوق والهوى ، كما اتفق لأبى يزيد لما قال له الحق أخرج إلى خلقى بصفتى ، فعندما خطا خطوة وقام الحجاب صعق ، فإذا النداء ردوا علىّ حبيبى فلا صبر له عنى ، والغراب هذا السبب الموجب للفراق ، والصياح من الفهوانية بمنزلة كن .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

وصلوا السُّرَى قطعوا البُرَى فلعيسهم
تحت المحــــــامل رنة وأنين[1]

لما كان المقصود لا يتحيز ولا يتقيد بالجهات كان الرجوع منه سيراً إليه أيضاً ، فلهذا قال : وصلوا السرى ، أى رجوعهم منه إسراء أيضاً إليه كما ورد فى الخبر عن التقاء الأربعة الأملاك من الأربع الجهات ، كل واحد يقول بأنه ورد من الحق مع قوله : (وهو معكم أينما كنتم) والإسراء والتنقل إنما هو اسم إلهى إلى اسم إلهى ، كما قال تعالى : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً)[2] ، والمتقى إنما هو مع الاسم الشديد البطش السريع الحساب القوى ، فلهذا كان حشره إلى الرحمن محل الأمن مما يتقى به ، ويحذر بالرحمة التى وسعت كل شيء ، وقوله : قطعوا البرى لقوة سيرهم ، والبرة الحلقة التى تكون فى أنف البعير تكون فيها خرمة يقاد بها ، فيقال لقوة الجذب للسير تنقصم البرى أو تخرم الأنف ، والتى تكون منها السير فى هذا الباب إنما هى مراكب الأعمال ، والبرة : العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، فهى تخرم الأنوف ولا تنفصم ، وأما نعته بأن لها تحت المحامل ، وهى مانحة من تكليفات المجاهدات والأعمال الشاقة ، رنة وأنين يريد صوت الزفير ، وحنين القلوب ، والأزيز المسموع من صدورهم

---

(١) السرى : سير عامة الليل

(٢) الآية ٨٥ من سورة مريم .

عند التلاوة والذكر ، كما قال تعالى : (لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) فوصفها بأنها تضعف عن حمل هذه الأغيار الواردات ، فإن الأنين لا يكون إلاّ مع الضعف ، والرنّة النغمة وكأنها مطابقة لقول المنادى أو الحادى من السامع .

عاينت أسباب المنية عندما أرخوا أزمتها وشُدّ وضين[1]

يقول : لما دعيت إلى الرجوع إلى عالم الكون بعد أنسى بتلك العين المقدسة ، والشهود الأقدس الأحدى وجدت من الألم على قرب من التشبيه مثل ما يجده المتعشق عند نزول الموت ومفارقة المألوفات التى كان يتأنس بها فلم يجد أعظم رزية يشبهها بها أعظم من المنية لمن لا يحب المفارقة ، ومعاينة أسباب الموت التى هى كرباته وغمراته أعظم من الموت ، فإن الموت لا يحس به إذ لا يبقى هناك من يحس ، فهذا أوقع التشبيه بأسباب الموت لا بالموت وهو مجبور فى الرجوع إلى عالم الأكوان ، ولهذا قال : أرخوا أزمتها ، يقول : ما لى فيها تعمد ، وإنما رجع بى ما أنا رجعت من ذاتى ، فلم يقل أرخيت أزمتها لهذا ، ثم قال :

إنّ الفراقَ مع الغرام لقاتلى صعب الغرام مع اللّقاء يَهُون

يقول : إن للغرام فى الحب سلطاناً عظيماً يقتلك فيه النحول والهيمان

---

(١) الوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر ، أو لا يكون إلا من جلد ، انتهى قاموس .

والدموع والغليل والأنين والسقام وجميع الآلام التى يوجبه الغرام ، ثم يجتمع مع ذلك الفراق ، وهو الغيبة عن مشاهدة المحبوب برجوعه إلى كونه مثل ما قال عليه الصلاة والسلام : « ما ابتلى أحد من الأنبياء بمثل ما ابتليت به » يشير إلى حاله فى الرؤية ، ثم رجوعه إلى خطاب أبى جهل وأبى لهب ، فينضاف إلى آلام المحبة ألم البين ، فلذا قال : إنه لقاتل ، فلو كانت تكون آلام المحبة التى يعطيها الغرام مع اللقاء ، وهو ضرب من الحضور الذى ليس فيه فناء هان عليه ما يجده من حرقة الاشتياق مع اللقاء ، وحرقة الشوق أشدّ للمفارقة ، ولهذا ينبغى للعارف أن لا يقف إلاّ مع الذات ، ولا يتعشق باسم دون اسم ، فإنه فى كل حال مفارق لاسم مواصل لآخر .

ما لى عذولٌ فى هواها إنّهَا معشوقةٌ حسناء حيثُ تكون

يقول : جميع الهمم والإرادات والتوجهات متعلقة بها من جميع الطالبين لكونها مجهولة العين عندهم غير متميزة ، فلهذا قال : إنها معشوقة لكل طائفة ، ولا أحد يعذل فى هواها ، كما قد علمنا أن النجاة مطلوبة لكل نفس ولأهل كل ملة ، فهى محبوبة للجميع غير أنهم لما جهلوها جهلوا الطريق الموصل إليها ، فكل ذى نحلة وملة يتخيل أنه على الطريق الموصل إليها ، فالقدْح الذى يقع بين أهل الملل والنحل إنما هو من جهة الطرق التى سلكوها للوصول إليها لا من جهتها ، ولو علم المخطىء طريقها أنه على خطأ ما أقام عليه ، فلهذا قال :

ما لى عذول فى هواها إنها معشوقة حسناء حيثُ تكون

أى حيث يوجد لها مشهد يشهد فيه ، فهم إخوان على سرر متقابلين قد نزع ما فى صدورهم من غل ، ولما أشبهت الشمس فى السعة فى التجلى ، فكل شخص يرى أنه قد خلا بها ، وهى مع كل واحد من مشاهديها بذاتها وقد رفعت الغيرة من قلوبهم عليها والحسد ، فإن كل مصل يناجى ربه من ازدحام بخلاف الحضور القريب الذى إذا كان عند شخص فقده شخص آخر فوقعت الغيرة بينهم عليه ، وقام العذول والعذال على طالبيه معرفة ومكراً ، والمكر من محب آخر ليزهد فيه هذا فيتمكن هو منه ، والمعرفة لكونه تعلق بمحصور يحاط به .

* * *

رأى البرق شرقياً فحنّ إلى الشرق

ولو لاح غربياً لحن إلى الغرب

يشير إلى رؤية الحق فى الخلق والتجلى فى الصور فأداه ذلك إلى التعلق بالأكوان لما ظهر التجلى فيها ، لأن الشرق موضع الظهور الكونى ، ولو وقع التجلى على القلوب وهو تجلى الهوية الذى كنى عنه بالغرب لحنّ أيضاً هذا المحب إلى عالم التنزيه والغيب من حيث ما قد شاهده أيضاً محلا للتجلى فى تجل أنزه من تجلى الصور فى أفق الشرق ، فحنينه أبداً إنما هو لمواطن التجلى من حيث التجلى لا من حيث هى ، وقد أبان عن ذلك فى البيت الذى بعده وهو قوله :

فإن غرامى بالبريق ، ولمحهِ وليس غرامى بالأماكن والتُّربِ

يقول : إن غرامى وتهيامى وتعلقى إنما هو بالتجلى الذى هو اللمح ، والمتجلى الذى هو البرق ما هو عن غرامى لمن يتجلى فيه إلا بحكم التبعية كالتولع بمنازل الأحبة من حيث هى منازل لهم خاصة لا من حيث منازل ، فكنى بالأماكن عن الموطن الغربى ، وكنى بالترب عن الموطن الطبيعى الصورى لأنه ذكر الشرق والغرب ، وجعل الشرق لعالم الحس والشهادة فبهذا ذكر الترب، وجعل الغرب لعالم الغيب والملكوت فلهذا ذكر المكان فجاء بالأعم فإن كل ترب مكان وما كل مكان تربا ، قال تعالى: (ورفعناه مكاناً علياً)[1] ، وهو خارج عن العناصر لأنه فى السماء الرابعة فلم يستحيل عليه اسم المكان .

رَوَتْه الصَّبا عنهم حديثاً مُعَنْعَناً

عن البث عن وجدى عن الحزن عن كربى

الصبا : الريح الشرقية ، وإلى الشرق كان حنينه لأن من الشرق لاح له البرق الذى هو التجلى وكان فى عالم الصور فكان فى باطن تلك الصور مطلب للعارف مغيب مبطون فيها وهو الذى أشار إليه بقوله : ولو لاح غربياً . قال : فعالم الأنفاس التى هى الريح الشرقية روت لى عما أبطنته تلك الصور فى تجليها من علم الهوى حديثاً معنعناً ، يقول خبراً مسنداً عن فلان عن فلان وأخذ يذكر الإسناد وهم الرواة التى بهم صح هذا التجلى الغربى علماً كما كان الشرقى حالا فقال عن البث وهى الهموم المتفرقة من أجل

---

(١) الآية ٥٧ من سورة مريم .

الصور الكثيرة التي يقع فيها التجلي فله همّ بإزاء كل صورة فلهذا كنى عنه بالبث عن وجدى وهو ما يجده من هذه الهموم ، يقول : هى ذوق لى ما أنا مخبر عن حالة غيرى وعن الحزن يعنى أصعب المحبة وأشقها فإنه مأخوذ من الحزن الذى هو الوعر عن كربى ، وهو ما يجده من غليل الهوى وحرقاته واصطلامه وزفراته .

عن السكر عن عقلى عن الشوق عن جوى
عن الدمع عن جفنى عن النــــار عن قلبى

السكر المرتبة الرابعة فى التجليات لأن أولها ذوق ، ثم شرب ، ثم رىّ ، ثم سكر ، وهو الذى يذهب بالعقل ، فلهذا روى عنه لأنه صاحبه والسكر يأخذ عن العقل ما عنده ، والعقل يأخذ من الشوق ، ولهذا تزعم الحكماء وتقول فى العقول بالشوق وفى نفوس الأفلاك أن حركتها شوقية لطلب الكمال عن جوى وهو انفساحها فى مقامات المحبة محصور تحت حيطة النفس كانحصار الجوى تحت حيطة فلك القمر الذى يوصف بالنقص والزيادة وقبول الفيض النورى ، فلهذا قلنا عنه إنه تحت حيطة النفس ، ولما ذكر الجوى الذى هو إشارة إلى مقام الجو ، ذكر الدمع والجفن فى الجوى بمنزلة المطر والسحاب فى الجو ثم ذكر عنصر النار وهو الفلك الأثير فقال : عن النار عن قلبى ، هو الروح الخارج من تجويف القلب ، يقول : فأخبر هؤلاء الرواة الثقاة الأثبات أن مثال من هتم فيه ثاو بين ضلوعكم فقال :

بأن الذى تهواه بين ضلوعكم تقلبه الأنفاس جنباً إلى جنب

يقول : من شفقة المحب على محبوبه الممثل فى خلده يتخيل أن نيران الأشواق القائمة به تؤثر فى ذلك المثال الذى خلده منه فتحن عليه شفقاً لتحول بينه وبين النار فلهذا ذكره بالضلوع بالانحناء الذى فيها ، كما قد ذكرنا فى قصيدة لنا فى هذا الكتاب ، فقلنا :

* من حذر عليه شراسفا *

أى : أطراف الضلوع كانت محنية من أجل المحبوب لتضمنه عناقاوحذرا عليه أن يصيبه أذى ، كما قلنا فى هذا الباب :

ما خفت إذ ضرمت نار الأسى　　فى أضلع تحرقك النـــار

وقال الآخر :

أودع فؤادى حرقا أو دع　　ذاتك تؤذى أنت فى أضلعى

وارم سهام الجفن أو كفها　　أنت بما ترمى مصاب معى

موقعها القلب وأنت الذى　　مسـكنه فى ذلك الموضع

وأراد بالأنفاس هنا سطوات هيبة التجلى وقصد تقلبه هذه السطوات ، أى : تؤثر فيه أحوالا مختلفة لاختلافها . وقوله : جنبا إلى جنب ، أى من شمال ليمين ومن يمين لشمال ، ولم يقل ظهراً لبطن لئلا تحرقه سبحات الوجه أو يهلكه الحجاب ، فجاء بالجنب لأن فيه تجليا لا عن مقابلة وهو انحراف كون لأن الرؤية فى صورة الكون حصلت .

فقلت لها بلِّغ إليه بأنه　　هو الموقِدُ النارَ التى داخل القلب

الضمير فى لها يعود على الصبا ، والضمير فى إليه يعود على المعنى الذى

عنه يسكنه يقول: إن الله منجز من المحبوب فى النفس هو الذى يقع به العشق يقول فهو الذى أوقد نار الشوق والوجد الذى فى القلب وما أوقدها إلا وقد علم أنه منها فى حمى ذاتى أى لا تعدو عليه فلم يبق اعتداء هذه النار إلا على المحل ، فلا ذنب للصب فى إحراق محل الحب ومسكن المحبوب .

فإن كان إطفاء فوصل مخلد ‏ ‏ ‏ وإن كان إحراق فلا ذنب للصب

يقول : إذا جاء برد السرور وثلج اليقين فيحجب سلطان هذه السطوات لبقاء العين ، فيكون الوصل دائما ، وإن تركت سطواتها فلا يبقى هناك من يعمر هذا المقام ، فلا ذنب على الهالك ، وهذا كلام غلبة الحال كما قال صلى الله عليه وسلم وهو يناشد ربه ببدر : « إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم » وما كان ذلك إلا من غلبة الحال عليه ، وأبو بكر رضى الله عنه يسكنه يقول إن الله منجز لك ما وعدك فهذا من ذلك الباب ، وهو باب من ملكه الحال ، ومن هنا نقول إن الأنبياء قد تملكهم الأحوال مثل هذا سواء .

***

وقال رضى الله عنه

غادرونى بالأثيل والنقا ‏ ‏ ‏ أسكب الدمع وأشكو الحرقا[1]

لما عاين جلساءه من الروحانيات الملكية قد رحلوا عنه جائلين فى الفسحات

---

(١) الأثل شجر ، واحدته أثلة والنقا مقصور كثيب الرمل . الحرق بفتحتين النار اسم من إحراق .

العلى لا يقيدهم مكان طبيعى وبقى مرتهن و بهذا الهيكل وتدبيره مقيد به عن الأنفاس فى مسارح فرج تلك الاطباق العلى جعل يسكب الدمع بذلك ويشكو حرقة الشوق الذى بفؤاده حل به ، والأثيل عبارة عن أصله الطبيعى يريد الطبيعةُ ، والنقا عبارة عن جسمه فإنه أفضل ما انتقى ، فمن هذه الطبيعة هذا الجسم الإنسانى فإنه أعدل النشآت الطبيعية ، ولذلك قبل الصورة الإلهية ، فكنى عنه هنا بالنقا ، وقد يريد بقوله : أسكب الدمع ، يقول : تركونى بعالم الطبيعة أبث المعارف المتعلقة بالمناظر العلى لأبناء الجنس المحبوسين عن هذه الأذواق العلية ونيل ما ناله الرجال بصدق الأحوال وأشكو الحرقا من الحسرة عليهم حيث لم يكن لهم هذا الخبر عياناً فيكون من باب الرحمة بالخلق ، والأول أمكن فى القصد من الثانى لكن الثانى متوجه فى حق السامعين ، فإنهم مع الوقت ، ولو كان هذا البيت مفرداً لتحقق به هذا الوجه الثانى ، وإنما كان الوجه الأول أمكن من أجل الأبيات التى تأتى بعده ، فالأول والثانى للسماع والأول وحده للسماع وزيادة وهى معرفة ما بعده .

بأبى من ذُبت فيهِ كمداً   بأبى مَنْ مت منه فَرَقاً[1]

يفديه بأبيه الذى هو الروح الكلى الأعلى فإنه أبوه الحقيقى العلوى وأمه الطبيعة السفلية ، فيفدى بهذا الأب هذا السر الإلهى النازل عليه الذى

---

(١) فرق بكسر الراء خاف فرقا بفتحها .

وسعه قلبه وهو المعبر عنه فى هذا البيت بمن ونسب الذوبان فيه إلى الكمد يقول إنه فى مقام العشق له للاسم الجميل الذى تجلى له فيه ، ثم كرر الفداء له بأبيه فقال بأبى من مت يشير إلى مقام الذوبان أيضاً بالموت ولكن خوفاً من أنوار الهيبة يقول فطر علىّ الذوبان والفناء عنى بحالة منى وهى العشق وبما اقتضاه ذلك الجمال الأعلى من الهيبة وأن الجمال مهوب معظم محبوب والجلال ليس كذلك فإنه مهوب معظم وليس بمحبوب فإنه من سطوات القهر والجبروت فتفرق منه النفوس ولما اطلع هذا السر الإلهى الذى وسع هذا القلب الشريف على ما أثر فيه من الذوبان ، والموت استحيا منه حيث لم تتنزل معه إليه الألطاف الخفية التى تبقيه فقال :

حمرةُ الخجلة فى وجنته ... وَضَح الصبح يناغى الشفقا[1]

فذكر أنه خجل لما ذكرناه ومن أسمائه الحى ، وقد جاء أن الله تعالى يستحى من عبده ذى الشيبة أن يكذبه فيما كذب فيه ، ولما كان هذا التجلى فى الصور المثالية مثل حديث عكرمة عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : «رأيت ربى فى صورة شاب أمرد عليه حلة من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب وفى رجله نعلان من ذهب[2] »، وأشباه هذه الأحاديث

---

(١) الوضح بفتحتين الضوء والبياض .

(٢) قال ابن الديبع فى تمييز الطيب من الخبيث حديث رأيت ربى فى صورة شاب أمرد إلخ .موضوع مفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قاله التاج السبكى وغيره وقد ذكر الذهبى أنه من رواية حماد عن قتادة عن عكرمة وهو من أنكر ما أتى به حماد بن سلمة .

المشكلة التى ذكرتها العلماء. قال الله تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون[1]) كما قال الشيخ رحمه الله وتكلمت عليها ، فتلك الصورة هى المنسوب إليها هذه الخجلة فتقبل أيضاً الحمرة من حيث ما هى صورة جسدية والوجنة ، ثم أوقع التشبيه فى بياض الوجه وحمرة الخجلة فى الخد ، فوضح الصبح الذى هو بياضه وحمرة الشفق كأنهما يتحدثان بالسبب الذى أوجب هذا الحياء مما طرأ على هذا القلب من هذا التجلى .

قَوّض الصبرُ فطنَّب الأسى   وأنا ما بين هذين لقـــا

يقول قوض الصبر أى رفع خيامه ورحل والحزن نزل ومد طنبه وضرب فسطاطه ، يقول : فأدانى عدم الصبر ونزول الحزن وما تم مايقاومه إلى الهلاك وأنا ملقى لا حراك بى هالك تحت سلطان الوجد فى مقام البوح والإفشاء والإعلان بما تنطوى عليه الضلوع من الأسرار الشوقية يقول : انتقلت عن الاسم الصبور ، فلم أقدر أن أملك وجدى فظهر فى سلطانه ، ثم أخذ يقول :

من لبثى من لوجدى دلنى   من لحزنى من لصَبٍّ عَشِقا

يقول هل من جامع لما تفرق من همومى من يرثى لما حل بى من لوجدى أى ما أحس به من آلام البلوى بالانتقال مع الأسماء والوقوف معها عما تعطيه الذات من الثبات من لحزنى ، يقول من لصعوبة هذا الأمر بتسهيله

---

(١) الآية ٢١ من سورة الذاريات .

من نصب يقول مائل ما له مقيم من ميله عشقا عانق الشدائد . تعانق اللام الألف مأخوذ من العشقة ، يقول : دلونى على من يأخذ بيدى من مقام التفرق فيدلنى فى عين جمع الجميع والشهود بلا مزيد فإن المزيد حالة تؤذن بعدم الكمال .

كلما ضنت تباريح الهوى   فضح الدمعُ الجوى والأرقا

يقول كلما رمت أن أقوم فى مقام الكتمان مما أكنه من الجوى والأرق أبت الدموع بانسكابها إلا الإفشاء والبوح ، فإن الوجد أملك وهو أبلغ فى المحبة من الكتمان ، فإن صاحب الكتمان له سلطان على الحب والبائح يغلب عليه سلطان الحب فهو أعشق ولا يحجبنك قول المحب القائل :

باح مجنون عامر بهواه   وكتمت الهوى فمت بوجدى

فإذا كان فى القيامة نودى   من قتيل الهوى تقدمت وحدى

فإن هذا القائل لم يتمكن منه الحب تمكن من لم يترك فيه سلطان غيره فإن الذى حجب الحب عن ظهور سلطانه أقوى منه ، فكان عقله أغلب ولا خير فى حب يدبر بالعقل ، بل أحكام المحبة تناقض تدبير العقول .

فإذا قلت هَبوا لى نظرة   قيـــل ما تمنع إلا شفقا

يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره » ، فكان إرسال الحجب بين السبحات وبين الخلق رحمة بهم وإشفاقاً على وجودهم فإن قيل فقد وعد بالرؤية فى دار الآخرة فكيف يكون البقاء هناك ولا فرق بين الدارين من كونهما مخلوقتين وممكنين قلنا

إذا فهمت معنى إضافة السبحات إلى وجهه ، وفرقت بين هذا القول وقوله ترون ربكم ، وقوله تعالى : (وجوه يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربها ناظرةٌ)[1] ، فعلق الرؤية بالرب والإحراق بالوجه ، وقوله : (لا تدركه الأبصار) يعنى الوجه عرفت حينئذٍ الفرق بين الخبرين وتحققت أن هذا الاعتراض غير لازم ويريد أيضاً بقوله هبوا لى نظرة وقوله ما تمنع إلا شفقاً لأن الوجد وأليم الحب والنظر إلى المحبوب يزيده وجداً إلى وجده وحبًّا إلى حبه فكأنه يطلب الزيادة من عذابه فقيل له نحن نشفق عليك لذلك وليس مع الحب تدبير فإنه يعمى ويصم والمحبوب صاح فيرفق به من حيث لا يريد المحب :

ما عسى تغنيك منهم نظرةٌ هى إلا لمحُ برق برقا

يقول : إن هذه النظرة لا تغنى من الوجد شيئاً فإن مثلها فى الفعل بالقلب مثل فعل ماء البحر بالظمآن كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً ، ثم أنك لما كنت مركباً وأنت مدبر لمركب ولم تكن بسيطاً لم يتمكن لك دوام الرؤية بحكم الاتصال فإنك مطلوب بإقامة ملك بدنك وتدبيره فلابد لك من الرجوع إليه وإرسال الحجب بينك وبين مطلوبك الذى تيمك وهيمك وهيجك بنيران تلك النظرة بذلك التجلى بمنزلة لمحك للبرق إذا برق وهو الوقت الذى لا يسعك فيه غير ربك .

لست أنسى إذ حدا الحادى بهم يطلب البين ويبغى الأبرقا

يقول : لما دعوا من جانب الحق هؤلاء الروحانيات العلى الذين

---

(١) الآيتان ٢٢ / ٢٣ من سورة القيامة .

كانوا لنا جلساء فى الله تعالى ، وحدا بهم داعى الحق إلى العروج إليه كما قال عليه الصلاة والسلام : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادى فيقولون تركناهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون[1] » كذلك عند الصبح والعصر ، وقوله يطلب البين يعنى هذا الحادى بهم يطلب الفراق والبعد من عالم الكون بهؤلاء الروحانيات ، وأتى بلفظة البين دون غيره ، لأنه من الأضداد فهو فراق عن كذا فيه انفصال بكذا وهو المقصود ولا يوجد ذلك فى غير لفظة البين ، وقوله ويبغى الأبرقا . يقول : ويبغى بهم المكان الذى يقع لهم فيه شهود الحق تعالى وسماه الأبرق لما شبه الشهود الذاتى بالبرق لنوره وسرعة زواله كنى عن المكان والحضرة التى يقع فيها هذا الشهود بالأبرق أى المكان الذى يظهر فيه البرق .

نعقت أغربت البين بهم لا رعى الله غراباً نعقا

كنى بأغربة البين عن الأمور التى خلفته عن العروج معهم إلى الأبرق وهى ملاحظات وجوده الطبيعى الذى أمر بتدبيره والقيام بسياسته فهو يتشاءم بملكه ويتمنى الانتقال من مقام الملك إلى العبودية التى هى فى الحقيقة ملك الملك ، ثم أخذ يدعو على كل من كان سبباً لفراقه وعن أحبته المساعدين له على ما فى همته بتخلفه عنهم حين درجوا عنه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ما غراب البين إلاّ حملٌ سار بالأحباب نصًّا عُنقا[1]

يقول ليس غراب البين طائراً يطير بالأحباب وإنما حمولتهم التى تحملهم عنا هى أغربة البين وهى فى الحسن المراكِب التى هى الإبل وأشباهها، وفى لطائف الهمم التى ترتحل بالعبد المحقق عن موطن وجوده إلى تقريب شهوده، فلو عاينت سير اللطائف الإنسانية على نجائب الهمم وهى تخترق سرادقات الغيوب وتقطع مفازات الكيان لرأيت عجباً، ولهذا قال العارف: والهمم للوصول أى أنها عليها يوصل إلى المطلوب فإن سيرها ينتهى إلى المكانة التى ينعدم فيها الاسم ويضمحل الرسم.

* * *

حملن على اليعمُلات الخدورا وأودعْنَ فيها الدمى والبُدورا

اليعملات هى الإبل التى يعمل عليها، وهى فى إشارة هذا القائل القوى الإنسانية التى توجهت عليها التكاليف الروحانية والحسية، فهى التى يقع عليها العمل، وكنى بالخدور عن الأمور التى كلفوا بها، وهى الأعمال، وجعلها خدوراً لأنها تحوى على أسرار من العلوم والمعارف التكليفية، كما تحوى الخدور على هؤلاء الحسان المشبهات بالدمى فى حسن الصورة، والبدور فى الكمال والرفعة، فتكون المعارف على حسب ما وقع به التشبيه لأن المعارف متنوعة بالذى يريد صاحبها منها عليه يدل بأمر يناسبه من

---

(١) نصاعنقا. نص كل شيء منتهاه. العنق. الرقبة.

وجه ما مناسبة لطيفة لدلالة غيبية ، كما قال تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) بشروطه من الزجاجة التنزيه الذى هو الجسم الشفاف الصافى والزيت المضاف إلى الاعتدال الذى لم يؤثر فيه إلا هو ، فيعلم من هذا التشبيه أىّ نور أراد ، وهكذا جميع الأمور التى يريد العارف أن يوصلها إلى الأفهام ، فينبغى للناظر أن يتحقق ذلك ويمعن النظر فيه جهده ، ولا ببادى الرأى ، فيسرع إليه الخطأ إلاّ أن يكون هذا الناظر له سلطان على معرفة الخاطر الأول فى كل شىء فإنه يقف عنده ، فذلك الذى يعطيه هذا المطلوب بلا شك فلا يخطىء أبداً .

وواعدن قلبي أن يرجعوا وهل تعد الخود إلاّ غرورا[1]

ينبه فى هذا البيت على أن هذه المعارف التى ذكرها هى من المعارف التى فى طيها مكر خفى نبّه على ذلك بقوله : وهل تعد الخود إلاّ غروراً ؟ ليطمئن العارف على عودها عليه أو أمثالها بمجرد ما وعدت ربما يحمله ذلك على عدم الاستعداد الذى يخلقه الله تعالى به لتلقيها فيكون ممن يتبع شهواته ويتمنى على الله الأمانى ، فينبغى للعارف أن لا يفتر ، وأن يكون قائماً على قدم طلب المزيد كما قال لنبيه عليه الصلاة والسلام (وقل ربّ زدنى علماً)[2] .

وحيت بعُنّـابها للوداع فأذرت دموعاً تهيج السعيرا

يقول : هذه النكتة الإلهية التى ذكرنا أنها من باب الممكن إنما كانت

---

(١) الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة .

(٢) من الآية ١١٤ من سورة طه .

لما كان ينالها من باب الاكتساب لا من باب الوهب أحدث فيها التعمل الكونى تغيراً كنى عنه بلون العناب يشير إلى أنملتها كأنه توحيد فيه ضرب من الاشتراك ، ولكن مع هذا كله فإقامتها فى القلب أحسن من رحيلها ، فإنها عاصمة للعارف ما دامت قائمة به ، ولهذا أحس به العارف عند وداعها ورحيلها بألم الفراق فبكى وأحرقته نار الاشتياق إليها ، وقد يريد بقوله : فأدرت دموعاً ، أى أرسلت هذه النكتة فى القلب علوماً من علوم المشاهدة تؤثر فى القلب اشتياقاً شديداً واصطلاماً ، ثم قال :

فلما تولّت وقد يمّمت تريد الخَوَرْنقَ ثم السديرا

يريد رجوعها إلى الأصل الذى منه انبعثت ، والصدد الذى منه صدرت ، فكنى عنها بالخورنق والسدير ، والخورنق قصر بأرض الكوفة والسدير أرض .

دعوت ثبوراً على إثرهم فردت وقالت أتدعوا ثبورا
فلا تدعونّ بها واحداً ولكنما أدعوا ثبوراً كثيرا

يقول : دعوت بالهلاك على عالم التقييد والتركيب الذى مسكنى عنه استصحاب هذه العلوم الإلهية والأسرار العلية التى هى مشهد العالم البسيط على الدوام ، وقوله : فردت وقالت أتدعوا ثبورا ؟ تقول له : يا محجوب لِمَ لَمْ تر وجه الحق فى كل شىء فى ظلمة ونور ومركب وبسيط ولطيف وكثيف حتى لا تحس بألم الفراق وتغيب عين المطلوب عنك فى كل شىء ، فإذاً ولا بُدّ وقد دعوت بالهلاك على عالم التركيب بهذا الحجاب الذى قام عندك .

فلا تدعـــــون بها واحداً ولـكنما أدع ثبوراً كثيرا

يقول : ما هو مخصوص بهذا المقام وحده بالمحجوب عن الأمر الـكلى الساري فى جميع الموجودات ، ففى كل مقام يقام لا بُدّ لك من مفارقة ذلك المقام وأنت غائب عن صورة الحق منه ، فلا بد لك من الألم وتتخيل أنه فارقك وما فارقك ، وإنما وقوفك معك حجبك عما ذكرناه ، فلهذا أدع ثبورا ، فالتكثير من جهة العدد لتعدد المقامات وتقييداتها .

ألا يا حمامَ الأراكِ قليلاً فما زادك البينُ إلاّ هديرا

يخاطب واردات التقديس والرضى ، ويلوح لبعض واردات المشاهدات فإن الأراك شجر يستاك به ، يقول : ترفق علىّ يا وارد التقديس فإن المحل الضعيف يضعف عن أن ينال الطهارة إلاّ بالاستدراج ، ولهذا كان مرضاة الرب من الزينة والإصلاح وهو موضع الرفق ، ولهذا قال له قليلاً ، وقوله : فما زادكِ البينُ إلاّ هديرا ، يقول : أيها الوارد لما لم يكن لك وجود عينى إلاّ بى وفى وأنا مشغول عنك بما قيدت به من عالم الظلمة والطبع ، فلذلك صرت تصيح من أجل الفراق لذهاب عينك .

وَنَوْحُك يا أيهـا ذا الحمامُ يثـــير المَشُوق يُهيج الغَيُورا

يقول : وأنت إذا كنت فى عالم التقديس والرضى والمشاهدة وأنت بهذه المثابة من البكاء على فقد هذا المحل الطبيعى الـكثيف الظلمانى ، فنحن أعظم بكاء منك طلباً للتنزه فى الفسحات العلى ، وهو قوله : يثير المشوق يهيج الغيورا ، والغيرة من رؤية الأغيار ، وإلا من عاين الحق

فى كل شىء لا غيرة عنده ، فإنه ما رأى فى كل شىء إلاّ وجهه والحق واحد ، ولـكن للحق تنوع فى صور التجليات على حسب ما تعطيه المقامات والأحوال ، فمن هنا يظهر لسان الغيرة[1] فى جناب الحق ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « إن سعداً لغيور وإنى أغير منه والله أغير منى ومن غيرته حرم الفواحش » وهنا نكت وأسرار إلهية غاب عنهـا أكثر العارفين ، فلا يمكننا كشفها لإخواننا إلاّ مشافهة .

يذيب الفؤاد يذود الرقاد يضاعفُ أشـــواقنا والزفيرا

يقول : دع واردات التقديس والرضى التى ذكرناها ، تذيب الفؤاد ترده سيالا وتمنع الرقاد فصاحبها يألف السهر ، وقوله : يضاعف أشواقنا والزفير زيادة الأشواق إنما تقع من مشاهدة زيادات الحسن فى المشهود فى نظر العين عند الشهود ، والزفير صوت النار ، يقول عن غلبة الاصطلام الوارد على القلوب أنها متضاعفة .

يحوم الحِمام لنوح الحَمام فيسأل منـــهُ البقاء يَسِيرا[2]

يقول : يحوم الحمام الذى هو مقام انفصال اللطيفة الانسانية عن تدبير هذا الهيكل الظلمانى من أجـــل ما أسمعته واردات التقديس والرضى والمشاهدة من اللطائف الإلهية والعلوم الربانية ، وقوله : فيسأل منه البقاء

---

(١) هذه حالة من الأحوال تعترى السالك ثم يتخطاها.

(٢) الحمام : بكسر الحاء الموت .

يسيراً ، يريد قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث الأخوين اللذين مات أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة ، فذكر فضل الأول منهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام فى حق الثانى : وما يدريكم ما بلغت به صلاته ، واستحباب طول العمر فى الإسلام مشروع وحديث الستة الشيوخ الذين قُدِّموا للموت ، فكل واحد منهم آثر صاحبه بحياة ساعة ليذكر الله فيها فيرقى مقاماً لم يكن عنده ، وهذا الباب فيه إشكال عظيم يحتاج إلى تفاصيل ، فلهذا قال : فليسأل منه البقاء يسيراً ، ثم قال بعد ذلك ما يدل على ما ذكرناه ، وهو قوله :

عسى نفحةٌ من صِباً حاجر تسوق إلينا سحاباً مطيرا

الحاجر هنا حجاب العزة الأحمى المحجوب عن الكون أن يناله ذوقاً لكن تهب منهُ نفحات على قلوب العارفين بضرب من التعشق ، ولهذا وصفه بالميل الذى هو الصبا ، وطلب أن ينال من تلك النفحات الغريبة نسمة ونفحة تهب من ذلك الجناب العالى الأحمى فيسوق بها إلى هذا القلب المتعطش سحاب المعارف والعلوم الربانية الأقدسية من باب ليس كمثله شىء فيمطر على هذا القلب ، فينبت فيه من ربيع الحكم ما تنطق به الألسنة الفهوانية ، ومن ربيع الأخلاق الإلهية مايزيده ترقياً فوق ترقيه فإنه متعطش لهذا المورد ، ولهذا قال :

تُرَوِّى بها أنفساً قد ظمئن فما ازداد سحبك إلا نفورا

يقول : تروى بذلك أنفساً ظامية عاطشة من قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : (وقل ربّ زدنى علماً)[1]، ثم أخبر بعدم الإجابة له فيما سأل لما يجب من تعظيم المقام من العزة والمنع والعلو عن منازل الكون له والإحاطة ، يقول : لو نيل ، ما كان حمى ولا اتصف بالحجب الذى هو المنع ، وأما نسبة النفور إلى هذا السحاب فهو مثل قوله تعالى : (ليس كمثله شىء)[2] أى كل ما تصور فى وهمك أو حاك فى صدرك أو دلّ عليه عقلك ، فالله بخلاف ذلك فإنه ليس كمثله شىء مع كونه هو السميع البصير ، فلا بدّ من هذه الأسماء والكنايات والمعارف ، ومع هذا فلا بدّ من ليس كمثله شىء ولو وقع الاشتراك فى إطلاق العبارات ، لكن ما ثم أحد يجمعها أصلاً لعلو المقام ونزاهته ، ولما رأى أن هذا ، مثال المحجوب ، محال عاد إلى شكله وجنح إلى مثله فقال :

فيا راعىَ النجم كُنْ لى نديماً ويا ساهرَ البرقِ كُنْ لى سميرا

راعى النجم هو حفظ ما تحمله العلوم فى تعقلاتها على اختلاف ضروبها ، واتخذ رعاة النجوم ندماء لذلك ، فإن المنادمة حالها ضرب الأمثال وإيراد الحكايات والأخبار والنوادر والأشعار بين النديمين ، ثم قال : ويا ساهر البرق ، الذى هو المشهد الذاتى يخاطب طالبه ، يقول : مطلبنا

(١) من الآية ١١٤ ـ سورة طه .
(٢) من الآية ١١ ـ سورة الشورى .

واحد فكن لى سميرا من المسامرة الذى هو الحديث بالليل ، والليل غيب ، والذات غيب عن الكون ودليلها الهوى ، فيقول له : أنت سميرى من حيث أن مقامنا واحد ، فتفهم عنى ما أريد ، كما أفهم عنك ما تريد ، فنحن سكوت والهوى يتكلم ، ثم نظر إلى ما هما فيه من تعب الخاطر فى نيل ما لا يسع الكون حمله ، فأخذ يخاطب أهل الغفلة عن هذا المقام ، وأهل الفناء فيه عنه .

أيا راقد الليـــل هنئته فقبل الممات عمرْت القبورا

خطاء أهل الغفلة من هذا البيت اشتغالهم بالأكوان وملازمتهم لهذه السدف الطبيعية الشهوانية بالتمتع واللذات وحظ أهل اللقاء الذين ذكرناهم من هذا البيت ، يقول يا من اختطف عنه هذا المقام فبقى فيه شبه النائم فى الليل هنئته أى هنئت هذا الرقاد الذى هو فناؤك بضرب من الراحة واللذة وقوله فقبل الممات أى قبل انفصالك عن هذا الجسد الانفصال التام قد اتصفت بتلك الحالة مع تعلق التدبير فيه منك فإنك فى حالة فناء لا موت فلابد من الرجوع ، ولكن الحال ما يعطى إلا مخاطبة أصحاب الغفلات وأما قوله :

فلو كنت تهوى الفتاة العَرُوبا لنلت النعيم بها والسرورا

يخاطب هذا الراقد يقول له لو تعشقت بهذه الفتاة الحسناء التى هى الصورة الذاتية التى هى مطلب العارفين لنلت النعيم بها والسرورا يريد بسببها أى وإنها إن لم تحصل فإن تجليها إليك يتضح لذلك التجلى كل ما فى

ملكاك فيظهر جميع ملكاك لك بتلك الصورة الذاتيـــة فلولا تجليها ما اكتسبت المملكة هذه الصورة الحسناء فالنعيم بجميع الملك للمشاهد مع هـذا التجلى نعيم بالذات فى صورة الملك ، لأن الذات تضىء ولا يلتذ إلا بالمواد .

تُعاطى الحسانَ خمور الخِمار تناجى الشموس تناغى البدورا

يقول هذه الصورة التى اكتسبت حسن الصورة الذاتية بالتجلى الذى ذكرناه ، تعاطيك بالغنج (١) والحديث مايعطيك الخمر من الطرب والسرور واللذة ، ولما كان المشهد ذاتياً لذلك قال تناجى الشموس تناغى البدورا فإن الشارع شبه الرؤية فى الدار الآخرة بالشمس والقمر ، فقال: ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر وكما ترون الشمس،وَجَعَلَ المناجاة للشمس إفصاح وإيضاح وبيان فى الحديث ، لأنه نهار ، ونسب المناغاة للبدر لأنه نور الليل وهو إجمال لا تفصيل وبيان ومحل رمز ، فإن المناغاة الغالب فى استعمالها للطيور ، فلهذا جعل المناغاة للبدور .

* * *

وقال رضى الله عنه

يا حادى العيس لاتعجل بها وقفاً فإننى زمنٌ فى أثرها غادى

يقول : الروح الإلهى الناطق من الإنسان المأمور بتدبير هذا البدن للداعى من جانب الحق الذى كنى عنه بالحادى والعيس الهمم يقول له لا تعجل بسيرها يريد حتى تنظر بأى حقيقة إلهية ذاتية تعقلها ، وأمره

(١) الغنج : دل المرأة وغزلها .

بالوقوف على التوكيد فثناه كما قال الحجاج : يا حارس اضربا عنقه ، أراد اضربْ اضربْ مرتين للتوكيد فثناه ، وقوله فإنني زمن فى أثرها غادى نسب الزمانة له لوقوفه مع هذا البدن وارتباطه به إلى الأجل المسمى وقوله فى أثرها يريد فى أثر الهمم وغادى يقول رائح عند حلول الأجل المسمى بمفارقة هذا البدن الذى أورثنى الزمانة وأكد هذا المعنى .

قف بالمطايا وشمّر من أزمتها   بالله بالوجد والتبريح يا حادى

كنى عن الهمم بالمطايا وشمّر من أزمتها يقول أمسكها عن التقود إلى مطلوبها حتى أكون فيها على قدم محقق ، ثم أقسم على الحادى الذى هو الداعى إلى الحق بالله إشارة إلى المرتبة ، فأقسم بها لأن الداعى خديمها فيقف عند هذا القسم ، ولم يخص له اسماً لئلا يكون وقوفه بحسب ما يعطيه ذلك الاسم أو انتهاء منه من غير وقوف والذى أقسم به أمر جامع فلا يقدر هذا الداعى أن يحكم على الاسم الجامع بأمر معين فلابد له من الوقوف إبراراً للقسم لا للمقسم ، ثم أقسم عليه بالوجد ليحصل فى نفسه شفقة عليه فيكون وقوفه بضرب من الرحمة والشفقة ، وقوله والتبريح أقسم أيضاً بما ظهر لك من حالى وتحققته ، ثم ذكر أيضاً المانع من رحلته حيث تروح همه .

نفسى تريد ولكن لا تساعدنى   رجلى فمن لى بإشفاق وإسعاد

شبه نفسه فى تقييده بهذا البدن ومنع هذا التقييد له من معارجه حيث يريد الحركة ، فالإرادة منه موجودة والآلة التى يبلغ بها المطلوب غير مساعدة

ثم قال : فمن لى بإشفاق يريد بصاحب الإشفاق مساعد لى على ما أريده من مفارقة هذا العالم الخسيس محل الحجاب والظلمة وطمس الأنوار والغمة والذى أشار إليه المشفق المساعد هو القدر يقول من لى بمساعدة القدر شفقة منه علىّ لما أنا فيه من الغم والكرب وحكم الكيف والكم ، ثم أخذ يعزى نفسه ويقول :

ما يفعل الصَّنَعُ النحرير فى شُغُلٍ
آلاته أذنت فيـــــه بإفســاد

كنى بالصنع عن نفسه والصنع هو الحاذق بالعمل الماهر يقول : ما أفعل وإن كنت قادراً على المفارقة فى أوقات ما يشير إلى زمن الفناء والغيبة فى أوقات الأحوال والواردات الإلهية ، ولكن ما هو مطلبى إلاّ الرحلة الكلية ، فإن الجذب الذى يجذبنى من عالم الحس فى وقت الفناء قوى وهو الذى عبر عنه بالآلة ، يقول : فذلك الجذب يفسد علىّ شغلى أى ينكر علىّ حال فنائى وغيبتى بجذبه لردى إليه فى تدبيره لئلا ينخرم ، وذلك لعلمه بما بقى عندى فى خزانتى من مصالحه وتدبيره الذى أودعنيه الحكيم سبحانه ، ثم قال يخاطب الحادى بقوله :

عرج فقى أيمن الوادى خيامهمُ ... لله درّك ما تحويه يا وادى

يقول للحادى عرج بالهمم إلى أيمن الوادى يشير إلى المراد بالطود الأيمن بالوادى المقدس حالة التكليم والمناجاة بفنون العلوم وقوله خيامهم يقول : منازل هذه الهمم ، يقول : إنها لا تنزل إلاّ فى العلم بالله لا فى

الله لأنه سبحانه ليس بمحل لنزول شيء فيه ، ولكن غاية الممكن كله العلم بالله فمدار الكل على العلم لا على غيره لأنه ليس بيد الممكن سواه حيث كان ، ثم أخذ يقول لله درك ما تحويه يا وادى يريد من المعارف الإلهية القدسية الموسوية الذى قيل فيها لنبينا صلى الله عليه وسلم (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا)[1] وقوله : (فسالت أودية بقدرها)[2] ، ثم أخذ يقول فى نعت هذه المعارف والهمم :

جمعتَ قوماً همُ نفسى وهم نَفَسى
وهم سوادُ سويدا خِلْبُ أكبادى[3]

يخاطب الوادى يقول : جمعت قوماً يريد ما فيه من المعارف والهمم هم نفسى يريد الهمم وهم نفسى يريد المعارف وهم سواد سويدا خلب أكبادى يريد الهمم فإن انبعاثاتها من سويدا القلب ، يقول وأنا وإن لم أحظ بحلولى فيك لألتذ بما تحويه وأتنزه ، فإن حلول هممى فيك كحلولى لأنها منى وإلىّ تعزية لنفسه بذلك لما يجده من الشوق إلى المفارقة واللحوق بالعالم الأقدس ، ثم أخذ يعرّض بحاله وهيمانه فى ذلك فقال :

لادرّ درّ الهوى إن لم أمت كمدًا
بحاجرٍ أو بسَلعٍ أو بأجياد

---

(١) من الآية ٤٦ — سورة القصص .

(٢) من الآية ١٧ — سورة الرعد .

(٣) الخلب بالكسر : الحيمة رقيقة تصل بين الاضلاع ، أو حجاب الكبد .

يقول أنا أدعى الهوى والهوى سبب مهلك إذا أفرط أدى إلى الرحلة من هذا الوطن كما اتفق فيما حكى عن جماعة من المحبين أن محبوبه قال له : إن كنت تحبنى فمت فوقع من حينه فى الأرض بين يديه ميتاً ، فأخذ يدعو على هواه فى هذا العالم الأقدس لا كان هذا الذى لا يميتنى كمداً وشوقاً بحاجر اللحوق بالبرزخ إذ هو الحاجز بين الشيئين أو بسلع ، يقول : إن لم أمت كمداً بسبب حب اللحوق بعالم البرزخ ، فأتجرد عن هذا الهيكل الذى طال حسى فيه بالحجاب أو بسلع أو بسبب مقام مشرف على المقام المحمدى فإن المقام المحمدى ممنوع الدخول فيه ، وغاية معرفتنا به النظر إليه كما ينظر فى الجنة إلى عليين كنظرنا إلى الكواكب فى السماء ، فإن سلعا جبل بذى الحليفة يشرف على المدينة فكنى عنها بالمقام المحمدى لاقامة محمد فيها ، فأشار إلى رتبته ومرتبته أو بأجياد جبل مشرف بالحرم المكى على البيت ، يقول : أو بسبب مقام إلهى يغنينى عن كل كون فلا كان هوى لا يلحقنى بهذه المراتب الثلاث أو بمكان منها

***

وقال :

قفْ بالمنازل واندب الأطلالا وسل الربوع الدارسات سؤالا

يقول : قف بى لداعى الحق من قلبه بالمنازل يريد المقامات التى ينزلها العارفون بالله فى سيرهم إلى مالا يتناهى من علمهم بمعبودهم ، وقوله : واندب الأطلالا وابك على ما بقى فيها من آثارهم حيث لم يكن لى معهم قدم فيما نزلوا فيه ، ثم يقول : وسل الربوع يعنى المنازل إن لم تروعنا فيها

للنازلين حتى تخبرك المنازل عنهم بما كانوا عليه معها من الآداب وسنّ الأحوال ليكون لك بذلك تأديب ومعرفة وسمّاها دارسات لتغيرها عن الحال التى كانت عليه حين نزولها ، فإن المنازل بعد فراق النازلين يذهب الأنس بها لذهابهم ، إذ لا وجود لها من كونها منازل إلاّ بهم ، ثم ذكر السؤال ما هو ؟ فقال :

أين الأحبّة أين سارت عيسهم   هاتيك تقطع فى اليَبَاب ألآلاَ

يقول : أين درجوا وأين سارت بهم هممهم التى كنى عنها بالعيس ؟ فأجابته بقولها : هاتيك ، أى انظر إليهم يسيرون فى مقام التجريد الذى كنى عنه باليباب ، وهو القفر يقطعون فيه الدلائل على مطلوبهم ، فإنها مرتبطة بوجود المطلوب عندهم كما قال تعالى : (ووجد الله عنده)[1] ثم شبهها فقال :

مثل الحدائق فى السراب تراهم   الآل يعظم فى العيون الآلاَ

يقول : انظر إليهم فى السراب مثل الحدائق جمع حديقة ، وقد أورثهم دخول هذا المقام حال العظمة وهو ألالا الأول وآلالا الثانى هو شخص الماشى فى السراب بهذا الشرط ، وسبب عظمه كونه دليلاً فيعظم لدلالته على عظيم الذى هو مطلوبه ، ولذا قال : حتى يعظم يعنى مالم يكن وهو أنت

---

(١) من الآية ٣٩ ـ سورة النور .

ويبقى من لم يزل وهو هو ، وقال تعالى : (كسراب بِقِيعَة)[1] مقام التواضع حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فدل على شيء ، وهو قوله تعالى : (ووجد الله عنده)[2] لانقطاع الأسباب عنه ، وهو مقام شريف ، فلهذا قال : الآل يعظم فى العيون ألالا ، أى أن العظمة التى كانت للإنسان على غيره من الممكنات لأنه أقوى فى الدلالة على الحق لكونه على النشء الأكمل ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « إنه مخلوق على صورة الرحمن »[3] ، فلهذا كان أقرب الأدلة وأقواها وأعظمها ، ثم أخذ يذكر ما قصد الأحبة بسيرهم .

ساروا يريدون العذيب ليشربوا ماء به مثل الحياة زُلالاَ

يقول : ساروا طالبين سر الحياة بمقام الصفا من عين الجود لتحيا بذلك نفوسهم فكنى عنه بالشرب وهو ثانى مرتبة من مقام التجلى ، فإن الذوق أول مبادى التجلى ، ثم أخذ يصف حاله فى طلبه آثارهم ، والتفحص عن أخبارهم .

(١و٢) من الآية ٣٩ من سورة النور .

(٣) الثابت فى الصحيح : « خلق الله آدم على صورته ، وطوله ستون ذراعاً » أى على صورة آدم التى كان عليها من مبدأ فطرته إلى موته لم تتفاوت قامته ، ولم تتغير هيئته بخلاف بنيه ، وروى « على صورة الرحمن » والمراد بالصورة الصفة ، والمعنى أن الله خلقه على صفته من العلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله لا يشبهها شيء .

فقفوت أسأل عنهمُ ريح الصبا هل خيموا أو استظلوا الضالا(١)

يقول : فتبعت آثارهم أتفحص أخبارهم من ريح الصبا ، وهو الريح الشرقية يريد عالم الأنفاس الذين كانوا بعين التجلى ، يقول : أسأل هؤلاء أصحابنا : هل نزلوا مستظلين بما كسبوا أو استظلوا بما وُهبوا ؟ فإن الخيام من عملهم ، والضال ما لهم فيه تعمل ،وقصد الضال دون غيره لأن فيه معنى الحيرة ، ثم أخذ يذكر ما أجابته ريح الصبا عنهم فقال :

قالت تركت على زرود قبابهم والعيس تشكو من سراها كلالا
قد أسدلوا فوق القِباب مضارباً يسترْنَ منْ حرِّ الهجير جمالا

يقول : قالت حين سألتها عنهم : تركتهم نازلين فى قبابهم يشير أنهم فى ظل كسبهم على حالة التزلزل وعدم الثبوت فكنى عن ذلك بزرود رملة عظيمة فى قفر ، ولما كان الرمل كثيراً ما تنقله الرياح عن حالاته ، وعن أما كنه شبه حالة التزلزل وعدم الثبوت على أمر واحد به ، وقوله :

* والعيس تشكو من سراها . . . *

يعنى من تعلقها، مطلوبها ، كلالا أى إعياء والعياء الذى ينسب إليها من كونها تطلب من لا ينضبط ولا يتصور ، ولا يحصل فى النفس منه إلا آثاره لا هو ثم أخذ ينبه على قوله : لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه

---

(١) الضال من السدر ما كان عذبا واحدته : ضالة .

بصره لكن جعل الحجاب عليهم وفى حقهم لا على الوجه ، فقال : إن سطوات أنوار هذا المقام إن لم تكن على وجوههم أى حقائقهم ، فإن وجه الشيء حقيقته ما يسترها وإلا ذهب هذا النور بمحاسنهم ، كما تغير الشمس محاسن الوجوه فى المعتاد ، ثم أخذ يحثه على الرحيل خلفهم وما يفعله إذا لقيهم فقال :

فانهض إليهم طالباً آثارهم وارفل بعيسك نحوهم إرفالا[1]

يقول : تأدب مع المتقدم عليك ولا تزاحمه فى مقامه ، فإنه ليس لك فيه شيء يريد بذلك مقامات الأنبياء عليهم السلام ، وهم العارفون المذكورون فى هذه القطعة الذين كنى عنهم بالأحبة ، يقول : فاطلب آثارهم ، أى اقتف على مدرجتهم وزاحمهم بالهمة التى كنى عنها بالعيس لا بالحال ، فإن الحال محجوب فى هذا المقام على غير النبى صلى الله عليه وسلم . وقد حكى عن أبى يزيد وغيره فى هذا المقام حكايات معروفة ، فإنه فتح له من مقام النبى صلى الله عليه وسلم قدر خرم الإبرة تجلياً لا دخولاً فاحترق ، ومثل هذا كثير ، والهمة لا تعجز عن الطلب ولا عن التعلق ، ولكن ما كل ما يراد ويتعلق به ينال ، فلهذا لا يحجر على تعلق الهمم والفائدة فى تعلقها ، وإن لم يحصل لصاحبها قدم فى ذلك قبل نيل الإشراف على المطلوب والتنزه فيه

(١) الإرفال : ترفل : تتبختر . الرفل : الذيل . ورفل : إزاره إذا أسبله .

لكن يتنزه فيما هو خارج عنه بجسمه وبصره يدركه كتفرجنا فى زينة الكواكب فى السماء ونحن بذواتنا فى الأرض، ولهذا قال :

فإذا وقفت على معالم حاجر وقطعت أغواراً بها وجبالا

يقول : فإذا وقفت على موضع الحجر الذى ذكرناه الحائل بيننا وبين حصولنا فيه بالحال ، وقطعت المواضع الغيبية التى هى الأغوار ، والسبل التى هى الجبال التى يهدينا الحق إليها بعد الجهاد من قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[1] ، يقول : فإذا حصلت هذه الحالات تقرب من المنازل العلية فقال :

قربت منازلهم ولاحت نارهم ناراً قد اشعلت الهوى إشعالاً

يقول : قربت منازلهم لك ، وقوله : ولاحت نارهم ، أى المكاره التى اقتحموها حتى أوصلتهم إلى هذه المنازل العلية ، فإن الجنة حفت بالمكاره ، كما ذكر لى بعض المكاشفين بالموصل ، وكان من الصادقين ، أنه رأى معروفا الكرخى رضى الله عنه فى وسط النار قاعداً فهاله ذلك ، وما عرف معناه ، فلما ذكره لنا قلت له : تلك النار هى الحمى على منزله الذى رأيته فيه قاعداً ، فمن أراد أن ينال ذلك المنزل الذى هو فيه فليقتحم إلى هذه النار والغمرات فسررته بذلك وعرف أنه الحق ، فهذا هو النار الذى أراد به صاحب هذا القول ، وقوله : قد أشعلت الهوى إشعالا ؛ يقول : أضرمت

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

فى القلب نار الحب لنيل هذا المقام ليكون تأييداً له وقوة على اقتحام الشدائد فى نيل المطلوب الذى تعلق به قلبه ، ثم قال :

فأنخ بها لا يرهبنّك أسدها فالإشـــتياق يريكها أشبالا

يقول : حبك الشىء يعمى ويصم ، فلا تقع عينك على ما تخاف منه مما يحول الخوف بينك وبين مطلوبك ، ويصم عن سماع ما يتخوف به كل طالب فى طريق مطلوبه يقول له : إن كنت صادقاً فى حبــك فلا يرهبنك ما ترى من الشدائد التى كنى عنها بالأسد ، فإن الصدق فى الشوق إلى ذلك يردها فى عينك بمنزلة الأشبال الذين هم صغار الأسد الذين هم لا يخاف منهم ، أى يهون عليك الشدائد والأمور الصعاب ما تجده من الشوق إليهم .

* * *

وقال رضى الله عنه

يا طللاً عند الأثيـل دارساً لاعبت فيـــه خُرُداً أوانسا[1]

كنا قد نزعنا فى شرح هذه القطعة وغيرها منازع مختلفة فى مواضع شتى على حسب ما يعطيه السماع فى وارد الوقت ، فالآن أيضاً أقول فيها : إن

---

(١) الخرود : البكر لم تمس أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة ، وتجمع على خرائد ، وخرد ـ بضم الأول والثانى ـ الآنسة الجارية الطيبة النفس المحبوب قربها وحديثها ، وجمعها أوانس .

السماع أعطى فى قوله : يا طللا عند الأثيل ، الطلل ما بقى من أثر الديار بعد خلوّها عن ساكنيها ، واعلم أن الانسان فيه مناسب من كل شىء فى العالم ، فيضاف كل مناسب إلى مناسبه بأظهر وجوهه وتخصصه الحال والوقت والسماع بمناسب ما دون غيره من المناسب إذا كان له مناسبات كثيرة لوجوه كثيرة يطلبها بذاته فأقول : إن الأثيل تصغير الأثل وهو الأصل ، والطلل أثر طبيعى وهو ما بقى فيه من أثره الطبيعى ، فالأثيل هنا الطبيعة التى هى الأصل ، وقوله : دارساً ، يريد متغيراً بما يرد عليه من الأحوال ، فيتغير من حالة إلى حالة ، وإذا تغير إلى حالة ما فقد ذهب أثره من الحالة التى انتقل عنها حتى أعقبها غيرها ، وقوله :

* لاعبت فيها خرداً أوانسا *

أراد بالخُرُد الحكم الإلهية التى يأنس بأنس الاطلاع عليها قلب العارف، فهو يتذكر حالته التى كان عليها عند فنائه عن عالم الفناء والدثور ، وقوله : لاعبت فيه ، الضمير يعود على الطلل ، فإنه ما شاهد شيئاً إلا فيه وسببه ، فإنه بالأصل متولد عنه ، فإنه بعد التسوية الطبيعية لم يحصل فيه هذا السر الروحانى الربانى على صورة المزاج وطبع التأليف ساذجاً لا علم له ، ثم أنه بواسطة ما أودع الله فى هذا الهيكل من القوى يحصل ما يظهر عليه من العلوم والمعارف كلها الرياضية والطبيعية والإلهية ، فبهذا يكون شرف لهذا القالب ، ثم قال :

بالأمسِ كان مؤنساً وضاحكاً   واليومَ أضْحَى موحِشاً وعابِسًا

كنى بالأمس عن الزمان الماضى ، يقول : كان فيه بمغيبه وفنائه مع العالم لأعلى عالم البقاء من غير استمرار زمان عن عالم الفناء والإحساس المقيد فى عالم الشهادة مؤنساً وضاحكاً فى ابتهاج وسرور وغبطة وحبور ، فإنه بمناسبه الروحانى كانت ألفته فى هذا المشهد ، فلما رد فى الحالة الثانية التى كنى عنها باليوم إلى حالة إحساسه ومشاهدة عالم الضيق والحرج ، وفراق تلك الفسحات والفُرج العلوية والمسارح أخذته الوحشة لتلك الفرقة فصار عبوساً مهموماً ، ثم أخذ يقول :

نأوا ولم أُشعِرهم فما دَرَوْا   أن عليهم من ضميرى حارسا

يقول : إن الملأ الأعلى الذين كانوا مشهودين له فى هذا المقام لما رحلوا وردّ بى إلى شاهدى من تلك الغيبة ، بعث عليهم حارساً ضميرى وخواطرى وهمى تحرسهم وتبصرهم ، مثل ما يفارق الانسان منزلاً ما بإحساسه وهو حاضر معه بخياله ومثاله فى نفسه ، ثم أخذ يصف حالة هذا الضمير فقال :

يتبعهم حيث نأَوْا وَخَيَّمُوا   وقد يكون للمطايا سائسا

يقول : يتبعهم حيث توجهوا فى سيرهم فى المنازل الالهية ، وخيموا إذا قاموا بمقام ما من مقامات الجمع والوجود لورود الشهود الذى لا تصح معه حركة منه بل له الثبوت فى ذلك المشهد ، والمطايا هم السائرون الذين اشتاق

إليهم بالهمة ، وقوله : سائساً يسوسهم أى يؤثر فيهم بالهمة فتكون منهم التفاتة إليه ، وذلك من صدقه ، فإن الصغير يؤثر فى الكبير إذا صادق التوجه ، وهذا يظهر كثيراً فى المريدين الصادقين مع الشيوخ ، وإن كان الشيوخ أعلى ، ولكن صدق التوجه إليهم أثر لهم رحمة بهم ليجزى الله الصادقين بصدقهم عاجلا وهو هذا ، وآجلا ما يكون فى الأخرى لهم ، ثم أخذ يصف أحوال السائرين فقال :

حتى إذا حلّوا بقفرٍ بلقعٍ وخيموا وافترشوا الطنافسا[1]

يقول : انزلوا بمقام التنزيه وتجريد التوحيد وخيموا ، مثل قوله عليه السلام : (إن الإنسان يوم القيامة فى ظل صدقته) . وافترشوا الطنافسا ، هو ما مهد لهم الحق فى منازلهم عند ورودهم عليه من عالم الأكوان ، وما أتحفهم به فى ذلك المقام من البر والإكرام ، ثم أخذ يذكر ما أثر نزولهم فى ذلك المقام عندهم وما ينزل إليهم من عند الحق من الألطاف والتحف والعوارف بنزولهم فقال :

عاد بهم روضاً أغنّ يانعاً من بعد ما قد كان قفراً يابسا

نبه فى هذا البيت على أن تجريد التوحيد لا يثبت معه حقيقة زائدة على العين أصلا ، فإذا قاموا فى هذا المقام وتحققوا به وعلموا معنى قوله :

---

(١) قفر بلقع : الخلاء من الأرض. الطنافس جمع طنفسه مثلثه الطاء والفاء البسط التى لها خمل رقيق أو الثياب .

(ليس كمثله شيء)[1] ردهم إلى توحيد ذواتهم من حيث أحديتهم التى لا شبيه لها من حيث العين فى ذاتها ، ثم ذكر قبولها لما يفيضه الحق عليها من الأسرار الإلهية لحقائق الأسماء فشبهها بالروضة لكونها جامعة لفنون الأزهار وبين أن ذلك من مقام الفهوانية بقوله أغن فجمع بين الكسب والوهب من طريق المشاهدة والكلام ، فكأنه فى هذا المقام موسوى ومحمدى على مذهب ابن عباس وأكثر المحققين . ثم أخذ يصف مايؤثرون هؤلاء فى المنازل بنزولهم :

ما نزلوا من منزل إلاَّ حوى من الحسان روضةً طواوسا

يقول إذا نزلوا فى منزل فكان ذلك بحسن فنون حالاتهم وأعمالهم وخلقهم نزلوه طواوساً لحسنهم واختلاف ألوان لباسهم ، وشبههم بالطيور لغلبة الروحانية عليهم ، ولما كانت الطيور ممتزجة بين العالم الروحانى المطلق من حيث طيرانهم فى الجو وسياحتهم فى الهوى وبين العالم الجسمانى من من حيث هيكلهم وتركيبهم ، لذلك أوقع التشبيه بها لأن الأرواح الإنسانية المقيدة بهذا الهيكل لم تخلص عنه تخلص الأرواح المسرحة التى لا تقييد لها بعالم الأجسام ، لأنها مدبرة بأصل الفطرة والجبلة ، ولا تخلصت أيضاً لأن تكون من عالم الجسم فتكون ظلمة مطلقة كثيفة ثقيلة ، تتحرك بغيرها

---

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى .

لا بنفسها فأشبهت الطير بهذا وذلك أنها متولدة بين الظلمة والنور فهى ممتزجة فكأنها برزخ بين العالمين النورانى والظلمانى ، ثم قال :

ولا نأوا عن منزل إلاّ حوى من عاشقيهم أرضَهُ نواوِسا

يقول : ولا رحلوا عن منزل إلاّ حوى من عاشقيهم أى من له تعلق بهم من الحقائق التى تجب أن تظهر آثارها فيهم لظهور سلطانهم لهم ، فإن المعارف لا وجود لها إلا بالعارفين ، فهى أشد عشقاً فى وجود العارف بها من حيث ما هو عارف بها من شوق العارف إليها ، فإن العارف قد يمكن أن يجهل بعض المعارف فلا يتصور منه طلب ولا عشق ، فلهذا وصفها عند مفارقة العارفين بالموت فإن النواويس المدافن .

وقال رضى الله عنه

مرضى من مريضة الأجفان عللانى بذكرها عللانى

المرض : الميل ، يقول : لما مالت عيون الحضرة المطلوبة للعارفين من جانب الحق سبحانه بالرحمة والتلطف إلينا أمالت قلبى بالتعشق إليها ، فإنها لما تنزهت جلالاً وعلت قدراً وسمت جبروتاً وكبراً لم يتمكن أن تعرف فتحب ، فتنزلت بالألطاف الخفية إلى قلوب العارفين بقوله : (ووسعنى قلب عبدى)[1] ضرب من التجلى تعلق القلب عند ذلك ،

---

(١) سبق الكلام عليه

فـكان الحب وكان الميل الدائم ، وهو المرض المحمود ، وقوله : عللانى بذكرها ، لما ذكر المرض طلب التعلل ، وما بأيدى الـكون منه إلا الذكر فإن ضبطه وتحصيله محال ، فطلب ما يجوز له طلبه وهو الذكر كما قال : (فاذكرونى أذكركم)[1] وثنى يريد ذكراً بلسان الغيب وذكراً بلسان الشهادة ، وكرر التعليل بالتثنية يقول أذكراه لى بذكرى له وبذكره إياى وهو حالة فناء العبد عن ذكر ربه بذكره لذكره بربه لربه بلسان عبده ، كما قال عليه السلام فى الرفع من الركوع ، فإن الله قال على لسان عبده : سمع الله لمن حمده .

هفت الوُرْق بالرياض وناحت شجو هذا الحمام مما شجانى[2]

يقول : هفت ، تحركت ، وناحت ، ندبت على المقابلة ، والشجو الحزن يقول : تحركت الأرواح البرزخية بالرياض ، يريد رياض المعارف ، وناحت ندبت نفسها حيث لم تخلص بذاتها لجناب الأرواح المسرحة عن التقييد بهذا الهيكل الذاتى فسحات الأطباق العلا مع الملأ الأعلى فقابلت ندباً منى ما يناسبها من اللطيفة الممتزجة ، فأحزنها الذى أحزننى للمشاكلة التى بينهما ؛ ثم قال :

بأبى طَفْلةٌ لعوبٌ تهادى من بنات الخدور بين الغوانى

---

(١) من الآية ١٥٢ من سورة البقرة .

(٢) الورق : الذئبة والحمامة .

الطفلة : الناعمة ، والإشـارة بها إلى الطفولية وهو حدوث عهدها بوجودها للحق لا لنفسها ، واللعوب التى يكثر منها اللعب ، يريد أنها متحببة لا هم لها مسرورة لقربها من مشهدها الأقدم ، والغوانى ذوات الأرواح وهن بينهم بكر لم يطمثها أنس قبل هذه المعارف ولا جان أى مستتر ، يقول : ما التذ بها عالم الغيب ولا عالم الشهادة ، الإشارة إلى حكمة علوية إلٰهية ذاتية أقدسية مشهودة لهذا القائل لينة تورث السرور والابتهاج والطرب والفرح لمن قامت به فهى اللعوب ، تهادى أراد تتهادى بين حكم إلهية ولطائف قد تحقق بها العارفون الذين سبقوا لهذا العارف بالوجود ، وجعلها من بنات الخدور يشير إلى أنها كانت خلف حجاب الصون والحفظ والغيرة فى سيرها من الحضرة الالٰهية لقلب هذا العارف فى المنازل العلوية حتى تصل إليه ؛ وبهذا كنى عن ذلك بالخدور وهى الهوادج ولا تـكون الظعينة فى سـتر الهودج إلاّ فى الرحيل فإذا نزلوا كنّ مقصورات فى الخيام .

طلعت فى العيان شمساً فلما أفلَتْ أشرقت بأُفْق جنانى

يشير إلى قوله عليه السلام : « ترون ربكم كما ترون الشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب» ، يقول: طلعت هذه المتغزل فيها فى عالم الملك والشهادة من الاسم الظاهر الـكبير المتعال ، فأعطت فى هذا التجلى ما تعطى الشمس فى عالم الأركان من الأثر المعنوى والحسى ، إلى أن انتهت بالسير نصف

دائرة العالم ، ثم غربت عن الملك والشهادة ، وكان غروبها شروقاً فى عالم الغيب والملكوت ، وبذلك كنى عنه بالجنان من الستر ، ولم يكن عنه بالقلب تحرزاً من التقليب والتلوين فى هذا المقام ، وذكر الأفق من أجل الاعتدال ، وأن الانسان بما تعطيه نشأته لا يبقى عند نظره على حالة اعتداله إلا بالنظر لما يواجهه من قلبه وهو الأفق ، فمتى رام أن ينظر إلى غير الأفق خرج عن الاعتدال ، فلهذا قال بأفق جنانى .

يا طلولاً برامةٍ دارسـات   كم رأت من كواعبٍ وحسان

أراد بالطلول القوى الجثمانيات منه ، وأراد برامة من رام يروم وهى المحاولة ، وهذا هو النداء المنكر ، يقول : أيتها القوى كم تحاولين تحصيل مالا يمكن تحصيله وأنت محل التغيير والتلوين من حال إلى حال ، فإن الدارس هو المتغير ، ثم أخذ ينبهها بما رأت قبل ذلك مما أفناها وسحقها ومحقها من الحكم الالهية واللطائف والاشارات العلوية ، والكاعب التى صار ثديها كالكعب وهو أول شباب الجارية ، والاشارة إلى ثدى هذه الحكمة لأنها تحمل اللبن الذى هو الفطرة مشروب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة معراجه وبين ثدييه صلى الله عليه وسلم وجد برد الأنامل فعلم علم الأولين والآخرين من ذلك ، فإن اللبن الذى يحمله الثدى الواحد كنى عنه بعلم الأولين واللبن الذى يحمله الثدى الآخر كنى عنه بعلم الآخرين وبينهما موضع الجمع لتحصيل العلمين ليقع بذلك للعالم التميز إذا

وقع منه الإحساس فى ذلك الموضع ، كما قال : « بينهما برزخ لا يبغيان »[1] لئلا يقع الالتباس ، وأراد بالحسان إشارة إلى أنهما من عين المشاهدة ، فإن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وهو مشتق من الحسن .

بأبى ثم بى غزال ربيب   يرتعى بين أضلعى فى أمان

يقول : أفدى هذا المحبوب المتجلى إلىّ بأبى وبنفسى ، يشير لما يطرأ عليه لو اتفق حال الفناء فكنى عن هذا المحبوب بالغزال لوجهين :

الواحد : لاشتقاقه من الغزل وهو التشبيه والمحبة والنسيب .

والوجه الآخر : الوحش الذى يألف القفر ، فكأنه يقول : هذا المعنى المطلوب لى مولده ومقامه إنما هو القفر الذى هو مقام التجريد وحال التنزيه والتقديس ، أى إذا كان هذا حالى ومقامى ألفه هذا المعنى كما يألف الغزال القفر . وقوله ربيب ، أى مر بى كأنه يريد أنه نتيجة عن مطلب الهمة ، ونظيره فى العمل الصدقة تقع فى يد الرحمن فيربيها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله ، فكذلك المعانى الالهية إذا كانت معقولة للهمم حتى يتصور طلبها لها فتقبل التربية خلاف ما لا يخطر على القلب فلا يتعلق به الهمة ، وقوله يرتعى من الرعى ، والرعى يكسب السمن الذى يحصل منه للمرتعى حسناً وجمالا ، فكذلك هذا الوارد الإلهى إذا حصل بقلب الأديب زينه وحسنه

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الرحمن .

بالأدب فى التلقى ، فإنه لابد أن يرجع إلى موجده فيرجع بأحسن صورة وهى موارد الأوقات ، وبابها فى المعارف واسع ، وقوله : بين أضلعى فى أمان ، يعنى للانحناء الذى فى الضلوع فكأنها كالحاوية عليه الخائفة لئلا يطرقه شىء كما قد ذكرناه فى قصيدة لنا فى هذا الكتاب ، وهو قولنا :

* فطويت من حذر عليه شراسفا *

فلهذا أوجب له الأمان .

ما عليه من نارها فهو نور هكذا النور مُخْمِد النيران

كأن قائلا قال له : إن هذا المحل الذى جعلته مرعى لغزالك نارى ، فقلنا له : ما عليه من ذلك ، فإن النور أقوى فى الفعل منه ، وهذه الموارد نورانية توردت من حضرة النور فلا شك أن النار الطبيعية التى بين أضلع هذا المحب لا تقوى لها ، ولا تنعدم ، فإن المحبة تشعلها وتقويها ، فغاية الأمر أن تخمد ، يريد أنه لا أثر لها فيه ، ألا ترى فى الحسن كيف يذهب نور الشمس نور النار فى رأى العين ، وإن كنا نعلم أن لها نوراً ولكن اندرج الأضعف فى الأقوى فى أعيننا فنراها كأنها خامدة وفى نفس الأمر على ما هى عليه من الاشتعال .

يا خليلىّ عرجا بعِنَانى لأرى رسم دارها بعَيانى

يخاطب داعييه اللذين للحق فيه من عالم غيبه وشهادته . يقول لها : اثنيا بعنانى ، يريد الأمر الذى يحكم به ويمشيه على الطريق الأقوم لأرى رسم شخص دارها ، أى الحضرة التى منها صدرت هذه الحكمة المحبوبة ، أى ببصرى

من كونه بصراً لا من كونه مقيداً بجارحة ولا بجهة ، فكأنه يطلب مقام المشاهدة ، إذ الحكمة ليست مطلوبة إلا من أجل ما تدل عليه .

ثم قال :

فإذا ما بلغتما الدار حُطّا وبها صاحبي فلتبكيان

يقول لهما : إذا وصلتما إلى المنزل فحطا بى ، ولا شك أن هذه الحضرة تغنى كل من وصل إليها وشاهدها ، فإن المشاهدة فناء ليس فيها لذة ، يقول: فإذا رأيتمانى قد فنيت عن وجودى وعنكما فابكيانى لكما لا لى لتعطيكما بفنائى عما تعطيه حقائقكما فإن لم أجد الدار ووجدت الأثر بكيت مثلكما .

وقوله :

وقفا بى على الطلول قليلا نتباكى بل ابك مما دهانى

يقول : قفا بى إن أجد رسم الدار على آثارها وآثارهم فيها ، ولما شرك بينه وبينهما فى البكاء وهما اثنان وهو واحد غلب القلة فقال : نتباكى ، فإنهما ما فقدا شيئاً وهو الفاقد فهو الباكى ، فغلب التباكى على البكاء من أجلها .

ثم بين مقام انفصاله عنهما ، فأضرب عن التباكى « ببل » ، فقال : بل أبك مما دهانى من فقد الأحبة ورسوم المنازل ، ولم يبق بيدى سوى الآثار التى هى بقايا الديار .

ثم أخذ يصف حالة تحكم الحب فيه بسلطانه :

الهوى راشقِى بغير سهام   الهوى قاتلى بغير سِنان

وصفه بالرشق حالة أثره فيه على البعد وهى حالة الشوق ، ووصفه بالقتل بغير سنان يشير إلى حالة أثره فيه على القرب وهى حالة الاشتياق ، فهو يقول : سواء بعد الحبيب أو قرب فإن أثره فىّ لازم ، وأمره فىّ متحكم ، ونفى السهام والسنان المحسوسين ، أى : أنا مقتول من مشهد الغيوب والملكوت ، لا من جهة الجوارح أى اللحاظ الفاتكة فهى معنوية .

ثم أخذ يستفهم صاحبيه فقال :

عرفانى إذا بكيت لديها   تسعدانى على البكا تسعدانى

يقول لهما : إذا بكيت عندها هل تتبا كيان معى لبكائى مساعدة أم لا ، أى : تعلمانى من علوم المشاهدة التى عندكما ما يليق بهذا الموطن ، فإن البكاء من العيون ، وهى دموع حارة ، لأنها عن حزن فتكون علوم مجاهدة .

واذكرا لى حديث هندٍ ولبنى

وسليمى ، وزينب ، وعِنان

يقول لهما : عللانى بذكر أمثالى وأشباهى ، ولكن بذكر المحبوبات منهم لا بذكر المحبين لهن إيثاراً لذكرها على ذكرى وراحة لى بسماع ذكر من يناسبها ، ولهؤلاء المذكورين من المحبوبات حكايات ، وطول ذكْرها لا يسع هذا الشرح لها ، وقد أفرد الناس لها أماكن فى كُتب الآداب فى

حكايات هند صاحبة بشر ، ولبنى صاحبة قيس بن الدريج ، وعنان جارية الناطق ، وزينب من صواحب عمر بن أبى ربيعة ، وسليمى جارية فى زماننا رأيناها وكان لها محب يهواها .

والإشارة بهند إلى مهبط آدم عليه السلام وما يختص بذلك الموطن من الأسرار ، ولبنى : إشارة إلى اللبانة وهى الحاجة ، وسليمى : حكمة سليمانية بلقيسية ، وعنان : علم أحكام الأمور السياسيات ، وزينب : انتقال من مقام ولاية إلى مقام نبوة .

والإشارة إلى من كمل من النفوس التى استحقت الأنوثة بحكم الأصالة فإذا كملت لم يبق بينها وبين الرجال إلا درجة الفضل ، ووقع التساوى فى درجة الكمال من حيث ما هو كمال ، لا من حيث كمالٍ ما ، كما يقول : (تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض)[1] ، فمن حيث ما هى رسالة ، فلا فضل ، إذ الاسم يعم هذه الحالة ، ومن حيث ما هى رسالة بأمر ما ، وقع التفاضل .

ثم زيدًا من حاجرٍ وزَرُود خــبراً عن مراتع الغزلان

ثم أخذ يطلب منهما بعد ذكر هؤلاء الأشخاص بطريق الإشارة والتنبيه للأماكن التى تعمرها هذه الحكم المطلوبة بهذا العاشق ، فقال : زيدا لى فى

---

(١) من الآية ٢٥٣ سورة البقرة .

حديثكما ذكر حاجر ، وهى الأسباب المانعة عن إدراك أى مطلوب كان ما حاجره أى مانعه .

وزرود : ضرب من البين ، لكن فيه مجاورة من غير ألفة ، فإن زرود رملة ، والرمل يتجاور ولا يلتفّ ، ولكن مع هذا فى هذه الأما كن مرعى لهؤلاء الغزلان التى هى العلوم الشوارد التى لا تنضبط ولا يتصور بها ، فكأنه يطلب الحالات التى تحسنها .

واندبانى بشعرِ قيسٍ وليلى وبمىّ والمُبْتَلَى غَيْلان

يقول : واندبانى بشعر المحبين مثلى فى عالم الحس والشهادة كقيس وهو الشدة وقلم الإيجاد فنبه بقيس عليها ، فإن القيس الشدة فى اللغة ، والقيس أيضاً الذكر ، وليلى من الليل ، وهو زمان المعراج والإسراء ، والتنزلات الإلهية من العرش الرحمانى بالألطاف الخفية إلى السماء الأقرب من القلب الأشوق ، وبمى : وهى الخرقاء التى لا تحسن العمل ، ومن لم يحسن العمل كان العامل غيره (والله خلقكم وما تعملون)[1] أى ما يظهر على أيديكم من الأعمال التى هى مخلوقة لله تعالى . وغيلان هو ذو الرمة ، والرمة الحبل العتيق . والحبل السبب الذى طولبنا بالاستمساك به والاعتصام ، ونسبته إلى القديم أمر محقق ، فإنه حبل الله وهو القديم الأزلى .

---

(١) الآية ٩٦ من سورة الصافات .

وذكر الغيلان ، وهو شجر مشوك يتعلق بمن قرب منه ، ويمسكه أن يزول عنه حباً فيه وإيثاراً ، وفيه من الراحة كون هذا الشجر مختص بالفيافي التي لا نبات فيها ، المهلكة بقوة رمضائها وحرها ، فليس فيها ظل لسالك إلا هذه الشجرات ، شجرات أم غيلان ، فيجدها فى ذلك المقام رحمة فيلق عليها بثوبه ويستظل فتمسكه بشوكها عن أن تمر به الرياح فينكشف لحر الشمس ، فكذلك ما يجده من الألطاف الخفية الإلهية فى مقام تجريد التوحيد وتنزيه التقديس ، فأوقع التشبيه بالمناسب من هذا الوجه فلهذا سألها أن يذكرا له هؤلاء الأشخاص من المحبين ليجمع بين حال المحبة وعلم حقائق هؤلاء المذكورين لأنهم كانوا محبين ثم قال :

طال شوقى لطفلةٍ ذاتِ نثر ونظامٍ ، ومنبرٍ ، وبيان
من بنات الملوك من دارِ فُرْس من أجلّ البلادِ من أصبهان

وصف هذه المعرفة الذاتية بأنها ذات نثر ونظام ، وهما عبارتان عن المقيد والمطلق ، فمن حيث الذات وجود مطلق ، ومن حيث المالك مقيد بالملك ، فافهم ما أشرنا إليه فى هذا ، فإنه عزيز ما رأينا أحداً نبه عليه قبلنا فى كتاب من كتب المعرفة بالله تعالى .

وأما قوله : ومنبر ، يعنى درجات الأسماء الحسنى ، والرقى فيها التخلق بها فهى منبر الكون ، والبيان عبارة عن مقام الرسالة لغزنا هذه المعارف كلها خلف حجاب النظم بنت شيخنا العذراء البتول شيخة الحرمين وهى من العالمات المذكورات .

وقوله : من بنات الملوك لزهادتها ، فالزهاد ملوك الأرض ، فستر ما يريده من المعارف بذكر دارها وأصلها ، يشير من بنات الملوك يعني أن هذه المعرفة لها وجه بالتقييد ، فإن الملوك من باب الإضافة .

وقوله : من دار فرس ، يقول : وإن كانت عربية من حيث البيان فهى فارسية عجماء من حيث الأصل لأنه لا يتمكن فى الأصل بيان عزته وتعلق العلم به فذكر أصبهان لأنه بلدها من الأصالة فينسب من الحكم إليها على قدر ما يعرف من خصائصها كل عارف فهو يرجع للعارفين بها فقال :

هى بنتُ العراق ، بنتُ إمامى وأنا ضـــدها ، سليل يمانى

يقول : العراق أصل الشىء أى هذه المعرفة عن أصل شريف له التقدم بما ذكر من الإمامة ، وأنا يمان من حيث الإيمان والحكمة ونفس الرحمن ورقة الأفئدة ، وإنما جعله ضداً لما ينسب إلى العراق من الجفا والشدة والكفر ، فهو ضد ما ينسب إلى اليمن ، لأن ضد العراق إنما هو المغرب لا اليمن وإنما اليمن مقابلة الشام ، فالضد الذى أشار إليه إنما هو ما يناسب الشارع إلى الجهتين ، وهى محبوبة فلها الجفا والبعد والغلظة والقهر وأنا محب فلى النصرة والإيمان والرقة واللطافة استعطافا لرضى المحبوب واستلطافا به ، ولما كانت هذه المعرفة المخصوصة تصطلم العبد عن شهوده وتظهر فيه بضرب من القهر والغلبة فتمحو رسومه وتذهب سائر علومه كانت نسبة العراق إليها أولى من غيرها من الأماكن .

ثم قال :

هل رأيتم يا سادتى أو سمعتم أن ضدّين قط يجتمعان ؟ ؟

يقول : الإشارة بالضدين حكاية الجنيد حين عطس رجل بحضرته فقال: الحمد لله ، فقال الجنيد : أتمها رب العالمين ، قال الرجل : ومن العالم حتى يذكر مع الله ، فقال الجنيد : الآن يا أخى فقل له فإن المحدث إذاقورن بالقديم لم يبق له أثر ، فإذا كان هو فلا أنت ، وإن كنت أنت فلا هو ، سبحات وجهه لو كشفت عنها الحجب لأحرقت ما أدركه بصره .

لو ترانا برامة نتعاطى أكؤساً للهوى بغير بنان[1]

يقول : لو ترانا فى مقام المحاورة تتعاطى أكؤس المحبة من قوله : (يحبهم ويحبونه)[2] .

وقوله : بغير بنان ، تنزيه وتقديس وتنبيه على أن الأمر معنوى غيبى خارج عن الحس والخيال والصورة والمثال .

والهوى بيننا يسوق حديثاً طيباً مطرباً بغير لسان

يريد ما أراد القائل بقوله :

تكلّم منّا فى الوجوه عيوننا فنحن سكوت والهوى يتكلّم

تشير فأدرى ما تقول بطرفها وأطرق طرفى عند ذاك فتعلم

وقوله طيباً إدراكان للطعم والشم ، يشير إلى مقام الأرواح والأذواق

---

(١) البنان : أطراف الاصابع .

(٢) سورة المائدة من الآية ٥٤ .

فأخبر أنه يورث طرباً ، فإن الغالب إنما يسوق الطرب السماع وما يتعلق بالقهوانية ، والغرض ما ذكرناه من الشم والذوق فيقع الطرب فيه بالخاصية وقوله : بغير لسان ، تنزيه كالبيت الأول ، وقوله : يسوق حديثاً ، ولم يقل يقود ، فإن المتكلم خلف كلامه ما هو أمامه فمنه يكون للسامع ، فلهذا جعله سوقاً ، وقوله : حديثاً إشارة إلى قوله : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)[1] ، والبينية هنا الفرق بين المقامين والحقيقتين لا بينية مكان ولا زمان .

لرأيتم ما يذهب العقل فيه يمن والعراق معتنقان

يقول : لو رأيتم هذه الأحوال التي نحن فيها ، لرأيتم مقاماً وراء ظهور العقل ، وهو اتحاد صفة القهر بصفة اللطف ، إشارة إلى ما قال أبو سعيد الخراز[2] ، وقيل له : بمَ عرفت الله ؟ فقال : بجمعه بين الضدين وهو الأول والآخر والظاهر والباطن من وجه واحد لابد من ذلك خلافاً لما تعطيه قوة العقل ، فإن العقل يدل عليه من حيث مبلغه أنه أول من وجه

---

(١) من الآية ٢ من سورة الأنبياء .

(٢) العارف الكامل أبو سعيد الخراز أحمد بن عيسى من أهل بغداد . صحب ذا النون المصرى وأبا عبد الله النباجي وأبا عبيد البسرى ، وصحب أيضاً سريا القطى وبشر بن الحارث وغيرهم ، وهو من أئمة الصوفية وجلة مشايخهم وله كرامات وأحوال وصبر على الشدائد قيل إنه من أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء ومن كلامه : إذا بكت أعين الخائفين فقد كاتبوا الله بدموعهم وله مؤلفات عدة منها كتاب الصدق .

كذا وآخر من وجه كذا ، وظاهر من وجه كذا وباطن باعتبار كذا ، وليس الأمر كذلك ؛ فإن القوى التي خلق الله الانسان عليها ما تتعدى حقائقها ، فقوة الشم لا تعطى سوى إدراك العطر والنتن ، وكذلك كل قوة ، والعقل أيضاً لا يعطى سوى ما تقتضيه قوته فى نظره فى دليله لا غير ، والسر الربانى يعطى أيضاً ما يليق به وما فى قوته فقد يستحيل أمر ما بالنسبة إلى العقل ولا يستحيل ذلك بالنسبة إلى الحق ، وهذا المحكوم عليه لابد أن يكون مجهول الحقيقة عند العقل لكن العقل يزعم أنه يعرفه وهذا محال ، ومن الدليل على ذلك أيضا أن العقل لا شك جاهل بحقيقة الحق سبحانه غير عارف بذاته من حيث الصفات الثبوتية، ومع هذا ينفى عنه بدليله فيما يزعم أن الحق تعالى لا يكون ظاهراً من الوجه الذى يكون باطناً فلا ينبغى أن يتحكم فى معرفة الله من حيث الذات بالعقل وحظ العقل معرفة كون الحق إلهاً أوجدنا . ونحن مفتقرون إليه فى إيجادنا واستمراره فاعلم ذلك .

كذَبَ الشاعرُ الذى قال قبلى وبأحجار عقله قد رمانى

يقول : كذب العالم من طريق الشعور بالأمر لا من طريق التصريح ، فإن العقل يعلم شيئاً من طريق التصريح ويعلم أشياء من طريق الشعور أنها مشعور بها ، ولكن يتوقف فيها لعدم الوضوح لما هى عليه من العزة وقوله : بأحجار عقله أى بدلائل عقله بحيث أن يرد ما هو مقدور للحق أو

واجب إلى عين هذه الصفة ، فيعترض علىّ ويقول : هذه مخيلة دليل العقل وهو صادق فإن دليل العقل مخيلة لا دليل الحق من إيراد الكبير على الصغير من غير أن يصغر الكبير أو يوسع الضيق ، ثم ضمن فى هذه القصيدة هذين البيتين لبعض الشعراء لاجتماعهما فى المعنى فقال : يرى ناراً كما رأى موسى عليه السلام :

أيها المنكح الثرّيا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان

هى شامية إذا ما استهلت وسهيلٌ إذا استهلّ يمانى

يقول : الثريا سبعة أنجم وسهيل نجم واحد ظاهر يمنى والثريا شامية ، يقول إن الذات لا تقبل الصفات السبعة[1] المدلول عليها عند النظار من حيث الزيادة لكن من حيث النسبة ، والشام موضع الكون ، والثريا هى الظاهرة فى الشام ، كذلك الصفات من الحق هى الظاهرة فى الخلق وعليها تقوم الدلالات والذات لا دخول لها فى الخلق كما لا يدخل سهيل فى الشام ، فإن قيل فما يصنع بقوله تعالى : « كنت سمعه وبصره » ، فقد دخل ، قلنا : نعم ما قال كنت ذاته وإنما ذكر الصفة فيقول بسمعى يسمع وببصرى[2]

---

(١) يشير الى صفات المعانى السبعة وأنها ليست بعين ولا بغير الذات كما بين فى موضعه من علم الكلام .

(٢) يعنى أنه يجعل التوفيق حليفه فيما يرضيه ، وأما فيما سواه فكما قال تعالى : (وإذا مروا باللغو مروا كراما) .

يبصر كما قال الشارع فى الرفع من الركوع ، إن الله قال على لسان عبده « سمع الله لمن حمده » ويكفى هذه الإشارة لأصحابنا بل للمنصفين من النظار .

* * *

وقال رضى الله عنه

أيا روضةَ الوادى أجبْ ربّةَ الحما
وذاتَ الثنايا الغُرِّ يا روضةَ الوادى
وظلّلْ عليها من ظلالِك ساعة
قليلاً إلى أن يستقرَّ بها النادى

الوادى هو الوادى المقدس يريد مقام التقديس ، وكنى بالروضة عن الشجرة التى ظهر النور فيها للمكلم موسى عليه السلام ، وربة الحمى حقيقة موسى عليه السلام فهى إشارة للعارف إلى مرتبةموسوية ورثها منه ، والحمى يريد مقام العزة التى تمنع ذاته من الوصول إليها ، وقوله : وذات الثنايا الغر إشارة إلى إشراق المباسم واختصها بالذكر لأنه فى مقام المناجاة ، والكلام محله الفم وهى صافية من الأقذاء والفلوح يريد مقام الصفاء والطهارة ، وقوله : أجب فإن الحقيقة الموسوية كانت طالبة ناراً فلهذا قيل أجب ، ثم خاطب الروضة فى البيت الثانى ، فقال :

وظلل عليها من ظلالك ساعة قليلا إلى أن يستقر بها النادى

يقول : لهذه الروضة هذه ربة الحمى ظلل عليها من أفنان أغصان

معارفك قدما يظل ما هو من جانبها أى أنه يخاطب من خارج بحكم الجهة إلى أن يقع الأنس بذلك ويتهيأ المحل للقبول، فيقوم له النداء والخطاب من ذاته من غير نظر إلى الأعيان من خارج، واستقرار النادى بها ثبوتها فى الطمأنينة بذلك وقد بين ما ذكرناه فى باقى القصيدة فقال :

وتنصبُ بالأجواز منكَ خيامَها
فما شئتَ من طلٍّ غذاء لِمُنْآدِ

وما شئت من وبل وما شئت من ندىً
سحاب على باناتها رائح غاد

وما شئت من ظل ظليل ومن جنى
شهىّ لدى الجانى يَميسُ بمَيّاد

ومن ناشدٍ فيها زرُود ورملها
ومن منشدٍ حادٍ ومن منشدٍ هاد

يقول إذا ثبت فى مقام الطمأنينة ضربت لها خيام أعمالها بالمقامات العظمى التى عبر عنها بالأجواز ، وقوله : فما شئت من طل ، يريد الشذا والندى ، ، والشذا هو ما نزل من الطل بالنهار والندى ما نزل من الطل بالليل ، وهو ما يتنزل عليه من أوائل المعارف بطريق اللطف فى غيابات الغيب والشهادة ، لأنه لا يدرك نزوله بالحس متى يظهر فى المحل منه القدر الذى يدركه الحس والمنآد الغصن الناعم، يقول: وفيه غذاء للنشأة الإنسانية التى خلقت فى أحسن تقويم واختصت بالحركة المستقيمة على سائر المولدات ،

وقوله : وما شئت من وبل تنزل أعظم فيه شفاء لأن فيه رائحة اشتقاق من الاستبلال الذى هو الشفاء ، فكأنها معارف تزيل جهالات بوجودها فإن المعارف قد تنزل على قلوب ساذجة ما فيها شىء أصلا ، وقد تنزل على قلوب فيها تشكيك وتردد فذلك مرض ، وقد تنزل على قلوب فيها جهالات وهى مصممة عليها على أنها علوم ، فيبين له هذا النزول حاله فيرجع ، وهذا لا يسمى مرضا لأن من شرط المرض الإحساس به ، فيطلب به الدواء رغبة فى الشفاء وهذا لا يكون فى القلوب إلاَّ لأهل التشكيك والحيرة ، وأما المصمم على اعتقاده وشبهته فلا يقال فيه صاحب مرض وإنما هو ميت فهذا التنزيل يحييه كما قال (أو من كان ميتا ـ يعنى بالجهل ـ فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس)[1] الآية ، وقوله : وما شئت من ندى قوله (يسبح له فيها بالغدو والآصال)[2] فهذه تنزلات هذه الأعمال المخصوصة بهذه الأوقات ، لأنها أزمان نزول الندى وهو مقام الجود يمر به سحاب العناية على باناتها اختص البان من غيره لما فيه من إشارة التنزيه والتفرقة والتمييز بين الحقائق ، وأيده بقوله : رائح وهو الرجوع بالعشى والغادى المبكر ، يقول إنه يذهب بكرة ويعود عشية إلى ما منه غدا كما بين الزمانين هو مقدار عمر السالك والحال والمقام ، وإلى الله ترجع الأمور

---

(١) من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية ٣٦ من سورة النور .

وتصير الأمور إشارة إلى هذا المقام وإليه يرجع الأمر كله ، فسمى رجوعا لكونه منه خرج وإليه يعود ، وفيما بين الخروج والعود وضعت الموازين ومد الصراط ووقعت الدواعى وظهرت الآفات وكانت الرسل وجاءت الأدواء فمنهم المستعمل لها والآخذ بها والتارك لها ، قوله : وما شئت من ظل ظليل، إذ ما كل ظل يكون ظليلا لكل مستظل بل لآحاد بقوله إلا صاحب هذا المقام المحمدى الموسوى فإنه يظله كل ظل فكل ظل فهو له ظليل لاستغراقه المقامات كلها ، ويظهر هذا فى موزونات الأعمال بما لها من الثواب كما سبق بلال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الجنة من مداومته على الوضوء من كل حدث والصلاة عقيبه ، وقوله : وما شئت من جنى وهو الاستثمار ، مما يتلقاه الملقى إليه من المُلقى كالمريد من شيخه وأستاذه وكالنبى من الملك وهكذا ما يلقى يكون المناد الملقى الذى هو العلم وما يحمله من المعارف كالثمر فيه والجانى هو المحصل لهذه الثمرات من هذه الأغصان بيد اللطف لا بيد القهر على طريق الألفة لأنه قال شهى عند الجانى لأن فيه نيل الغرض ، وقوله : من ناشد ، الناشد الطالب ، زرود ورملها ، يشير إلى المعارف الشوارد التى لا تنضبط للعالم إلا وقت الشهود خاصة ويقولون ثلاثة رابعهم كلبهم وخمسة وسبعة ، ثم قال : (ما يعلمهم إلا قليل)[1] وهم الخارجون من البشرية إلى عالم الأرواح واللطائف ، وقد تقدم الإشارات

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الكهف.

بالرمل ما هى ، وقوله : ومن منشد حادٍ وهاد ، الحادى هو الذى يسوق الركاب من خلف والهادى هو الذى يقودها من أمام ، فالسائق هو الإشارة للآتى بالزجر والتهديد والرهبوت[١] فهو عبد القهار ، والهادى هو الإشارة للآتى بالرغبوت والأنس والملاطفة والوعد الجميل فهو عبد اللطيف ، فإن الناس يوم القيامة الكبرى إنما هم عبيد الأسماء الحسنى الإلهية ، فمنهم عبد نعمة ومنهم عبد نقمة ومنهم عبد تنزيه وتقديس وما أشبه ذلك ، يقول : فكأن هذه المقامات كلها حاصلة لمن نودى فى هذه الروضة بالوادى المقدس ، فتدبر ما أشير إليه تسعد إن شاء الله تعالى .

* * *

وقال رضى الله عنه

عُجْ بالركائب نحو بَرقة ثَهْمَدِ
حيثُ القضيبُ الرطبُ والروض الندى
حيث البروقُ بها تُريك وميضَها
حيث السحابُ بها يروح ويغتدى

يقول للهادى : مل بالركائب ، والركائب هى الإبل ، وقد يعبر بالإبل عن السحاب كما ورد فى تفسير قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف

---

(١) الرهبوت والرغبوت مبالغة فى الرهبة والرغبة .

خلقت)[١] قيل أراد السحاب ، وهى المرادة هنا فى هذا البيت ، ويدل عليها قوله برقة تهمد فجاء بالبرق ، وتهمد موضع باليمن على ما قيل ، والبرق أبدا عند صاحب هذا القول مشهد ذاتى يذهب بالأبصار لا يكاد يتحقق ، والقضيب الرطب ، نشأة الاعتدال فى جميع الأشياء ، والروض الندى هو المقام الذى يظهر فيه هذا النشء الاعتدالى ، والندى إشارة إلى ما فيه من اللين والجود ، ثم أكد أنه أراد بالسحاب الركائب بقوله حيث البروق بها تريك وميضها ، أى تريك لمعانها فيكون حجاباً عليها ، فكثير من الناس يزعمون أنهم يرون البرق وإنما يرون سنا البرق ، وقد تقدم تفسير : حيث السحاب بها يروح ويغتدى ، وقوله :سحاب على باناتها رائح غادى .

وارفع صُوَيْتَك بالسُّحَيْرِ منادياً
بالبيض والغيد الحسان الخُرْد

من كل فاتكةٍ بطرفٍ أحورٍ
من كل ثانيةٍ بجيدٍ أغيدِ

يقول: السحير لا يكون إلا فى مقام الخطاب بالحروف فى عالم المواد من من حضرة التمثيل والمثال ، وشرطه أن يكون له وجه إلى حضرة الأنوار ووجه إلى حضرة الظلم وهى الحجابان اللذان يمنعان السبحات أن تحرق الكائنات فإن السحَرَ والسُدْفة هو اختلاط الضوء والظلمة ، وأراد برفع

(١) الآية ١٧ من سورة الغاشية .

الصوت هنا البيان بما هو المراد من هذا الخطاب ، هل الوجهين معاً أو وجه واحد ، وقوله : منادياً ، إعلام بالبعد ، والبيض : كل حكمة إدريسية وردت خطاباً من السماء الرابعة يكون فيها من العلوم ما فى الشمس من الحقائق التى أودع الله فيها ، والبيض جمع بيضاء وهو من أسماء الشمس ، والغيد الذى فيه ميل إلى عالم الكون بالأمداد ، أى كل حقيقة لها تعطف بالكون كالأسماء الإلهية ، والحسان يعنى من مقام المشاهدة والرؤية ، وقوله : الخرد هم الذين عندهم الحياء ، وقال عليه السلام : « الحياء من الإيمان » فأراد أنه علم إيمانى أى نتيجة الإيمان ما هو نتيجة الفكر إذ نتيجة الفكر عن مقدمات كونية نازلة ونتيجةَ الإيمان هى وهب إلهى وكشف ربانى ذاتى ولا سيما فى هذا الموضع الذى قرنه مع الحسان وهو مقام المشاهدة ، ثم أخذ يصف أيضاً مراتب هذه العلوم التى استفادها فى طريقه فقال :

* من كل فاتكة بطرف ٍأحورِ *

من كل علم مشاهدة ورد على صاحب الخلوة فحال بينه وبين نفسه فغيبه ، وجعل هذا الطرف الذى دل على المشاهدة أحور والحور فى العين الشديد شديد بياضه الشديد شديد سواده ، يقول : خالص ما فيه شبهة ولا مزج تخلص لمن قام به ، وإن جعله من الرجوع من حار يحور فهو ميل إليه بضرب من المحبة والغنج لتقع به اللذة ويكون أمكن فى العقل فى قلب المشاهد وضرب آخر من العلوم فى قوله من كل ثانية أى عاطفة ، يقول هذه المعرفة والحكمة لها عطف وحنان على من تعشق بها ، ولهذا أكده

بأغيد وهو الميل وذكر الجيد وهو العنق وأراد به عالم النور وهو ما لهم فى ذلك العالم من الطول والفضل على الغير كما قال عليه السلام : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » أى لهم ظهور وتمييز على الناس يعرفون به فإن العنق هو الذى كان محل مجرى النفس موضع التنفس إلى الفم فى الأذان ففيه امتداد فلهذا نسب الطول وجعله أجراً له فى ذلك المحل .

تهوَى فتَقصد كلَّ قلبٍ هائم   يهدى الحسان براشق ومهندِ
تعطو برَخْص كالدِّمقس منعم   بالنَّدِ والمسك الفَتيق مُقرمَد[1]

يقول إن هذه الحكمة لما كانت عالية الأوج سامية المكانة وصفها بالهوى الذى هو النزول من أعلى إلى كل قلب متعلق هائم أى حائر فى طلبها لجهله بمكانها ، ثم وصف هذا القلب بأنه يهوى الحسان وهى هذه الحكم التى ذكرناها من مقام المشاهدة ، وقوله : براشق ، أى تقصده معناه ترميه براشق يريد سهم اللحظ ، ومهند من كونه سيفاً فتصيبه بالراشق وتقطعه عن غيرها بكونه سيفاً ، ونسبه إلى الهند موضع الحكم الأول لأنه محل مهبط آدم عليه السلام الذى كان ينبوع الحكمة فأول موضع انفجرت فيه ينابيع الحكمة كان الهند على لسان آدم عليه السلام ، وقوله : تعطو

---

(١) الرخص — بفتح الراء — اللين الناعم . الدمقس — كهزبر — الإبريسم أو القز أو الكتان ، الند : طيب . الفتيق : المشرق . المقرمد بفتح المثناة وسكون الراء كل ما يطلى به للزينة .

برخص ، يقول تتناول بيد النعمة على هذا العبد والقبول والإشارة لمثل ما ورد فى الخبر : « إن الصدقة تقع بيد الرحمن فيربيها » ثم وصف هذه اليد بالدمقس فهى منزهة عن الشوب بالألوان ، فإن الدمقس هو الحرير الذى ماتصبغ بلون غير لونه الذى خلق عليه فوصفها بالتنزيه ووصفها بالنعومة وهو اللين إشارة إلى يد العطف والحنان والرفق فى التناول ، ثم نعتها بالطيب الخالص والمشوب بغيره وهو الند وجعلها ملطخة به، فهى عبارة عن التخلق بأخلاق الإلهية والأسماء الحسنى ، فإن الند أخلاط من الطيب فالتخلق بها فى حق العبد ، والإشارة هنا بعقرمد أى هى موصوفة بهذه الأشياء المذكورة وكذلك هو قال الله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)[1] وهى فى حق العبد تخلق فاعلم ذلك :

ترنوا إذا لحظت بمقلة شادن يعزى لمقلتها سواد الإثمد

يقول رؤيتها رؤية من لا يحصل فى اليد منه شىء ولكن بعين كلاء أى تنظر فى سواد وهو الغيب الذى لا يدرك ما فيه إلا هو سبحانه ، وأراد بالملاحظة هنا ملاحظة من يدعو قلوب المحبين إلى حسن جماله ، فما أراد اللحظ المطلق فإنه لا يقع به الفائدة فى العالم أصلاً وإنما الفائدة من جانب الحق لعباده بكل ما أعطى التقييد ، فإنه إذا تقيد تميز وتعينت المرتبة وعرف الفرق بينه وبين من لم يحصل له هذا المقام ، وذكر المقلة دون اسم آخر من

---

(١) من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

أسمائها لأن فيها معنى العوض ، وقد جاء فى الحديث فى الذباب إذا وقع فى الطعام « أن يمقل» أى يغمس كله « فإن فى جناحيه الواحد داء وفى الآخر دواء من ذلك الداء » وقوله : يعزى ، يقول تنسب الأشياء إليها ما تنسب هى لشىء فإن الأشياء متعلقة بها .

يالغُنْج والسِّحر القتول مكحّل بالتيه والحسن البديع مقلّد (١)
هيفاء ما تهوى الذى أهوى ولا تف بالذى وعدت بصدق الموعد

يقول إذا تجسدت المعانى فى عالم المثال وظهرت صوراً فى الجسم المشترك كما أخبر عليه السلام من أن « الزهراوين البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة لها لسانان وشفتان يشهدان لمن قرأهما ، ومعلوم حقيقة الكلام وأنه معنى من المعانى جثمانياً كان أو غير جثمانى ، وكالدين فى صورة القيد والعلم فى صورة اللبن والإنسان فى صورة العمد ، فيقع النعت من الناعت والوصف من الواصف لهذا المعنى على هذه الصورة التى يظهر فيها له فى عالم المثال فيوصف بما توصف به الصورة التى يتجلى فيها ، ولما كان الغنج فتوراً فى العين وتوصف العين بالسحر لأنها تحول بين المرء وقلبه ، فكل علم حال بينك وبين ذاتك من جهة الجمال فى رحمة الفناء ونزول الطاف فيشار بهذه الصفة إليه إذا جعلها تجلية فى صورة عين . وقوله بالتيه ومعناه الحيرة أى عند وصفه تحير الناظر فيه عن إدراك حقيقته ، والحسن البديع يزيد الجمال

---

(١) السحر ــ بكسر وسكون الحاء ــ كل ما لطف مأخذه ودق .

وهو بديع عندنا لا فى نفسه كما قال تعالى : (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث)[1] يعنى عندنا لا فى نفسه فهو محدث النسبة لا محدث العين وكنى عنه بالإبداع أى لم يظهر على مثال سبق . وقوله مقلد ، يعم الجنبين وهما العطفان عطف اليمين باليمين واليسار باليسار ، كتقليد السيف والقلادة ومروره على الصدر والقلب فيعطى من أسرارهما ما يختص بها ذلك الموطنان وكان فيه اعتصام فإنه قد عم الجنبين والظهر والصدر ، ولا يؤتى على الإنسان إلا من هذه الجهات الأربع وهو الذى قال إبليس حسبما أخبر الله تعالى به عنه : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم)[2] ، فهذا هو تقليد العصمة لأن الحسن البديع مشغل للناظر فيه عن نفسه وعن سواه فيعتصم بلاشك ، وقوله : ما تهوى الذى أهوى ، يقول : لا تتقيد بإرادة أحد لنزاهتها وعلو مجدها ومكانتها ، فإن اتفقت الإرادات منى ومنها ، فمن حيث أثرها فى ، لا من حيث أثرى فيها ، وقوله : ولا تف للذى وعدت بصدق الموعد ، يصفها بالعفو والكرم والتجاوز ، فإن الوعد هنا يريد به الوعيد بالشر فإن العرب تقول وعدته فى الخير والشر ، ولا تقول أوعدته إلا فى الشر خاصة ، فأراد بالوعد هنا الشر والكريم يوصف بالوفاء والخير وخلف الوعد بالشر للتجاوز والعفو ، كما قال :

---

(١) من الآية ٢ من سورة الأنبياء . (٢) من الآية ١٧ من سورة الأعراف .

وإنى إذا أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

فمدح نفسه بالعفو والتجاوز ، وذلك من الكرم العميم والفضل الجسيم .

سحبت غديرتها شجاعاً أسودا لتخيف من يقفو بذاك الأسودِ

والله ما خِفْتُ المنونَ وإنما خوْفى أموتُ فلا أراها فى غد

يقول بلسان الأدب : إن هذه الجارية أرسلت ضفيرة شعرها خلفها مثل الحية لتخيف بذلك من يقفو أثرها ، فقال هذا المحب : ما خفت من الموت وإنما أكره الموت من أجل إن مت فلا أراها .

القصد من ذلك فى باب المعرفة ، يقول : إن هذه المعرفة أرسلت غديرتها يعنى الدلائل والبراهين ، وشبهها بالضفيرة لتداخل المقدمات بعضها فى بعض كتداخل الضفيرة ، وجعلها سوداء إشارة إلى عالم الجلال والهيبة ، فيخاف السالك أن تحرقه سطوات أنوار الهيبة فيتوقف ، ثم نبه فى البيت الثانى بقوله : وما خوفى من الموت ، وإنما خوفى أن يفوتنى ما بعده من المشاهدة المتعلقة بهذه النكتة المتغزل فيها ، فتوقفت حتى أحصل من القوى الإلهية والبواعث الربانية ما أقابل به هذا التجلى الجلالى .

* * *

وقال رضى الله عنه

سُحَيْرًا أناخوا بوادى العقيق وقد قطعوا كل فَجٍّ عميق

فما طلع الفجر إلاّ وقد رأوا عَلَمًا لا يخافون نِيق[1]

يقول : إن أهل هذه المعرفة لما أدلجوا فى معارجهم ، وسَرَوْا لنيل مقاصدهم ، وقطعوا كل مسلك بعيد فى نفوسهم بالسفر البعيد الذى ندبهم الحق إليه ، وأمرهم فى قوله : (ففِرُّوا إلى الله)[2] ، وذمّ من يتربص عن هذا السفر بقوله : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم)[3] الآية إلى قوله : (أحبّ إليكُمْ مِنَ اللهِ ورسولهِ وجهادٍ فى سبيلهِ فتربصوا)[4] ، فجعل البركة فى الحركة منه ، وإليه نزلوا فى السحر نزول المسافر إذا أدلج ليستريح ، وتسمى تلك النومة العسلية لما فيها من اللذة ، فهو نزولهم للاستراحة فى آخر طريق معرفة ما أودع الله فى ليل هيا كلهم من الحكمة المتعلقة بالحقائق الإلهية ، وجعل السحر موضع الفصل بين هذه الحقائق الليلية الهيكلية وبين حقائق الأرواح النورية المعبر عنها بالملأ الأعلى فأناخوا فى هذا المقام ، وهذا يسمى الوقوف ، ولم يسلك سلوكاً آخر لتحصيل فوائد أخر ، فإن الله تعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : (وقل ربّ زدنى علماً)[4] ، وجعل الإناخة بمطايا الهمم فى وادى العقيق الذى

---

(١) العلم : الجبل ، النيق — بكسر النون — أرفع موضع فى الجبل .

(٢) الآية ٥٠ من سورة الذرايات .

(٣) الآية ٢٤ من سورة التوبة .

(٤) من الآية ١١٤ من سورة طه .

هو موضع الإحرام بالحج والعمرة ، فجعله مناخ حرمة محمدية لأنه ميقات أهل المدينة الذين نبه عليهم بلسان الإشارة أن لا نهاية لما يطلبون ، فليرجعوا ، فإن رجوعهم سفر لاقتناص علوم لم ينالوها فى العروج فما لهم غاية يقفون عندها ، وللتنبيه فى ذلك بهم قوله تعالى : (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا)(١) ، وأهل يثرب هم المحمديون من العارفين ، ولكن من باب الإشارة بالآية ، لا من باب النص والتفسير ، فلا نغلط فيما أشرنا إليه فى ذلك .

ثم قال : لما أخذوا تلك الراحة فى السحر طلع الفجر ، أى ظهر الأمن من عالم الأمر الناظرى ، ولكن ظهور علم من ذلك ، أى إشارة دليل ، ولكن فى محل النفع والرفعة ، وهو النيق .

يقول : فما ظهر لى فى عالم الأمر لنفسه ، وإنما لاح لى علماً ، أى دليلاً على ما يناسب ذلك الإبداع اللطيف من الحقائق الإلهية ، والجبل المذكور هنا فى هذا البيت الذى هو العلم عليه ، وهو الجسم ، وذلك هو الروح ، أى ظهر له فى عالم الأمر من نفسه فإنه أتم فى المعرفة .

إذا رامَهُ النَّسْر لم يستطع ‏ ‏ ‏ ‏ فمن دونهُ كان بيض الأنْوَق

---

(١) الآية ١٣ من سورة الأحزاب .

عليه زخارف منقوشـــــةٌ رفيع القواعد مثلُ العَقُوق

يقول : الأنوق الرخم ، والعقوق قيل : هو قصر عظيم فوق جبل عالٍ ، وقيل غير ذلك ، وقوله : إذا رامه النسر لم يستطع ، إشارة إلى الروح البرزخى الذى هو أقرب إلى الملأ الأعلى من غيره من الأرواح المدبرة ، يقول : هذا العلم الذى لاح له لا يستطيع الرقىّ إليه هذا الروح المكنى عنه بالنسر والأنوق ، لما لم يكن فى الطير من يفرخ فى موضع أعلى منه ولا أحمى خوفاً على بيضه ، كانت العرب تضرب به الأمثال فى كلامها لعلوه وارتفاعه ، وكنى عنه بالبيض أى صفة النتاج التى تكون عنه هذه الأرواح البرزخية ، ثم وصف العلم بأن عليه زخارف منقوشة ، يريد بها التجلى بالخلق الإلهية ومنقوشة ثابتة ، وشبهه بالعقوق لارتفاعه وعلوه .

وقد كتبوا أسطراً أودعوها ألا من لِصَبٍّ غريبٍ مشوق
لهُ هِمَّـــةٌ فوق هذا السِّماك ويُوطأ بالخف وطء الحريق
ومسكنه عند هذا العُقَاب وقد مات فى الدمع موت الغريق

شرحه بلسان الأدب يقول : هذا العاشق إن همته على علوها أنزل عن الحب عليه وسلطانه عليه من الذل أن يوطأ بالخف ، ثم تغالى فى ذكر كثرة دموعه أنه مات غريقاً فيها مع سكناه فى هذا الموضع .

المقصد : يقول وقد كتبوا أسطراً أودعوها ، يريد الكتابة الإلهية

من « كتب ربكم على نفسه الرحمة »[1] بكم فى مقام العزة الأحمى ، وقوله :
ألا من لصب ، يريد مائل إلينا بالمحبة غريب من قوله عليه الصلاة والسلام :
« فطوبى للغرباء من أمتى » ، والغربة مفارقة الوطن ، ووطن الكون عبارة
عن وجوده لربه وغربته نزوحه عنه إلى وجوده لنفسه مع مفارقة العين
لا بد من ذلك ، وقد أشرنا فى المفاريد لنا فى هذا المعنى بقولنا :

إذا ما بدا الكونُ الغريبُ لناظرى
حننت إلى الأوطان حنّ الركائب

وقوله : مشوق ، طالباً للقاء المحبوب بضرب من الهيجان ، وقوله :

* له همة فوق هذا السماك *

يقول : إن همته فوق الكون ، أى لا تعلق لها به ، ولكنه مع هذا
يوطأ الخف إشارة إلى ما ندب إليه من التواضع طلباً للرفعة فى قوله عليه
الصلاة والسلام : « أى من تواضع لله ، أى من أجل الله ، رفعه الله » ،
وقوله : ومسكنه فوق هذا العقاب ، البيت ، يقول : وإن كان محله
فى هذا الوقت من الرفعة ، بمثل ما وقعت به الكناية فى عالم الأجسام ،
فإن المعارف المشهدية من باب الحب قد طمى سيلها حتى غطى هذا المقام
الأحمى على رفعته عن هذا المقيم فيه ، وأفناه عن مشاهدة نفسه بهذا المشهد
فكنى عنه بالغرق والموت .

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة الأنعام .

قد أسلمه الحب للحادثات   بهذا المكان بغير شفيق

يقول : قد أسامه مقام الصفاء للحادثات ، فإن البلاء إنما يرد على الأمثل فالأمثل ، وقوله : بهذا المقام ، يعنى المقام الذى تقدم ذكره ، وقوله : بغير شفيق ، أى ماله مؤنس هناك إلا عارف مبتل مثله فشغله بنفسه لسروره بذلك ، أو صبره يحول بينه وبين رؤية غيره بحكم الشفقة أو شبهها .

ثم قال :

فياواردين ميـاه القليب   ويا ساكنين بوادى العقيق (١)

ويا طالبا طيبة زائراً   ويا سالكين بهذا الطريق

يقول : يا أهل الحياة المنشأة من الأعمال ، يريد حياة العلم من قوله تعالى (أومن كان ميتاً فأحييناه) (٢) وقال : (وجعلنا من الماء كل شىء حى) (٣) وجعله مكتسباً من أجل أنه نسبه للقليب وهو البئر ، وللإنسان فيه تعمل وهو حفره لاستخراج الماء .

ثم خاطب القطان بوادى العقيق ، وهم الذين اكتسبوا العلم من الحرمة

---

(١) القليب : البئر قبل أن تبنى بالحجارة . العقيق : الوادى الذى شقه السيل ، وهو اسم لعدة مواضع ، منها العقيق الأعلى عند مدينة النبى صلى الله عليه وسلم مما يلى الحرة إلى منتهى البقيع وهو مقابر المدينة .

(٢) من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .

(٣) من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء .

التى قامت للحق بقلوبهم ، وأشار إلى الوادى لأمرين : لانخفاضه يريد التواضع ، ولأنه مسيل الماء فهو مسيل الحياة العلمية ، وإنما قالنا لا ميقات المحرمين بالحج والعمرة ، ثم خاطب طلاب المقامات اليثربية باسم طيبة من طاب يطيب ، وقوله : « طوبى لهم » هو من ذلك . وقوله : زائراً ، أى مائلا إليها لعلمه بشرفها على غيرها لأنه الميراث الأكمل .

ثم خاطب السالكين وهم أهل السلوك بهذا الطريق ، يريد الصراط المستقيم الذى قال فيه تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتَّبِعوه ولا تَتَّبِعوا السُّبل)[1] فخاطب أربعة أصناف من الخلق ، لأرفع مقامات فقال لهم :

أفيقوا علينــــا فإنا رزئنا بُعَيْدَ السُّحَيْرِ قُبَيْلَ الشروق

يقول : لا تشغلكم أحوالكم التى أضعفتكم وأفنتكم عن أن تفيقوا للنظر من حالنا ، لتعلقنا بكم وطلبنا المعونة على ما نحن بصدده بهمتكم ودعائكم وقوله : فإنا رزئنا ، من الرزية ، يقول : أخذنا عنا[2] ولم نصل إليه وصول من حصل بيده المسكانة لعزته ، وقوله :

* بعيد السحير قبيل الشروق *

وهو زمان العروج من النزول الإلهى إلى سماء الدنيا فى الثلث الأخير من

---

(١) من سورة الأنعام الآية ١٥٣

(٢) أى عن أنفسنا .

الليل فى طلوع الفجر ، يقول : انقضى الوقت ولم نحصل على المطلوب ، وجعل ذلك رزية فقال :

بيضاء غيـــداء بهتانة تضوع نشراً كمسك فتيق

يقول : رزئنا بفقد بيضاء أى فيها شك ، يريد هذه الصفة الذاتية التى هى مطلوبة ، وقوله : غيداء ، يقول مع كونها جليلة القدر لها ميل إلينا وهو النزول الذى ذكرناه ، ومع هذا فلا نحصل منه ما يضبطه علم ، أو عقل ، أو وهم ، أو خيال ، والبهتانة : الطيبة الريح .

يقول : إن لهذه الصفة فى قلوبنا طيباً ونشراً ، يقول : وإن لم نشهد ذاتها فإن لنا منها ما لنا من المسك رائحة ، وإن لم نشهد عينه ، وهى هذه الآثار الإلهية التى فى قلوب العباد ، غير أن كل واحد ليس له مشم لإدراك ما هى عليه من العطرية والنشر الطيب ، وشبهها بالمسك لأنه أطيب الطيب ، ولا سيما إذا كان مفتتاً فهو أطيب وأليق بالمشام الإنسانية ، ولو كان ثم ما هو أطيب من تلك الرائحة أوقع التشبيه به فقال :

تمايل سكرى كمثل الغصون تنتها الرياح كمثل الشقيق

يقول : تمايل سكرى ، أراد تمايل وهو النزول كما ذكرناه ، وقوله : سكرى يشير إلى مقام الحيرة لأن السكران حيران ، فإن الميل إلينا لا يكون إلا بقدر ما يقع به التفهم عندنا مما يناسب ، كأحاديث الضحك والفرح والتبشيش وما أشبه ذلك .

وقوله : كمثل الغصون ، لأنها محل الثمر ، أى ميلها للإفادة ، وقوله : ثنتها الرياح ، أى أمالتها الهمم بطلبها إياها ، فإنه تعالى يقول : (ادعونى أستجب لكم)[1] ، و « من تقرب إلى شبراً تقربت منه ذراعا » فقربك شبراً أدى تقريبه إليك ذراعا ، شبراً لشبر جزاء وللشبر الآخر جزاء ، والشبر الآخر الزائد للمنة الإلهية والفضل الخارج عن الكسب ، وقوله : كمثل الشقيق ، وهو الحرير الخام الذى لم تدخله صنعة الآدمى يقول : أى أنها على ماهى عليه .

بردف مهول كدعص النقـا ترجرج مثل سنـــام الفتيق

يشير إلى ما أردفه من النعم المعنوية وغير المعنوية على عباده ، وقوله : مهول ، فمن فكر فى ذلك عظم عليه وهاله ما أردفه سبحانه من جسيم مننه التى لا طاقة للعبد على القيام بشكرها ، وشبهها بكثيب الرمل لارتكاب بعضها على بعض وتصرفها وكثرتها وتميز بعضها من بعض كما تنفصل دقيقة الرمل من الرمل ، أى لا تمزج فتختلط فلا تعرف .

ثم شبه حركتها فى قلوب العارفين بها مثل سنام الجمل العظيم فى الرفعة والسمن ، فإنه دهن كله ، والدهن مد الأنوار للبقاء ، فكذلك هذه العلوم إذا قامت بقلوب من قامت بها ، أورثتها البقاء الأبدى فى النعيم الأبدى .

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة غافر .

فما لا لامنى فى هواها عَذول   ولا لامنى فى هواها صـديق

يقول : لا تساعها لا تتعلق غيرة العباد بها لأنها مع كل أحد كالشمس لو اتفق أن تهواها القلوب لقطعت يأسها من مماسة ذاتها لنزاهتها وعلوها عن مقام مجيئها ، ولنالت منها مقصودها بمجرد النظر على الانفراد لأنها متخيلة لـكل عين ، فلهذا لا تصح الغيرة ، على محبوب بهذه الصفة ، فإن المصلى يناجى ربه ، وكل شخص فى رؤيته على انفراده يناجى ربه بقلبه فلا يقع فى ذلك ازدحام ، فلا غيرة ، فلا لوم من عاذل ولا من صـديق أصلا ، ثم قال :

ولو لامنى فى هواها عـذول   لـكان جوابى إليـه شهيق

يقول : ولو تصور اللوم من أحد إلىّ فى حبى إياها لـكان جوابى الإعلان بالبكاء والزفير ، يريد أن الحال منى محبة بأنى لا أسمع عذلك فيما جئت به .

ثم قال :

فشوق ركابى وحـــزنى لباسى

ووجـــدى صَبوحى ودمعى غَبوقى

يقول : فشوق ركابى إليها وهو الذى ينزلنى عليها بقول الحق تعالى : « أين المشتاقون إلى أنزههم فى وجهى ، وأرفع لهم الحجاب حتى يرونى

فطوبى لهم ثم طوبى »[1] . ما أحسن تلك المناظر العـلى بالمقام الأجلى والمـكانة الزلفى .

ثم قال : إن وجدى وغذائى الذى هو سبب حياتى ، والصبوح شرب الغداة ، والغبوق شرب العشى ، ولهم رزقهم بكرة وعشياً ، كما للمحجوبين النار يعرضون عليها غدواً وعشياً .

* * *

قال : وأنشدنى بعض الفقراء بيتاً لا يعرف له أخا وهو :

كل الذى يرجـــو نوالك أمطروا

ما كان برقك خلبـــاً إلا معى

قال : فأعجبنى وقفوت معناه ، فعملت أبياتاً فى هذا الروى وضمنتها هذا البيت بكماله إجابة لذلك الفقير رحمه الله فقلت :

قف بالطلول الدارسات بلعلع واندب أحبتنـا بذاك البلقع[2]

الطلول : أثر منازل الأسماء الإلهيه بقلوب العارفين هنا ، والدراسات

---

(١) يعنى ذلك فى الجنة جعلنا الله منهم بفضله وكرمه ومنه سبحانه وتعالى : لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وإنـكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » ، أخرجه البخارى ومسلم .

(٢) اللعلع : السراب ، واسم جبل .

المتغيرة بالأحوال لا نتقالها من حال إلى حال بسبب تولعها ، واندب يقول :

وابك أحبتنا ، يعنى الأسماء الإلهٰية بذلك البلقع ، يعنى قلبه المنعوت بالتجريد وإفراغها من السكان الذين كانوا عمروها ، وهى الخواطر الإلهية والملكية خاصة .

قِفْ بالديار وناجها متعجباً منهـا بحسن تلطفٍ بتفجع

يشير بالديار إلى المقامات ، وقوله : نادها متعجباً لعدم النازل فيها مع مايراه من حسنها وبهائها وقوله بحسن تلطف بتفجع ، يقول يستنزلها فيها مع مقام اللطف بحال المكلف بها الحزن لها لمـا هى عليه من عدم النازل ، ثم أخذ يذكر ما قال لها :

عهدى بمثلى عند بانك قاطفاً ثمر الخدود وورد روضٍ أينع

يقول : كم شهدت من محب مشتاق بروضك ، يقطف من ثمار معارف القيومية ، يعنى التخلق بها ، فإن أصحابنا اختلفوا فى التخلق بالقيومية ، ومذهبنا التخلق بها ، ومذهب ابن جنيد القبر كفنى واتباعه لا يصح التخلق بها ، وقوله : وورد روض أينع ، ما تحمله الوجنات من الحمرة يشير إلى مقام الحياء ، وقوله : أينع يريد أنه نتيجة مراقبة ومشاهدة طرا بطروها ، كما قال الجناب الإلهى : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) ، أى عندنا لطروه فى وقت نزوله ، وإن كان قبل ذلك موجوداً لـكن ليس عندنا ، ثم ذكر البيت الذى ضمنه فى هذه القصيدة :

كل الذى يرجو نوالك أمطروا ما كان برقُكَ خلباً إلاّ مَعِى

يقول : كل من طلب منك أمراً ناله غيرى ، وذلك لعدم العناية ، وفيه أيضاً إشارة فى حق نفسه إلى مقام عالٍ ناله لم ينله أحد غيره من أمثاله ، لأن البرق مشهد ذاتى ، فإذا أمطر فهو ما يحصل فى قلب المشاهد من المعارف التى تثمر ، فنبه على أنه مشهد ذاتى فى حجاب ممثل ، كما قال فى حق جبريل عليه السلام : (فتمثل لها بشراً سويًّا)[1] ، فأفادها عيسى بهذا التمثل ، كما أفادها ولاء بالمطر فى المشهد البرقى فنون المعارف إلاّ أنا ، يقول : فإن برقك خلب ، أى ليس يتحصل من هذا المشهد الذاتى علم فى نفس المشاهد ، لأنه تجلى فى غير صورة مادية ، فلم يكن للخيال ما يضبطه به ، فلم يكن للعقل ما يعقله ، إذ لا يدخل تحت كيف ولا كم ولا حال ولا نعت ولا وصف ، لـكنه فى المقام الأول أليق بالعاشق ، والمقام الثانى أتم للعارف ، ثم أخذ ينبه على شرح المقام الأول أن التجلى إنما كان فى الحجاب الممثل فقال :

قالت نعم قد كان ذاك المُلتقى فى ظلّ أفنانى بِأَخْصَبِ موضع
إذ كان برقى من بروق مباسم واليوم برقى لمع هذا اليرمع

يقول : قد قالت له هذه الصفة التى تجلت له : صدقت قد كان ذاك الملتقى مع المحبين من أمثالك وأشباهك فى ظلّ أفنانى ، أى فى رحمة عواطفى ،

---

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم .

بأكثر علم نافع بمقام تشبيه ، وإن كان قدسيًّا ، إذ كان برقى يقول : إذا كان التجلى منى فى صورة مثالية حسنة جميلة من مقام الابتهاج والسرور بظهور المباسم التى عنها ظهر هذا التجلى فهو سبحاتها دائمًا معك ، فالتجلى فى صورة جمادية فإن اليرمع حجارة براقة ، وهى فى العادة غير معشوقة ، يقول : فتجلت لك فى مقام لا يتقيد بالمحبة والعشق لأنه لا صورة له .

فاعتب زمانًا ما لنا من حيلة   فى دفعه ما ذنب منزل لَعلَع

يقول : لا عتب إلاّ على الزمان ، يعنى الحركات الفلكية الجارية بفراق الأحباب ، يشير إلى قوله تعالى : (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر)[1] ، وهو الهرم الكائن عن مرور الأزمان ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا ، وهو فراق الأحبة ، أى أن المعارف محبوبة له وقد حال بينه وبينها كرور الأدوار فلا ذنب للمحل وإنما هو الذى أخلقه بعد جدته .

فَعَذَرْتها لما سمعت كلامها   تشكو كما أشكو بقلب مُوجَع

يريد قوله تعالى على لسان نبيه : « ما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له من لقائى » يريد أن ما سبق بكونه العلم ، ولا بد من كونه فتفطن لما أشرنا ولنا فى هذا المعنى :

يحن الحبيب إلى رؤيتى   وإنى إليه أشـــد حنينا
وتهوى النفوس ويأبى القضا   فأشكو الأنين ويشكو الأنينا

---

(١) من الآية ٥ من سورة الحج .

وسألتها لما رأيت رُبُوعَها مَسْرَى الرياح الذاريات الأربع

يقول : وسألتها لما رأيت ربوعها ، يعنى المحل ، تخترقه الأهواء الأربعة الجنوب والشمال والصبا والدبور ، ويشير إلى ما يأتيه من الأهواء من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، يريد عالم الأنفاس والأرواح التى تنسمت من هذه الجهات من منازل الأسماء الإلهية .

هل أخبرتك رياحهم بمقيلهم قالت نعم قالوا بذات الأجْرع

حيث الخيام البيض تشرق للذى تحويه من تلك الشموس الطُّلَّعُ

يقول : هل أخبرتك هذه النسمات الإلهية حيث قالوا ، يشير إلى مشهد قوله عليه الصلاة والسلام : « ترون ربكم كما ترون الشمس بالظهيرة » وهو وقت القيلولة ، ويؤيد ذلك قوله : قالوا بذات الأجرع ، أى لما فيه من تجريع الغصص بقوة سلطانه على المحل فيلجون خوف الاحتراق من سبحات الأنوار إلى الخيام البيض ، يريد الحجب النورانية التى على السبحات الوجهية ، قال : وأنوار هذه الخيام ليست منها ، وإنما هو مما تحته من شموس المعارف بآفاق قلوبهم ، فمن ذلك إشراقها وبياضها .

* * *

وقال رضى الله عنه

واحربا من كبدى واحربا واطربا من خَلَدِى واطربا

فى كبدى نار جوى محرقة فى خَلَدِى بدر دجى قد غربا

لما كان الخلد محل شاهد الحق القائم به قال : واطربا لسروره

بما شاهدته وبين البيت الثانى ذلك لأنه مفسر له فقال : فى كبدى نار جوى محرقة ، يشير به إلى الاصطلام ، والحرب الذى يشكو منه هو خوف التلف على نفسه بفساد هذا الهيكل الذى بواسطته اكتسب العلوم الإلهية ، وإن كان أكثر النفوس تطلب التجرد منه والالتحاق بعالمها البسيط ، ولكن عند المحققين إنما تطلب التجرد عنه حالاً وفناء لا نفصال علاقة لما لها بوجوده من المزيد فيما هى سبيله ، فلهذا شكا الحرب ، وقوله : فى خلدى بدر دجى ، الدجى إشارة إلى الغيب فإنه الليل ، وهو محل الستر ، والغيب ستر ، وقوله : قد غربا ، رجح جانب الستر على جانب الكشف ، أى غرب عن عالم الحس وطلع فى الخلد بدراً يريد كامل النور إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » صفة كالية .

يا مسكُ يا بدرُ ويا غصنَ نقـا
ما أورقا ، ما أنـــورا ، ما أطيبا

سماها مسكاً لما تعطيه من الأنفاس الرحمانية اليمنية لإظهار العلوم المحمدية وسماها بدراً لما توصف به من الكمال وما ينسب إليها مما يليق بها فى اعتقاده العلم بما لا يليق بها من التنزيه والتقديس بمنزلة الكسوف والنقص الذى يطرأ على البدور ، وذلك راجع إلى شاهد الحق فى قلب كل أحد بحسب ما هو الشاهد عليه لاقتضاء دليله واعتقاده أو إلهامه ، وليس

الاستمداد الذى فيه من النور الشمسى لمصالح الكون ، فشاهد الحس فى قلب العبد مستمد من النور الالهى الذاتى ، وسماه أيضاً بدراً لكونها مرآة لمن تجلى فيها ، وهو من باب ظهور الحق فى الخلق وبالعكس أيضاً ، وسماها غصن نقا للصفة القيومية التى لها أوصاف القيومية منها إلى النقا الذى هو كدس الرمل يحد بين الوصل ، وهو المعنى الذى أظهر فيه هذه الصفة القيومية ، وظهرت فيه وبما فيه من العلو والنشر على الأرض لما فيه من التنزيه عن مراتب الكون وبما يطرأ على النقا من ذهاب الرياح به عند هبوبها هو ما تعارضه هذه العلوم الرملية من الأهواء النفسانية فى أوقات ما وتلك أوقات الغفلات ، مثلا كمن يعلم قطعاً أن الله هو الرزاق وأنه وقد سبق علمه بأن ما هو لك ليس لغيرك فتأتى الأهواء النفسانية بالخواطر الطبيعية فتحول بينك وبين هذا العلم ، فتضطرب عند الفقد وتسعى فى طلب ما قد فرغ لك منه فهذا هو ذلك وقوله : ما أروقا ، يريد ما يلبسه غصن القيومية من الأسماء الالهية التى بها تجمله فى قلوب العباد كما أن الأوراق ملابس الأغصان . وقوله : ما أنورا يريد البدر من قوله : (الله نور السموات والأرض)[1] والمثل المثلُ . وقوله : ما أطيبا يريد المسك وهو ما تعطيه الأنفاس التى ذكرناها من المعارف والأخلاق الالهية لهذا العبد المتصف بها .

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة النور .

يا مَبسماً أحببت منه الحَبَبَا ويا رُضاباً ذقت منهُ الضرَبا[1]

يشير إلى ما أراد عليه السلام بقوله : « إن الله يضحك » حتى قالت العرب لا عدمنا خيراً من رب يضحك ، وشبه المبسم بالحبب وهو ما يظهر على وجه الماء وهو راجع إلى ريح والماء سر الحياة فهو ما يظهر على الحياة الالهية من العلوم الرحمانية عند هبوب الأنفاس كما قال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه)[2] يريد العلم من الجهل وقوله : (وجعلنا من الماء كل شيء حي)[3] فهذا ذلك . وقوله : ورضاباً يشير إلى علوم الهوانية والمناجاة والكلام والحديث والسمر ، ولكن من العلوم التي تعقب اللذة في قلب من قامت به ، فإنه ما كل علم يكون عنه لذة . والضرب هو العسل الأبيض فشبه الرضاب به للحلاوة والبياض كما شبه النور الإلهي بنور المصباح وإن بعدت المناسبة ولكن اللسان العربي يعطي التفهم بأدنى شيء من متعلقات التشبيه .

يا قمراً في شفق من خفرٍ في خدّه لاح لنا منتقبا

شبهه بالقمر وهي حالة بين البدر والهلال فهو مشهد برزخي مثالي صوري

---

(١) المبسم بكسر السين الثغر رضب ريقها بفتح الأول والثاني رشفه والضرب بفتحتين العسل الأبيض .

(٢) من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .

(٣) من الآية ٣٠ من سورة الانبياء .

بضبطه الخيال والشفق هنا الحمرة من أجل الخفر الذى هو فى الحياء ، والحياء يعطى الحمرة فى الخدود والله حى ، كما أخبر عليه السلام ولما كانت حمرة الخفر فى الوجه لذلك ذكر الخدود دون غيره . وقوله : لاح لنا منتقباً ، الإشارة إلى ما أشار عليه السلام بالحجب الالهية النورانية الظلمانية وسيأتى فى البيت الثانى معنى ما ذكرناه ، ثم قال :

لو أنهُ يسفر عن بُرقعه كان عذاباً فلهذا احتجبا

الاشارة بالأسفار والعذاب والحجاب ، للاشارة إلى قوله عليه السلام إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها أحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره وهو مشهد عظيم نزيه لا يبقى أثراً ولا عيناً ولا كوناً فما احتجب إلا رحمة بنا لبقاء أعياننا فإنه فى بقاء عين الكون ظهور الحضرة الالهية وأسماؤها الحسنى وهو جمال الكون فلو ذهب لم تعلم ، فبالرسوم والجسوم انتشرت العلوم وتميزت الفهوم وظهر الاسم الحى القيوم، فسبحان من أرسل رحمته عامة على خلقه وكونه لشهود صفته وعينه .

شمس ضحىً فى ذلك طالعةٌ غُصْن نقا فى روضة قد نُصبا

قوله شمس ضحى يريد وضوح التجلى عند الرؤية ، والفلك عبارة عن الصورة التى يقع بها التجلى وهى تختلف باختلاف المعتقدات والمعارف ، وهى حضرة التبدل والتحول فى الصور وهذه القوة الإلهية والصفة الربانية تظهر أعلامها لأهل الجنان فى سوق الجنة الذى لا بيع فيه ولا شراء وقد يصل إلى هذا

المقام هنا بعض العارفين كقضيب البان وغيره فى الصورة الحسية ، وأما فى الصورة الباطنة فهى أحوال الخلق كافة، وأراد بطلوعها ظهورها لعين المشاهد وقوله : غصن نقا فهى الصفة القيومية ، فى روضة يريد روضة الأسماء الإلهية لا روضة العلوم . وقوله : قد نصبا ، إشارة إلى التخلق بهذه الصفة خلافاً لابن جنيد وغيره ممن يمنع التخلق بها ، وأجمعنا على التحقق إلاّ أنى أمنع إدراك التحقق بالشىء إذا امتنع التخلق به ، إذ التخلق بالشىء هو الدليل الموصل إلى التحقق به ، وما لا يتخلق به فلا يتحقق أصلاً ، إذ لا ذوق يدركه لكن قد نعلم علم علامة أو إشارة لا علم ذوق وحال ، وقوله : قد نصبا ، كأنه يفهم منه أن نصبه أثر فيه وليس كذلك ، وإنما كشفنا هذا الرأى له فى هذه الروضة بعد أن لم يكن له كاشفاً هو نصب فى حقه ، كما قال تعالى : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)[1] يعنى عندهم لا فى نفس الأمر ، كما يحدث الآن خبر عندنا من الملك ، وكان قد تكلم به منذ شهر مثلاً لحدوثه الآن عندنا لا فى نفس الأمر .

ظِلْتُ لها من حذر مُرْتَعِباً وَالغُصْنُ أسقيه سَماءً صيّباً

يقول : لما كانت عزيزة المنال ، لا تتقيد بالمثال ، خفت من الحجاب بالمثال من الالتفات الغرضى النفسى ، فصرت أشهدها فى كل شىء وقبل

---

(١) من الآية ٢ من سورة الأنبياء .

كل شيء من حيث تعلق ذلك الشيء بها فى ثبوته قبل وجوده لا من حيث هى مجردة عن تعلق التشبيه بها ، ومن كونها غصناً أسقيه سماء يريد مطراً وغيثاً إشارة إلى ما تكون به الحياة العرفانية ، وصيباً نازلاً من أعلى ، يشير إلى أنه يأخذ من العلو منّة وفضلاً لا كسباً وتعملا ويسقيه ليثمر عنه ما تعطيه قوته من المعارف المحمولة فيه .

إن طلعت كانت لعَيْنِي عجباً أو غربت كانت لحَيْنِي سببا

إن طلعت كانت اعينى متعلق بطلعت ، والعجب الذى يقع منه حيث أدرك الخسيس على خساسته النفيس على نفاسته ، ولكن يسهل هذا الأمر عند من وقف عند قوله تعالى : (كنت سمعه وبصره) فما أدركه سواه ولا سمع كلامه غيره ، قال تعالى : (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ولا هم يسمعون)[1] ، ولما غاب هذا القائل عن هذا المشهد ، لذلك ذكر هذا ، وقد يريد بقوله فإن كنت فى شك وهى لا تطلع فلا يكون عجباً وقوله : أو غربت كانت لحينى سبباً ، ينبه على صفة عشقية يموت للفقد شوقاً ، كما ذكره المحبون فى كلامهم .

مذ عقد الحُسْن على مَفرَقها تاجاً من التِّبْرِ عَشِقت الذهبا

الحسن مشهد عينى فى مقام الفرق التى تميز فيها العبد من الرب ،

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الأنفال .

وهو الفرق الثانى المطلوب ، وهو أعلى عند المحققين العارفين بالله من المقام فى عين الجمع ، فإن الجمع على الحقيقة إذن بالتفرقة ، فإنه يؤذن بالكثرة ، ولا كثرة فى العين ، فهو راجع إلى جمعك به عند أخذك منك ، وقوله : تاجاً ، زينة إلهية خارجة عن مقام الاستواء ، والذهب صفة كمال لكمال مراتب المقامات ، فإن الذهب حاز صفة كمال الاعتدال ، وهو أشرف المعادن ، وجعله تبراً ، أى لم تدنسه أيدى الكون بالتخليص ، فإنه فى تبره أشرف فى حقنا ، لأن ظهوره لنا بنا هو الذى يصح ويوجد ، وأما ظهوره لنا به فلا يصح ، فالطمع فى غير مطمع جهل ، وجعله عشقاً من العشقة للعلاقة التى بين العبد والرب فى الدقيقة التى ينزل فيها إلى قلبه بالمعرفة .

لو أن إبليس رأى من آدم نور محيَّاها عليه ما أبى

قيل لإبليس : اسجد لآدم ، فغاب عن لام الخفض التى هى إشارة إلى لام الإضافة ، واحتجب العلم عنه بذكر آدم ، فلو رأى اللام من قوله لآدم لرأى نور محيّا هذه الذات المطلوبة لقلوب الرجال ، فما كانت تتصور منه الإباءة عما دعاه إليه ، فاحتجب إبليس واستكبر بنظره إلى عنصره الأعلى عن عنصر آدم الترابى ، فلما رأى الشرف له امتنع عن النزول للأخسّ ، وما عرف ما أبطن الله له فيه من سبحات الأسماء الإلهية والإحاطة .

لو أن إدريس رأى ما رقم الـــحسن بخـديها إذاً ما كتبا

إدريس : من الدرس ، وهو العلم المـكتسب مقـام أيضاً شريف ، يقول : لو أن صاحب العلم النظرى الإلهى رأى ما كتبه بالرقم العيانى الإلهى بوجه هذه الصفة المطلوبة ما طلب اكتساب علم ولا كتب علماً أصلاً ، فإن كل علم مندرج فى هذا المشهد العظيم العيانى ، ثم قال :

لو أن بِلقيس رأت رفرفها ما خطر العرشُ ولا الصرحُ بِبا

حقيقة برزخية بين الإنس والجن ، ورفرفها : مرتبتها ، والهاء تعود على هذه النـكتة المطلوبة الذاتية ما خطر لها عظيم مقامها الذى هو سرير ملـكها ، ولا الصرح السليمانى لها ببال ، إذ هولها فى عظيم ما تراه فى علو مرتبتها ، وهذه الحقيقة البرزخية يشهدها السالك عند انفصالها عن تُرَابِيَّتِه إلى ناره من حيث اجتماع طرفى الدائرة لا على ما يقتضيه الترتيب الطبيعى عن الانفصال عن التراب إلى الماء إلى الهواء إلى النار ، وقوله : ببا ، حذف اللام للدلالة عليها فيما يقتضيه الـكلام ، وإنما حذف اللام لمعنى آخر ليبقى حرف الباء خاصة وهو مقام العقل الذى هو فى ثانى مرتبة من الوجود كما أن الباء فى المرتبة الثانية من الحروف ، فـكأنه يقول إذا أقيمت هذه الحقيقة البرزخية فى مقام التمليك لمرتبة العقل التى هى أقصى المراتب فيكون ذلك عرشها وحالها صرحها لم يخطر لها ببال ، فـكيف إذا كانت مع صورتها البرزخية ، ثم قال :

يا سرحة الوادى ويا بان الغضا   اهدوا لنا من نشركم مع الصبا

يريد بالوادى مسيل المعارف فى قلوب العباد من حيث هم عباد ، والغضا : مقام المجاهدة ، وبانة وسرحة الوادى : هما ما أنتجه لهم الدخول فى هذه المعاملات ، يقول لهما : اهدوا لنا من طيبكم الطرى مع عالم الأنفاس التى تكون عند التجلى ، ولهذا كنى عنه بالصبا التى هى الريح الشرقية مطالع النور .

ممسكاً يفوح رياه لنا   من زهر إهضامك أو زهر الربا

قوله : ممسكاً مجعول فيه المسك ، وهو طيب يخرج من حيوان ، أى هذا الطيب انبعث من مقام الحياة تفوح رائحته لمشام العارفين ، وقوله : * من زهر إهضامك أو زهر الربا * يقول : إنه من مقام التنزل الإلهى الوارد على ألسنة الرسل فى الكتب المنزلة ، وكنى عنه بالإهضام ، وهو الذى أورث التواضع عند العارفين ، فنالوا بذلك المراتب العلى ، وقد يكون أيضاً من مقام حجاب العزة الأحمى فى بحر العمى ، فكنى عن ذلك بالربا جمع ربوة ، كما قال تعالى : (لأكلوا من فوقهم)[1] بمنزلة الربا هنا (ومن تحت أرجلهم)[1] ، كالإهضام هنا ، وشبهه بهذه الأزهار العطرية ، لأنها أوائل التجليات ودلائل على معارف ذوقية تأتى بعدها كما يأتى عقد الثمر بعد الزهر ، ثم قال :

(١) من الآية ٦٦ من سورة المائدة .

يا بانة الوادى أرينـا فننـاً في لين أعطافٍ لهـا أو قضبا
ريح صباً يخبر عن عصر صبا بحاجر أو بمـنى أو بقبا

يخاطب ميل السكون إلى جناب الحق يقول : إنى ميلك ونعمتك من ميل حضرة الحق إليك ونعمتها وظهور أنوارها عليك ، وذلك لأن ميلك إليها ميل افتقار واستفادة وميلها إليك ميل غناء وإفادة فلا نسبة إلاّ من حيث النقيض وذكر الفنن لما في لفظه من الفنون ، وهى أنواع المعارف ، وذكر القضب لحملها القضيب يشير إلى المعارف الذوقية ، وذكر الأعطاف وهو جمع عطف ، وهو العطف الإلهى التى تتضمنه الرحمة الشاملة المطلقة التى وسعت كل شىء وبها حاج إبليس سهل بن عبد الله[1] التسترى ، فقال له : التقييد صفتك يا سهل لا صفته ، فإن الله لا يحجر بعد السّعة ، ولـكن يقسم أنواع المشارب على عباده فيعطى قوماً من وجه ما ، ويعطى آخرين من وجه آخر ، فلا يتقيد على الحق شىء تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً فرحمته المتقين من باب الوجوب الإلهى الذى أوجبه على نفسه ورحمة غير المتقين من باب المنة والفضل ، كما كان التقوى للمتقين من باب المنة

(١) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التسترى تخرج عن خاله محمد بن سوار ولقى أبا الفيض ذا النون المصرى بالحرم توفى فى المحرم سنة ٢٨٣ هـ قال أبو نعيم : عامة كلامه فى تصفية الأعمال ، وتنقية الاحوال عن المعايب والإعلال ومن كلامه أصولنا ستة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق .

والفضل ، إذاً فرحمته على بابها وسعت كل شىء ، وقوله : ريح صبا تخبر عن عصر صبا يقول نسيم روح المعارف من جانب الكشف والتجلى أخبر عن أوان زمان الشباب الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول المطر ، فكشف رأسه عليه الصلاة والسلام حتى أصابه المطر ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنه حديث عهد بربه ، فلهذا أشار بعصر الصبا ، وفيه أيضاً من اشتقاق الصبا من الصبابة وهى الميل ، فكأن هذه الريح تخبر عن أوان الميل بالأعطاف الإلهية ، قال : ووقع أخبار هذه الريح فى مقامات مختلفة منها مقام الحرمة ومقام تميز الأشياء بحقائقها بعضها عن بعض فكنى عنه بحاجر من التحجير ، ومنها مقام التمنى مع وجود الطهارة والزكاة فكنى عنه بمنى ، ومنها مقام الراحة والتجريد فكنى عنه بقبا ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها فى كل سبت ، والسبت حلق الرأس ففيه مقام التجريد ، ثم قال :

أو بالنَّقا فالمُنْحَنى عند الحمى أو لَعْلَع حيث مراتعُ الظبي

يقول : أيضاً أو بالنقا ، يشير إلى الكثيب الذى تقع فيه الرؤية ، وقوله : فالمنحنى ما يكون من الشفقة الإلهية ، والعطف من باب الرحمة بالكون لبقاء العين عند ظهور العين التى هى الحمى ، فلا تنال مع كونها تشهد ، وقوله : أو لعلع من التولع ، يشير إلى حالة عشقية حيث مراتع الظبي لتشبيه أهل الحسن والجمال بها ، أو لأنها محل الأعراف الطيبة النشر لكون الظبي تحمل المسك فى نوافجه فتأكل الطيّب وتطرح الطّيب .

لا عجبٌ ، لا عجبٌ لا عجباً   من عربى يتهـاوى العُرُبا

يفنى إذا ما صـدحت قمـريةٌ   بذكر من يهواه فيه طربا

يقول : لا تعجبوا من شىء يحن إلى أصله ويشتاق إليه ، وقوله :

* يفنى إذا ما صدحت قمرية *

كنى بالقمرية عن نفس عارف مثله قد فوهت بأمر علوى أشاقه إلى ما جاء عنه ، وقد أشار إلى هذه القمرية بعض العقلاء[1] بقوله :

هبطت إليك من المحل الأرفع   ورقاء ذات تعـــززّ وتمنع

وكان الصدح من هذه الحمامة بلسان الأنس والجمال فـكان فناؤه طربا لحسن السماع بذكر من يهواه .

* * *

وقال رضى الله عنه

بالجزع بين الأبرقين الموعد   فأنخ ركائبنا فهـــذا المورد

لـما كان الجزع منعطف الوادى أشار به إلى المواطف الإلهية ، وجعله بين الأبرقين ، وقد ذكرنا أن البرق مشهد ذاتى وسناه للشاهد الذاتى الذى يحصل فى نفس المشاهد عند الرؤية ، والموعد ما وقع عليه الوعد كما قال

---

(١) هو عمر بن الفارض .

تعالى : (جنات عدن) وهى جنة الإقامة فصفة الجنة التى وعد الرحمن مقام اللطف عباده مقام العبودية بإضافة الاختصاص بالغيب ، أو يريد مقام الإيمان .

قال أبو يزيد رضى الله عنه : أنتم أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، ونحن أخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت ، من حيث الخبر الإلهى على اللسان النبوى . وقد يريد بالغيب حالة أوان أخذ الميثاق على النفوس ، فكان غيباً ، أى فى عالم الأمر والملكوت ، إنه كان وعده مأتياً حقاً صدقاً على المعنى .

وقوله : (فأنخ ركائبنا) إن أراد جنة الحس والمحسوس ، فالركائب هنا هى الهيا كل الحاملة للطائف الإنسانية ، والمورد هو ما ينزلون عليه من النعيم الدائم الملذوذ للنفوس والأعين ، وإن أراد جنة المعانى فالركائب هنا مطايا الهمم ، وقوله : أنخ ، أى لا تتعدى الهمم ما تعلقت به مطالبها ، والمورد عبارة عن بلوغها أمنيتها ، وهو سر الحياة الدائمة ، فإن كان لها أمر فوق هذا فهو خارج عن الموعد من باب المنة والفضل الإلهى الذى لا يدخل تحت حصر ولا حد .

ثم قال :

لا تطلبنْ ولا تنادى بعده يا حاجرٌ ، يا بارقٌ ، يا ثهمدُ

يقول : إذا وصلت إلى هذا المورد على التفسير التالى لا نطلب بعده

أمراً آخر ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس وراء الله مرمى ، وليس وراء الله منتهى ، وماذا بعد الحق إلا الضلال » .

وأما تخصيص الحاجر والبارق والثهمد فإن المنع واقع عند بلوغ هذا المورد والندا بعد فكأنه نقيض حاله لو نادى بالحاجر وكذلك البارق فإنه فى مشهد ذاتى وكذلك الثهمد فإن البرق متصل به مضاف إليه ، كما قال طرفة بن العبد :

* لخولة أطلال ببرقة ثهمد *

فأراد هنا يابرقة ثهمد فحذف والضمير الذى بعد يعودعلى الوصول كأنه قال : بعد الوصول لا بعد المورد إذ لا بعدية هناك .

والعب كما لعبت أوانس نهدٌ وارتع كما رتعت ظباء شرّدُ

فى روضة غناء صاح ذبابها فأجابه طرباً هنـــاك مغرِّدُ

كنى بالروضة عن الحضرة الإلهية بما تحويه من الأسماء المقدسة والنعوت واللعب تصرف حالات متنوعة ، وهى انتقالات هذا العبد من اسم إلى اسم بحالة الأنس والجمال والذوق ، ولهذا قال : العب وارتع ، وأوقع التشبيه بالأوانس لما ذكرناه ، والنهد لأنها محل الرضاع ، واللبن الفطرة التوحيدية التى طلب النبى صلى الله عليه وسلم الزيادة منها كما أمره الحق تعالى ، وأشار إلى ميازيب العلوم التوحيدية الفطرية .

وأوقع التشبيه أيضاً فى الذوق بالظبى الشرد لبعدها من الأغيار فتأتى

الأماكن التي لم تدنسها الأقدام فتطيب مراعيها وتصفو مشاربها ، وكأنه دله على علم التنزيه والتقديس ، وكنى بالغنــاء عن الفهوانية ، والذئاب الأرواح اللطيفة .

وقوله : فأجابه طرباً ، من مقام السرور والابتهاج ، والمفرد النفس الإنسانية من حيث ما لها في تلك الحضرة من الصور ، فإن للنفس الانسانية في كل حضرة وفلك ومقام صورة ، وقد نبه على ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في تفسيره المنسوب إليه .

رقت حواشيهــا وَرَقّ نسيمها   فالغيمُ يُبْرِقُ والغمامة تُرْعِدُ

يقول : لطفت معــاني ما تحمله من الظرف والأدب ، ولطف عالم الأنفاس منها ، وقوله :

* فالغيم يبرق والغمامة ترعد *

إشارة إلى حالتين : مشاهدة وخطاب « وجاء ربك في ظلل من الغمام »[(١)] و« كان الله في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء » والحديث مشهور عند العلماء ، وفيه روايتان المد والقصر ، واستشهادنا به في هذا المعنى إذاً كان بالمد لا غير .

---

(١) في ظلل من الغمام ، أي الغمام المتراكم ، وفي بمعنى الباء ، أي يأتيهم بظل الغمام .

والوَدْق ينزل من خلال سحابه كدموع صبٍّ للفراق تَبَدَّدُ

يقول : ونزول المعارف الإلهية من خلال السحاب ، يعني أبواب التجلي ودقائقه في المقام الغمامي ، ويشبهه بدموع الصب أي تنزل محبة وشوق تخصصاً له على مقام الخلة والاصطفاء والتبدد المنسوب إليها أي أنها خارجة عن حكم ما يقتضيه الكسب ، فهو فوق الموازين لأنه تعالى يقول : (وما ننزله إلا بقدر معلوم)[1] ، وقوله تعالى : (ولكن ينزل بقدر ما يشاء)[2] .

واشرَبْ سُلافةَ خمرها بخمارها

واطرَبْ على غَرَدٍ هنالك يُنشِدُ

قال الله تعالى : (وأنهارٌ من خمرٍ لذة للشاربين)[3] ، وصرفه إلى المعاني والمعارف التي يكون عنها السرور والابتهاج والفرح وإزالة الغموم والتجريد من الكم والكيف والهيا كل الظلمانية ، والتنزه عن ملاحظة الأكوان الجسمية والجسمانية مطلوب الأفاضل من العلماء الإلهيين ، وجعل الخمر سلافة ، يقول : ما فيها تعمل ، ولا درستها أقدام ، ولا استخرجها معصار ، لكن صدرت عن أصلها بقوة أصلها ، فظهرت في عينها لعينها

---

(١) سورة الحجر الآية : ٢١ . (٢) سورة الشورة الآية: ٢٧ .

(٣) سورة محمد الآية : ١٥

فلم تشهد سوى ذاتها وأصلها الصادرة عنه ، فهى علوم ربانية ومعارف مقدسة إلهية تورث ما ذكرناه .

والغرد الذى ينشد هنالك هو الناطق الذى ينتجه الذكر الجامع ، فتسمعه اللطيفة الإنسانية فى ذاتها فتلتذ بسماعه ولا سيما إذا تحمل معارف يخاطبها بها مثل هذا الخطاب الذى ورد به على هذا الشخص فى هذا الحال بما ذكره فى البيتين بعد هذا وهما :

وسلافةٌ من عهد آدم أخبرت عن جنة المأوى حديثاً يسندُ
إن الحسان تَفَلْنَهَا من ريقه كالمسك جاد بها علينا الخرّدُ

هذا ذكر ما جاء به الناطق الغرد المنشد فى خطابه فى نعت هذه العلوم الخمرية ومرتبتها والتنبيه على أصلها وأصل عطريتها وقدمها ، وإنها من جنة المأوى ، أى من الحضرة التى تأوى نفوس العارفين فى أوان التربية ، وقوله : إن الحسان ، يعنى الأسماء الحسنى تَفَلْنَهَا ، أى من محل الكلام والفهوانية والألسن والخرد مقام الحياء ، والخفر فيه إشارة إلى المشاهدة ، ولا سيما وقد تقدم ذكر الحسان ، ثم جعلها من باب الجود والمنة ، لا من باب الكسب والطلب ، فقال : جاد بها ، وقوله : كالمسك ، يجمع بين الشم والذوق .

* * *

وقال رضى الله عنه

يا أيها البيتُ العتيقُ تعالى　　نورٌ لكم بقلوبنا يَتَلَألا

البيت العتيق القديم ، وهو قلب العبد العارف التقى النقى الذى وسع الحق سبحانه حقيقته ، وقوله تعالى يقول : ارتفع لكم نور من القلوب شعشعانى وظهر على الألسنة والعيون والأسماع وسائر الجوارح ، فكان العبد فى هذا المقام يسمع بالله وبه يبصر وبه يتكلم وبه يبطش وبه يسعى ويتحرك ، فإن القلب من الجسد مثل النقطة من المحيط فى الوسط ، فالمحيط منها من كل جانب علواً ، فلهذا قال تعالى : أى اطلب العلو من معدن انبعاثه فيلقى الجوارح فيصرفها بحسب ما تعطيه من الحقائق فما تعالى منه إلى العين قيل فيه هذا الحق بصره ، وإلى الأذن قيل هذا سمعه ، وإلى الرِّجل قيل هذا سعيه ، فناب من هذه صفته فى الخلق مناب الحق ، فكان خليفة حق فى أرض صدق لإقامة ميزان عدل عن امتنان وفضل .

أشكو إليك مَفَاوِزاً قد جُبْتُها
أرْسَلت فيها أدْمُعِي إرْسَالاَ

يصف حاله فى سلوكه وسفره وما قطع فى طريقه من الرياضات والمجاهدات التى كنى عنها بالمفاوز ، وقوله : أرسلت فيها أدمعى إرسالا حالة شوقية للقاء المحبوب والظفر بالمطلوب .

أمسى وَأُصبح لا أَلَذّ براحةٍ   أَصِل البـكور وَأَقْطَع الآصَال

يقول : تركت الراحات وأخذت بالعزائم والشدائد لبلوغ المقصد ، فإن الهم تعلقت بعظيم عزيز الحمى الطريق إليه وعرة صعبة وعقبتها كَوْد فليس يوصل إليها إلاّ بالاتضاع .

إن النياق وَإن أضر بهـا الوحى
تَمْرِى وَتُرفل فى السُّرَى إرفالا

يقول : الهم وإن أعيت لعزة المطلوب فإنها مع ذلك لا تفتر ، فإن الأدلة العقلية تريد أن تحيرها لقصور الأدلة عن تعقلها بما هو المطلوب عليه من الحقائق ، فربما يكسل بعض هم العارفين الذى لا ذوق لهم محقق فى الإلهية الواقفين مع الوجوب العقلى والجواز والاستحالة والأمر الإلهى خارج عن هذا التقييد ، فقد يحكم العقل بإحالة أمر ما وهو مُحال عقلاً ، لـكن ليس محالاً نسبة إلهية ، وهكذا فى أكثر أحكامها فقد يدرك العقل بعض الأمور من تلك الحيثية ولا يعرف بقصوره ، فيقول : هذا واجب عقلاً أو جائز أو محال ، وهو صحيح من حيث دلالة العقل لا يكون إلاّ هكذا لا من حيث النسبة الإلهية .

هٰذِى الركابُ إليكمُ سارت بنا   شوقاً وما ترجو بذاك وِصَالا

الركاب كل حامل من الإنسان ظاهر أو باطن ، فإن السلوك يعم ذات

الإنسان عملاً وهمة ، فهى تحمل المشتاق وما ترجو وِصالاً ، واللطيفة الإنسانية المحمولة أولى بالمشتاق التى ترجو الوصال ، وإن كان لهذه المراكب وصول من حيث ما هى ، ولكن الوصول الذى لأجله تسلك بها إنما هو اللطيفة الإنسانية ، ولا علم للمراكب بذلك فإنها تحت التسخير ، وبحكم التسخير تمشى ولو كشف الغطاء لبدت الحقائق لكل ذى عين ، كما أشرنا إليها فهنيئاً لأهل الكشف ، ثم قال :

قطعت إليك سَبَاسِباً وَرِمالا   وجداً وما تشكو لذاك كَلالا
ما تشتكى ألَمَ الوجى وأنا الذى   أشكو الكلال لقد أتيت مُحَالا

يقول : هذه المراكب الكثيفة واللطيفة ارتكبت هذه المشاق ، ولم يظهر عليها أثر إعياء ولا وهن ، وأنا مالى فيها سوى الأمر والتدبير ، والنظر بحكم السياسة لإقامة هذه النشأة واكتساب المعارف ودعوى المحبة ، ثم أشكو الضجر والإعياء لقد أتيتَ مُحَالاً فى دعواى .

***

وقال رضى الله عنه

بين النَّقَا وَلَعْلَع   ظباء ذاتِ الأجرع

يقول : بين كثيب المسك الأبيض الذى تكون فيه الرؤية والتولع به فنون من المعارف الملازمة إليها لمقامات التجريد وأحواله من قامت به

جرعته الغصص العظيمة هيماناً وشوقاً إلى المعروف التى هى دلالة عليه ، إذ لا بدّ لـكل علم من معلوم هو متعلقه وإن كان عينه لـكن من حيث ما هو الشيء كذا خلاف كونه من حيث أمر آخر ، ثم قال :

ترعى بها فى خمرٍ خمـائلاً وترتعى

يقول : هذه المعارف المشبهة بالظبى ترعى ، أى تتناول بحقيقتها من قوة من قامت به لغلبة سلطانها عليه ، والخمر الشجر الملتف المتداخل بعضه فى بعض إشارة إلى عالم الامتزاج والتداخل منه ، والخمائل مثل ذلك إلاّ أنه قابل امتزاجاً بامتزاج ، أى لـكل ثمر قطف ويد تقطف من جنسها لا تقدر يد أخرى تتناول ذلك ، وسببه الاتساع الإلهى ، أى لا يتكرر شيء فى الوجود ، فإنه يودى إلى الضيق والحقائق تأبى ذلك .

ما طلعت أهِـلّة بأفق ذاك المطلع
إلاّ وَدِدْتُ أنّها من حَذَرٍ لم تطلع

يقول : ما طلعت أهلّة ، أى تجليات فى مثل أحوال الهلال المرتقب هنا لطلب الشهود بأفق ذاك المطلع ، يعنى ذلك الـكثيب الذى ذكره بلفظ النقا ، وقوله :

إلاّ وددتُ أنها من حـذرٍ . . .

يقول : من خوف على فناء المشاهد فى نفسه عن نفسه فتذهب عينه ،

والغرض بقاؤه لنفسه بربه ولربه بربه لا بنفسه لنفسه ولا لربه بنفسه ووجه آخر وهو أنه قد تقرر أن التجلى على ما هو المتجلى عليه فى نفسه لنفسه محال حصوله لأحد فلا يقع التجلى إلا من دون ذلك مما يليق بمن يتجلى له فيخاف على المتجلى له أن يعتقد أن الأمر فى نفسه لنفسه على ذلك بعينه فتحصل الإحاطة وحصولها محال كما ذهب بعض النظار فى معرفة البارى سبحانه إلى أن معرفتنا به ومعرفة جبريل له ومعرفته بنفسه سبحانه على السواء وما أبعد هذا من العلم(١) الصحيح :

ولا يَدَت لامِعَةٌ من بَرقِ ذاك اليرَمعَ(٢)
إلاّ اشتهيت أنها لِما بِنا لم تَلمع

يقول: ولا بدت لامعة يشير إلى تجلى جمادى يقابله نور شعشعانى كمقابلة نور الشمس لهذه الحجارة الملس البراقة ومحلها الأرض كما أن محل الأهلة السماء فيقول إنه سواء كان التجلى علوياً أو سفلياً طبيعياً أو غير طبيعى لا أريد أن يقع لما ذكرنا فى التفسير قبل هذا ولهذا قال : (لما بنا لم تلمع) يشير إلى ما ذكرناه فى التفسير على الوجه الثانى من أن يعتقد أن الأمر فى نفسه كما تجلى له .

يا دَمعتَى فانسَكبى يا مُقلتى لا تقلَعى

---

(١) بل هو بعيد كل البعد .

(٢) اليرمع حجارة رخوة إذا فتت انفتت .

يازفرتى خُذ صعدا يا كبدى تصــــدّعى

يخاطب عالم النزول والصعود كما ورد فى الخبر (يتعاقبون فيكم ملائـكة الليل وملائـكة النهار) فما يصعد منه فهو الهمة وما ينزل إليه فهو المعارف الوهبية والتى تأتى بها الملقيات ، وقوله (يا كبدى تصدعى) خزانة الغذاء حقيقة ميكائيلية يقول لمقسم الأرزاق ورزق كل عالم بحسب مشاكله والتصدع التفرق على حسب العالم الذى يتغذى منه كأفواه العروق الملتقية من الـكبد ما تعطيه من الدم فى تلك المجارى (فانفَجَرَت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كُلُّ أناس مشربَهم)[1] .

وأنتَ يا حادِى اتئد فالنار لين أضلعى

قد فَنِيَت مما جَرى خوف الفِراق أدْمُعى

حتى إذا حَلّ النوى لم تلق عيناً تدمع

يخاطب داعى الحق الذى يدعو الهم إليه بالتوجه يقول لا تعجل فإن نيران الحب قد أنضجت كبدى ثم أنى فى حال الفراق مع رغبتى فى حصول المشاهدة والاتصال أفـكر فى البينونة عن تلك الحالة فأبكى لها قبل وقوعها حتى لو وقعت لم تجد العين دمعة ترسلها عند الفراق لأنها فنيت تلك الرطوبات لهذه النار وعظم حرارتها وكثرة ما أرسلته من العبرات خوف البين .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٦٠

فارْحَلْ إلى وادِي اللوى مرتَعِهِمُ ومصرعي
إنَّ بِهِ أحبتي عند ميـاه الأجرع

يشير إلى مقام العطف كنى عنه باللوى والرقة فإن اللوى حيث يلتوى الرمل ويرق ، يقول ذلك المقام هو مرتع لهم وهو مصرعى فإن بتعطفهم علىّ أفنى وأذوب بل أموت دهشاً وحيرة عند ذلك العطف الإلهى وقوله (إن به أحبتى) يعنى بمقام اللوى فإن العطف إنما هو منهم بهم لا بغيرهم وقوله : (عند مياه الأجرع) يقول لا يحصل لك هذا العطف الإلهى إلا بعد تجريع الغصص فى الرياضات والمجاهدات فحصولها مقرون بحصول هذه الغصص بل هى التى تنتج عن هذا العطف واللطف والرقة والحنان .

ونادِهِم مَن لِفَتى ذى لَوْعةٍ مُوَدِّعِ
رَمَت بِهِ أشجانه بهماء رَسم بَلقَعِ

يقول : ونادهم أى الأحبة من لفتى من الفتوة ذى لوعة حرقة الشوق مودع يريد حالة الانصراف من المشاهدة إلى ذاته كما ورد فى رؤية الجنة إذا تجلى الحق لعباده ورأوه وهم بالكثيب فى جنة عدن يقول ردوهم إلى قصورهم، وقوله (رمت به أشجانه) أى أحزانه بهماء حالة التجريد فى حالة السلوك وحالة الحيرة فى حالة حصول المعارف والرسم بقية الأثر والبلقع الخراب يقول : إن هذه الحيرة حصل منها على ما بقى فيه من الأثر الذى لا يمكن زواله إذ لو زال زالت عينه وجعله خراباً لما أثرت فيه الرياضات

والمجاهدات والمعارف والتجليات من الأحكام التى أذهبت منه كل مالا يليق بظهورها عليه فصار خراباً منها لا أنه خراب فى نفسه بل ذلك الخراب هو العمارة على الحقيقة ثم قال :

يا قمراً تحت دُجى خذ منهُ شيئاً وَدَع
وزوديه نظـــــــرةً من خلف ذاك البرقع
لأنهُ يضعف عن دَرْكِ الجمال الأروع

الدجى هنا كناية عن الصورة التى يقع فيها التجلى قمراً إذا كان الدجى ظل الأرض فظلها صورة طبيعية ، وقوله : خذ منه شيئاً غير معين يريد ما يناسبه ودع مالا يناسبه لتجل آخر مثل التحليل فى الإسراء بتركه عند كل عالم ما يناسبه إلى أن تبقى اللطيفة الربانية المنفوخة فيبقى عند الحق بالحق بما شاء الحق ثم يردها إلى عرشها وملكها فتنفصل فتأخذ من كل عالم ما تركت عنده حتى تنزل إلى الأرض وقد انتظم ملكها وقام عرشها فتستوى عليه بالتدبير وقوله وزود به يقول لصورة القمر نظرة أى مشاهدة وذكره بلفظ الزاد لوقوع السفر عنه بعده وقوله :

* من خلف ذاك البرقع *

أى اجعل له علامة يعلم بها أن تلك الصورة المتجلى له فيها حجاب عن عين الحقيقة فيعرف ما رأى ومن رأى وأيضاً فإنه يضعف الممكن عن إدراك الجمال الأزلى وجعله أروع أى أنه مهاب يخاف من سطوته .

أو عَلِّليه بالمنُـا عساه يحيي ويعى

ما هو إلا ميت بين النقا ولَعلع
قُمت يأساً وأسى كما أنا في موضعي

يقول: علليه بالمنى، عديه موعداً حسناً بما يلائم غرضه مثل قوله أوف بعهدكم فإنه يحيي نفسه بذلك ويعى ما يقال له فيلزم الآداب وما ينبغى فإن المنى مما تحيى به النفوس ولا سيما إذا كانت من صادق جواد على الإطلاق فإنه ميت بين المكانة الزلفى بالكثيب الأبيض وبين الولوع به والتعلق لأنه محل شهود المحبوب وقوله قمت يأساً من تعلق الإدراك بحقيقة المطلوب وأسى على مافات من زمن جهالتى بما ينبغى فإنه من طمع فيما لا مطمع فيه خسر الوقت وشهد الحال عليه بجهله وقوله (كما أنا فى موضعى) أى لم أجد حيث أضع قدم الانتقال على الحالة التى أنا عليها إذ لا اين ولا كم ولا كيف بل تنزيه مجرد، ثم قال:

ما صدقت ريح الصبا حين أتت بالخدع
قد تكذب الريح إذا تسمع ما لم تسمع

يريد ريح عالم الأنفاس المخبرة بالكوائن التى تودعها حضرة الطيب أو الكلام وجعلها للصبا وهو موضع الشروق يقول ما صدقت أخبار التجليات حين أتت فيها بصور التشبيه إذ لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء فكأنها أخبار أتت بالأمر على خلاف ما هو عليه فجعله مثل الخديعة وقد يظهر فى الشريعة مثل هذا وهو قوله تعالى: (ليس كمثله شيء) ثم قال

عليه السلام للسوداء[1] «أين» الله ؟ فأشارت إلى السماء فجعل الخطاب عنه تعالى كخطاب من يسأل عنه من المتحيزات إذ المتحيز هو الذى يقبل ظرفية المكان فقال عليه السلام أعتقها فإنها مؤمنة فما كلف أمته أكثر مما تسعه أفهامهم وسماه إيماناً وما قال فإنها عالمة فإنه سبحانه لا يتحيز وقولها : فى السماء تحيز فالإيمان يقبل هذا القول والإيمان سبب سعادى وضعة الشرع للخلق وللإيمان يستغنى به عن العلم ولا يستغنى بالعلم عن الإيمان وقوله : قد تكذب الريح إذا تسمع ما لم تسمع مثاله الريح إذا هبت ببدر حنين تسمع آذان الناس أصوات كؤوسات ومعلوم أنه ماثم كؤوس تضرب ولا طبل فما نقلت صحيحاً وإنما تلك الأصوات انزعاجها والهبوب وأما كن مجوفة تعطى تلك الأصوات فعلى الحقيقة أنها أعطت صوتاً فى آذان السامع لا غير والحاكم عليها بأن ذلك صوت طبل أو غيره ليس ذلك وإنما أخطأ أن كان ذلك خطأ الحاكم على ذلك الصوت بأنه كذا

---

(١) هذه الرواية من تصرف الرواة وقد أخطأوا فيها الخطأ الكبير فإن العرب كلهم يعتقدون أن الله فى السماء ولم يخرجهم ذلك من الشرك بل قال صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وبهذا يتبين خطأ من قال أين الله ؟ وقد جود حديث الجارية الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة فذكر من طريق ابن شهاب الزهرى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : «أتشهدين أن لا إله إلا الله » الحديث فقالت نعم .

وكذا كل ما يعطيه الحسّ من المغاليط ليس على الحقيقة نسبة الغلط إلى الحسّ وإنما الغلط للحاكم وهو أمر آخر وراء الحسّ .

* * *

بأبي الغصون المـائلات عواطفا والعاطِفات على الخدُود سَوَالفا
المرسِلات من الشُّعور غدائرا اللّيِّنات معاقدا ومعاطفا

قوله بأبي إشارة إلى العقل الأول يفدى به النعوت التي تحمل المعارف الإلهية للعارفين بطريق العطف الإلهي للعطف المقدس كما قال تعالى : (قطوفها دانية)[1] وقوله العاطفات على الخدود صفة وجهية ، سوالفا رتبة إلهية لها في القلوب لدغ وحرقة توجب اصطلام العبد على نفسه هيمانا وعشقا ، وأقام هذه الصفات في الكناية عنها مقام المخدرات المقصورات فأخذ يستعير لها مما هو حقيقة لمن كنى بهن عن ذلك فقال أيضا المرسلات اسم فاعل والغدائر اسم مفعول هي المرسلات من الشعور كنى به عن العلوم الخفية والأسرار المكتمنة التي لا يستدل عليها إلا بضرب من التلويحات البعيدة لنزاهتها وجعلها غدائر على تقاسيم هذه المعارف على مراتبها إذ ليست على مرتبة واحدة وقوله : (اللينات معاقدا ومعاطفا) يقول إنها وإن كانت صعبة المرام من حيث نزاهتها إذا رمناها نحن من حيث نحن فهي سهلة التناول

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة الحاقة

لكرمها وعطفها ونزولها إلينا جوداً ورحمة كما قال تعالى : (آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً)[1] فلم يذكر له تعمل فى تحصيل شىء من ذلك وجعل الكل منه امتناناً وفضلا والمعاقد المذكورة هنا تداخل صفات الخلق وصفات الحق وانعقاد الصفتين به كما وردت الأخبار فى ذلك ولكنها عند هؤلاء المعتنى بهم الذين كشف الله عن بصائرهم غطاء العمى وسهل عليهم معرفة ذلك بالكشف الإلهى فلأن ما قوى من ذلك عندهم عرفوه .

السالبات من الدلال ذلاذلا   اللابسات من الجمال مَطَارفا

الباخلات بحُسنهن صيانةً   الواهبات متالداً ومطارفا

لما أقيمت هذه المعارف للعارف من حضرة المثال كما أقيم المعلم فى صورة اللبن نعتها بما تنعت به تلك الصورة المتجلى فيها فقال إنها تجر أذيالها تيهاً ونخوة وعجباً لعلو منصبها ومكانتها ، والمطارف الأكسية المخططة فقال : إنها ليست ضروباً متنوعة من الزينة والجمال وذلك لتنوعات وجوهها ومتعلقاتها وقوله الباخلات بحسنهن صيانة الإشارة بذلك إلى الخبر « لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها » فهى لا تستحق أن تكون عند من لا يعرف قدرها لأنها علوم مشاهدة لا علوم نظر واستدلال والمشاهدة لا تعطى لكل أحد وقوله: (الواهبات متالداً ومطارفا) وذلك لما

---

(١) من الآية ٦٥ من سورة الكهف .

لما عز شهودها على أكثر العقلاء وعلى كل من تقيد فى تحصيل العلوم بطريق النظر الذى هو الفكر الصحيح والاستدلال وهبتهم من خلف الحجاب الأقدس معرفة مأخذ الأدلة بطريق الفكر الصحيح والاستدلال لأهل هذا الشأن خاصة فعرفوا منها على قدر ما أعطاهم نظرهم الذى هو هبتهم فكنى عنها بالمتالد والمطارف وهو المثال المحدث والقديم ، فعبر بالقديم عن كل عالم علم أمراً مابدليل نصبه غيره ، فاستفاده هذا المتأخر عنه والحديث هو الذى امتن الله عليه فى علم ما ينصب دليل لاح له من فكره الصحيح لم يستفده من غيره فى أصل وضعه ، فمن هذا كنى بالمتالد والمطارف .

ثم قال :

الُوِنقاتُ مضاحكا ومباسماً الطيباَتُ مُقبَّلاً ومَرَاشِفا
الناعماتُ مجرداً والكاعباتُ مُنَهَّداً والمهديات ظرايفا

وصفها بحسن المبسم عند التبسم والضحك إشارة إلى الفهوانية وإلى حصولها عنده من مقام الأنس والجمال والمودة كما كانت الإشارة من الحق تعالى لمحمد عليه السلام فى نزول جبريل عليه السلام فى صورة دحية وكان أجمل أهل زمانه فإنه يشير إلى أنه أى محمد ليس بينى وبينك إلا صورة الجمال تأنيساً له وتعريفاً بما له عنده وكان من جمال دحية أنه لما ورد المدينة ما رأته حامل إلا وضعت حملها من حينها من هيبة جماله فناء فيه وانخلاعاً وقوله (الطيبات مقبلا ومراشفاً) هو ما كان منه له من القبول عند الخطاب والمراشف هو ما ارتشفه منها عند المشاهدة ، والمشاهدة والخطاب لا يجتمعان

عندنا لأن حقيقة منها تغنيه عن غيرها ، فلهذا لا يجتمعان أبداً ، وقوله : (الناعمات مجرداً) يشير إلى ما اكتسبه من العلوم من حاسة اللمس فى حضرة المثال والتخيل إذا وقع التجلى المعنوى فيها وقوله : (الكاعبات منهداً) وهو التى صار نهدها كالكعب وهى أحسن ما تكون فيه الجارية يشير إلى أن محل حمل المعارف تجلى له ليشاهد كيف يتحمل المعارف الإلهية فيه حتى تؤديه المعارف المعتبرة به فى أوان تربيته القدرة له عند الله تعالى أخذه من هذا الوجه وهو مشهد عزيز ينظر إليه قوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم)[١] وهو صورة تعلق القدرة بالمقدور حالة الإيجاد والمانع من ذلك معلوم عندنا لا يسع هذا الشرح بسطة لمنازعة الخصوم فيه وقوله : (المهديات طرائفا) هو ما ألقت عليه من معرفة نصب الأدلة على ما يحاوله من تحصيل العلوم لا غيره ، ثم قال :

الخالباتُ بكل سحرٍ مُعْجِبٍ   عندَ الحديث مسامعاً ولطائفا
السائراتُ من الحياء محاسناً   تسبى بها القلب التقىّ الخائفا

يقول إنها تخطف العقول عن أصحابها عند إيرادها عليه ما تسمعه من الخطاب العجيب والكلام الحسن فلا تترك له سمعاً يسمع به بعد هذا كوناً من الأكوان من حيث كونه لكن من حيث ما هى فيه ، فبهذا يسمع

---

(١) من الآية ٥١ من سورة الكهف .

حديث الأكوان كما ورد فيمن أحبه الحق تعالى فى قرب النوافل فيكون الحق تعالى : « سمعه وبصره ولسانه ويده » والخبر المشهور فى الصحيح، واللطائف جمع لطيفة وأراد بها نفس السامع فإنه من اصطلاح القوم فى العبارة عنها أن يقولوا لطيفة الإنسانية يريدون بها السر الذى به كان الإنسان إنسانا وقوله (الساترات من الحياء محاسنا) إشارة إلى الحجب التى بينك وبين هذه العلوم والتجليات والحياء المنسوب إليها إنما هو حياء من الله تعالى يستحى أن يتجلى للقلوب المشغولة بغير الله فى غالب حالاتها وتشتغل بالله فى بعض حالاتها فهم فى هذا المقام بمنزلة المؤمنين فى حالة قوله تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنُوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً)[1] فلهذا قرن الحياء هنا بالستر ، قال: وهذه المحاسن إذا تجلت لقلب التقى الخائف أخذته عن نفسه وهيمته فيها كما ورد أيضاً فى الجانب الإلهى عنه تعالى أنه قال (وسعنى قلب عبدى المؤمن) التقى فلابد من تطهير القلب وعمارته بهذه الصفات وحين تحصل له هذه السعة يحصل له شهود هذه المحاسن .

ثم قال :

المبدياتُ من الثغور لآلياً تشفى بريقتها ضعيفاً تالفاً

الراميات من العيونَ رواشقاً قلباً خبيراً بالحروب مُثاقِفا

يقول أظهروا من الحضرة الفهوانية جواهر العلوم الكبريائية فإن

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة التوبة .

اللؤلؤ هو الجوهر الكبير والمرجان ما صغر منه وقوله : (تشفى بريقتها)
يقول إذا حصلت له هذه المعارف أذهبت علل الجهالات والشبه والشكوك
وقوله (الراميات من العيون) يريد الملاحظة العلوية من هذه العلوم
والرواشق أصابت قلوب من رميت عليه وقصدت به لأنها لا تخطىء وقوله
(قلباً خبيراً بالحروب مثاقفاً) يريد خبرته بطريق التباس العيون فى حضرة
التمثيل كما قال تعالى (وكان عرشه على الماء) جاء رجل إلى النبى صلى الله
عليه وسلم وقال له يا رسول الله : رأيت البارحة الحق تعالى على عرشه ، قال
له: وأين كان عرشه؟ قال على البحر ، قال: ذلك عرش إبليس، وانظر معرفة،
إبليس ما أبدى له عرشه إلآ على الماء ليلبس عليه ويعتقد فيه أنه ربه تعالى.
فيسمع منه ما يلقى إليه ليزيله عن الإيمان ، فلهذا توصف قلوب العارفين
بالخبرة وبالثقاف والحذر من هذا الالتباس كما هى الشُبه فى حق النظار التى
تأتيهم فى صورة الأدلة وليست بأدلة ، ثم قال :

المُطلعاتُ من الجيوب أهلّةً لا تَلْقَيْنَ مع التمامِ كواسِفا
المنشئاتُ من الدموعِ سحائبا المُسمعاتُ من الزفير قواصفا

كنى بالجيوب عن الحجب والملابس التى هى النعوت العلوية المقدسة
وقوله (أهلة) يشير إلى تجلى أفق مطلوب ، وقوله لا يعترى تلك الأهلة
كسوف أى لم يبق لها شهوة طبيعية تحكم عليها فتحجبها عن المناظر العلى
لأن سبب كسوف الهلال إنما هو ظل الأرض فى ترتيب نشأة العالم ، وإن

كان الكسوف سببه التجلى الإلهى فيخشع فيظهر ذلك الخشوع عليه فيسمى كسوفاً ، ذكر النسائى فى مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكسوف فقال : ما تجلى الله لشىء إلا خشع له ، فنبه بالمعنى الحاصل فى القمر ، والشمس عند هذا السبب الوضعى فى سباحتهما فى الأفلاك ، كما قدرها سبحانه ، كما قال : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) فلا يتناقض ما يعطيه الخبر وما ذكره علماء هذا الشأن من الأسباب فى ذلك،وقوله : (المنشئات من الدموع سحائباً) البيت بكماله يشير إلى أثرها فى المكلفين بها المهيمين فيها المحبين لها ، إلى أن هذه حالاتهم . ثم قال :

يا صاحبىَّ بمهجتى خُمصانةٌ أسدت إلىَّ أيادياً وعوارفا
نظمت نِظام الشمل فهى نِظامُنا
عربيـــةٌ عجماء تُلهى العارفا

يقول هذا العارف إن هذه المعارف التى وصفها هيمتنى منها معرفة واحدة لطيفة برزخية ، ولهذا جعلها خمصانة ، يقول إنها أوقفنى حصولها على معرفة ذاتى بذاتى لربى ولذاتى ، فجمعتنى علىَّ وجمعتنى بربى فانتظم شملى بنظمها فهى عربية بى منى وعجماء فيما عرفتنى من ربى لأن المعرفة الإلهية إجمالية لا يمكن فيها تفصيل إلا بتشبيه والتشبيه محال فالتفصيل محال فكما لا تشبيه كذلك لا تفصيل ، وإذا انتفى التفصيل فلا إجمال ، وإنما

يذكر الإجمال توسعة فى الخطاب لفهم السامع إذ العبارات المصطلح بها تضيق عن تفهيم ما لا يدرك بها إلا ذوقاً ومشاهدة ، وقوله : (تلهى العارفا) ، يعنى عن معرفته وعن نفسه بمشاهدته ، لأن العلم بالشىء وشهوده لا يجتمعان . ثم قال :

مهما رنت سلّت عليك صوارماً ويريك مبسمُها بريقاً خاطفاً
يا صاحبىّ قفا بأكْناف الحِمى من حاجرٍ ياصاحبىّ قِفا قِفا

يقول: هذه الحقيقة إذا نظرت إليك أثرت فيك تأثير الصوارم فى الجسوم يريد ما تعطيه من آثار المجاهدة والمشاق ويريك مبسمها بريقاً خاطفاً يقول يعطيك مشهداً ذاتياً فى حال جمال وأنس ، لكنه يخطفك عنك ، فلا تبقى معك وقوله يا صاحبى يخاطب عقله وإيمانه يقول لها قفا بأكناف نواحى الحمى حجاب العزة إلا حمى من حاجر ، أى أنه موضع التحجير عن أن يدركه كون ، فالكل من ورائه وقف وعنده منتهى علوم العالمين ومعرفة العارفين .

حتى أسائل أين سارت عيسهم فقد اقتحمت معاطباً ومتالفا
ومعالماً ومجاهلا بشملةٍ تشكو الوجى وسباسباً وتنائفا
مطويةُ الاترابِ أذهبَ سيرُها بحثيثةٍ منها قوى وسدائفا .

أراد بالعيس الهمم التى هى مطايا العلوم واللطائف الإنسانية لأن بها

يبلغ المقصود ، كما قال العارف ، والهم للوصول فقد اقتحمت أى ولجت الغمرات وارتكبت المهالك التى تورث العطب والتلف منها ما كان معلوم لنا أنه متلف وحبنا جسدنا على اقتحامه مع المعرفة ، لأن المعرفة والمحبة تورث الشجاعة بك بلا شك ولا ريب ، ومنها ما كان مجهولاً لنا حتى حصلنا فيه فأتلفنا ، أى رميت نفسى من حبها فيما أعلم وفيما لا أعلم ، يقول : إنه لم يفكر فى عاقبة ولا خير فى حب يدبر بالعقل ، وقوله : بشملة كناية عن همة معينة منه لأمر مخصوص وقع له التعشق به ، وقوله : تشكو الوجى ، يعنى الحفا ، أى أنها لما حصلت بالوادى المقدس قيل لها : اخلع نعليك ، وكانت محمدية ، فشكت الحفا لمناسبة الطهارة فى النعل ، والوادى والسباسب والتنايف حالات التنزيه من جانب الحق والتجريد من جانبه ، ووصفها بأنها مطوية الأقراب لأنه أقوى فى سيرها وانهض لها فاستغاث ، وقوله : أذهب سرعة سيرها منها قوى ، أى كان لهذه الهمة وجوه كثيرة تتعلق بها ، فلما علقها بهذه الوحدانية حجبها عما كان لها من القوى فى تعلقها بالكثرة فكأنه أضعفها ، كما يضعف البعير إذا ذهبت سدايفه التى هى شحمه وقوته . ثم قال :

حتى وقفتُ بها برملة حاجر فرأيتُ نوقاً بالأثيل خوالفاَ

يقول : وصلت إلى حالة ميزت لى بين الأشياء وفصلته لى ، ومنعتنى أن أنظر إلى غير ما جلته لى ، فكان الذى رأيت نوقاً بالأثيل خوالفا ،

أى علوماً أصلية تنتج علوماً أخر لمن قامت به ، فإن الخوالف النوق العظام التى لها أتباع . ثم قال :

يقتادها قمـــر عليه مهابةٌ فطويتُ من حَذَرٍ عليه شراسفاً

يقول : يقتاد هذه الخوالف قمر حالة شهودية فى صورة قمرية فى مقام الإجلال والهيبة والشراسف أطراف الأضلاع حيث انحناؤها ، ولهذا قال: فطويت من حذر عليه لئلا يذهب عنى فأفقده شراسفاً كما تحنو على محبوبك إذا حصل عندك ، ولما كان القلب محل السعة الربانية ونعت الحق سبحانه نفسه ، وأنه فى قلوب عباده على الوجه الذى يليق بهذا القدر من غير تشبيه ولا حصر ولا تكييف ولا تقييد ، ثم شبه تجليه بالقمر ، وقوله : يقتادها من قوله تعالى : (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها)[1] ، ثم قال :

قمرٌ تعرّض فى الطوافِ فلم أكن بسواه عند طوافِهِ بى طائفاً
يمحو بفاضل برده آثاره فتحار لو كنت الدليل القائفاً

قمر تعرض فى الطواف صفة إحاطية كما أحاطة الطائف بالبيت فى طوافه منه بى ومنى به من حيث نيتى لا من حيث هويته ، وقوله : يمحو بفاضل برده آثاره ، أى هذه الأدلة التى نصبها دليلاً عليه محاها بـ(ليس كمثله شىء) وبـ(سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون) ، فأوقف العالم فى مقام الجهل والعجز والحيرة ليعرف العارفون ما طلب منهم من العلم به وما لا يمكن

(١) من الآية ٥٦ من سورة هود .

أن يعلم منه فيتأدبون ولا يتجاوزون مقاديرهم ، كما قالت اليهود فى الخبر النبوى المشهور من كون الحق يضع الأرض يوم القيامة على أصبع والسموات على أصبع الحديث ، فقرأ النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (وما قدروا لله حق قدره)[١] .

***

وقال رضى الله عنه

بِأُثيلات النقا سرب قطا ضرب الحسن عليها طنبا

وَبِأَجْوَاز الفلا من إضمٍ نَعَمٌ ترعى عليها وظبا

يقول : برؤية الكثيب الأبيض معارف أنتجها الصدق ، وكنى عن الصدق بالقطا ، يقال أصدق من القطا ، قوله : ضرب الحسن ، أى ألبس عليه من آثار المشاهدة ، أى فى حقيقة ، يريد حضرة المشاهدة ، وقوله : وبأجواز الفلا ، يقول : وبمعظم مقامات التجريد والتفريد من إضم ، يشير إلى موضع يعطى التواضع والتنزيه ، يقول : وبهذه الحالة التى كنى عنها بالموضع معارف قد ألفتها النفوس لأنها نتائجها ، فكنى عنها بالنعم ومعارف لم تألفها النفوس هى شرد لكن انقادت إليه بحكم العناية الإلهية فكنى عنها بالظبا ، وهذان الصنفان من المعارف مكتسب من مقام التجريد والتفريد .

يا خليلىَّ قفا واستنطقا رسم دارٍ بعدهم قد خربا

واندبا قلبَ فتىً فارقه يوم بانوا وابكيا وانتحبا

قوله : يا خليلىَّ يخاطب عقله وإيمانه ، يقول لهما : استنطقا فى موقف من

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

المواقف الإلهية أثر منازل الأحباب بعد رحيلهم عنها وخرابها بعدهم ، فإن القلوب إذا فارقت أصحابها متوجهة نحو حضرة الحق التي هي محبوبة لها ، تتصف النفس بالخراب لعدم الساكن ، كما قال بعضهم :

ضاع قلبي أين أطلبه ما أرى جسمي له وطنا
كان حزني بعد بعدكم وسروري بعدكم حزنا

وكثيراً ما يذكر الشعراء هذه القصيدة في باب النسيب والهوى :

علّه يخــــبر حيث يمموا أَلِجَرْعاء الحمى أو لقبا
رحلوا العيس ولم أشعر بهم أَلِسَهْوٍ كان أم طَرْفٍ نبا

يقول : لعله كلمة ترج وتوقع يخبر حيث قصدوا وتوجهوا ، يعني القلب ، والجرعاء المقام تجرع الغصص من آلام الفوت ، فينتج عندي تجرع الغصص من آلام الفراق والحمى موضع يحرم الدخول فيه ، ونيل ما يحويه من العلوم لنزاهته عن تعلق السكون أم لقبا أم لموضع الراحة الذي هو قبا فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يزوره كل سبت لمناسبة الراحة الذي هو قبا ، فإن السبت الراحة ، وبها يسمى السبت سبتاً ، وقوله : رحلوا العيس ، يعني بالعيس الهمم امتطتها القلوب من غير علم مني بذلك ، ولا أدري السهو كان مني ، أو نبا طرفي عن إدراك ذلك من غير سهو ، فأخذ يقول :

لم يكن ذاك ولا هذا وما كان إلاّ وَلَهٌ قد غلبا

قال : ما سهوت ولا نبا طرفي ، وإنما شغلني بحبه حجبني عنه ،

كما حكى عن مجنون بنى عامر حين جاءته ليلى فى حكاية طويلة ، فقال لها : إليك عنى فإن حبك شغلنى عنك .

يا هموماً شرَدت وافترقت خلفهم تطلبهم أيدى سبا
أىّ ريحٍ نسمت ناديتها يا شمال يا جنوب يا صبا

تفرق أهل سبأ معلوم وهو المذكور فى القرآن (ومزقناهم كل ممزق)[1] يقول : همومى تفرقت كتفرق أهل سبأ على المقامات والحضرات بطلب هذه البغية المحبوبة التى فارقتهم ومالم تجد فهى تسأل ، أى ريح هبت عيها ، يريد عالم الأنفاس لتنفس عنه بعض ما يجده من الكرب برائحة تهدى بها إلى مشامّه من عرف طيبهم المسك ، فيقول لهذه الرياح :

هل لديكم خبرٌ مما نبَا قد لَقينـا من نواهم نَصَبَا

النصب التعب ، والنوى الفراق ، فأخذ يقول ما قالت له الريح إجابة له عن ندائه إياها وسؤاله :

أسندت ريحُ الصَّبا أخبَارَها عن نباتِ الشيح عن زهر الرُّبا
إن من أمْرَضَهُ دَاءُ الهوى فليعلل بأحاديث الصبا

يقول : أسندت ريح التجلى حديثاً عطريًّا طيب النشر تخبر فيه أن من أمرضه الهوى فما له علالة إلاّ بالحديث فيه وعنه وبما يحدث منه كما قال :

---

(١) من الآية ١٩ من سورة سبأ .

أَعِدِ الحديث على من جنباته   إن الحديث على الحبيب حبيب

ثم قال :

ثم قالت يا شمال خبّرى   مثـــل ما خبرتهُ أو أعجبا

ثم أنتِ يا جنوب حدثى   مثل ما حدثته أو أعذبا

قالت الشمال عندى فرجٌ   شاركت فيهِ الشمال الأذيبا

كلُّ سوء فى هواهم حسناً   وعذابى برضـــاهم عَذَبا

قالت الريح الشرقية لريح الشمال ولريح الجنوب أخبراه مثل ما خبرته وأعجب وأعذب عساه يجد راحة ، ولم يجعل للريح الدبور هنا ذكر وذلك أن المحب لا يستدبر جهة محبوبه أبداً أدباً وعشقاً فما هو معه إلاّ على أحد ثلاثة أوجه ، إما المواجهة وهى التى كنى عنها بالصبا وهى القبول أيضاً ، وإما الجنوب وهى التى تأتى عن اليمين ، وإما الشمال وهى التى تأتى من جهة القلب، فالصبا تعطيه علم خلق الله آدم على صورته والجنوب تفيده علم أصحاب اليمين وهى القوة الإلهية المقرون معها السلام ، والشمال تفيده عين المقربين وهو المقام الذى بين النبوة والصديقية ، ولا يناله إلا الأفراد خاصة والخضر منهم ، وقد شهد له القرآن بذلك ، وهو مقام عزيز مايعثر عليه كل أحد من أهل طريقتنا ، وأما أبو حامد رحمه الله فأنكره لأنه لم يكن له فيه قدم ولا عرفه فتخيل أنه من تخطا رقاب الصديقين من الأولياء ، فقد وقع فى النبوة وأساء الأدب ، وليس الأمر كما زعم أبو حامد ، فإن هذا المقام الذى نبهنا عليه هو بين الصديقية والنبوة وهو المقام الذى وقع التنبيه عليه

فى حق الصديق الأكبر بالسر الذى وقر فى صدره نطق على المقربين فى قلب العارف ، فقال عندى فرج يعرفه ريح الجنوب وهى الأزيب وهى لغة الملكية، وبهذا الاسم تسميها أهل اليمن، قيل وما هو الفرج ، قال إنما يطرأ العذاب على المحبين من عدم الملاءمة لما فى أغراضهم ، فإذا فنى المحب عن غرضه وكان مع ما يريده منه وبه محبوبه صار كل شىء فى هواه حسناً لأنه غرض لمحبوبه فيه وإرادته كما قيل ، وكل ما يفعل المحبوب محبوب وعذب العذاب منهم فى رضاهم كان عنده أحلا من الشهد ، وإذا كان الأمر بهذه المثابة ويكون المحب صادقاً فى هذا المقام لم يشكو ما يجد ولا يجد حزناً ولا يشكو تعباً ، فإن إرادته عين إرادة محبوبه ، فقد اتفق له جميع ما يريده ومن اتفق له مراده فهو مسرور ، فلذا قال بعد ذلك ، ثم أخذ يقول فى صورة وعدهم :

فإلى ما وعلى ما ولما يشتكى البثَّ وتشكو الوَصَبا
وإذا ما وعــدوكم ما ترى برقهُ إلاّ بَرِيقاً خُلبا

يقول: إذا وقع الوعد منهم كان مثل برق الخلب وهو البرق الذى ليس معه رعد ولا مطر أى لا ينتج شيئا كالريح العقيم ، وإن وعدهم هنا إنما هو بمشهد ذاتى ، ولهذا شبهه بالبرق وجعله خلبا لأن المشهد الذاتى لا ينتج شيئا فى قلب العبد لأنه لا ينضبط ولا يتحصل منه سوى شهوده عند خفقانه فإنه يتعالى عن أن يحصره كون أصلا بخلاف التجلى فى الصورة فى عالم

التمثل ، فإن الرائى بضبط صورة ما تجلى له و يعبر عنها كما ورد فى الخبر من ذلك كثير فيما لا صورة له حسية .

رَقَمِ الغيم على رُدْنِ الغما من سنا البرق طرازاً مُذْهِبا
فجرت أدمعها منهـــا على صحن خديها فأذكت لهبا

قوله (رقم الغيم على ردن الغما) يريد المعنى الذى تضمنه قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) [1] وكنى بالغيم عن المغيب ، وقد تبدل الباء ميما يقال لازم ولازب وجعله رقماً لنفوده فله الدلالة عليه سبحانه من وجهين فكما يستدل عليه سبحانه فى عالم الشهادة كذلك يستدل عليه فى عالم الغيب كما ورد فى الخبر أن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم فإن الطراز هو العلم الذى فى الثوب مشتق من العلامة وجعله من البرق يريد دلالة ذاتية وجعله مذهبا لأن الذهب أشرف مايرقم به ويستعمل وجعل الرقم على الردن وهى الكم محل اليد التى تقع فيها البيعة الإلهية وأوقع الدلالة فى الثوب لكونه يظهر على صورة اللابس ، وقد وسعه قلب العبد المؤمن التقى الورع ، وقد قال (كنت سمعه وبصره) فلهذا جعله موضع العلامة عليه فالمقصود أنه يريد إشهاداً ذاتياً خلف حجاب الكون لتحقق عبد إلهى به محبوب أن الله خلق آدم على صورته وفى رواية على صورة الرحمن وقوله فجرت أدمعها يعنى ما أمطرته الغمامة من المعارف الشهودية فى روضات

---

(١) الآية ٢١٠ سورة البقرة .

القلوب الإلهية ، فأذكت لهبا أى أورثت فى القلوب اصطلاما وهيبة وعظمة ثم قال :

وردةٌ نابتة من أدمعٍ نرجسٌ تمطر غيثا عَجَبا

يقول معارف الاصطلام تحرق ولا تنبت ، وهذه قد أنبتت ، وشبه العيون بالنرجس يقول والرؤية تعطى علما بقوله تمطر غيثا من أعجب الأشياء لأن المرائى لا ينضبط هنا ولا يحصل فى النفوس منه علم تضبطه النفس عند الانفصال من حالة الرؤية لأن المرائى لا يتقيد فلا ينضبط فى العالم التقييدى وكل ما سوى الحق فهو مقيد الذات فإنه مرتبط وجوده بوجود خالقه إذ لولاه لم يكن ، ثم قال :

ومتى رُمْت جناها أرسلت عِطْفَ صدغيها عليها عقربا

يقول : متى رمت استفادة منها لتحصيل صفة تشرف النفس نسبتها منعك من ذلك صفة وجهية تحرقك سبحاتها(١) فلا تصل إلى ذلك أبداً .

تشرق الشمس إذا ما ابتسمت ربَّ ما أنور ذاكَ الحَببَا(٢)

يقول تظهر العلوم القطبية التى عليها مدار علوم العالم إذا كان من هذه

---

(١) سبحات وجهه أى جلاله وعظمته ، والمعنى لو انكشف من أنوار الله التى تحجب العباد عنه شىء لأهلك كل من وقع عليه ذلك النور كما خر موسى عليه السلام صعقاً وتقطع الجبل دكا لما تجلى الله سبحانه وتعالى لهما .

(٢) الحبب بفتح الحاء والباء الموحدة البرد .

الصفة مثل هذا القبول الذى كنى عنه بالتبسم وشبه بريق أسنانها ببريق الحبب .

يطلع الليل إذ ما أسدلت فاحما جثلا أثيثا غيهبا[١]

يقول: تظهر العلوم الغيبية من نفوس العارفين إذا ما أسدلت هذه الصفة الذاتية حجب الشعور بالأمور الخفية الدقيقة لأن الإشعار بالشيء لا يقتضى تحقق العلم .

يتجارى النحل مهما تفلت رب ما أعذب ذاك الشنبا

يقول: ما تحقق هذا العارف فى نفسه تحققا إلهيا إلى أن وصل إلى المقام الذى نبه عليه الشارع بكنت سمعه وبصره صار كلامه حقا محضا ووحيا[٢] مطلقا والله يقول (وأوحى ربك إلى النحل)[٣] يقول فالقلوب التى للمريدين فى مقام هذا الحيوان المعبر عنه بالنحل إذا تكلم هذا العارف تلقت منه المعارف كتلقى النحل الوحى من عند الله، يقول : وهو وحى سرور وجمال وإنس لأنه عذب الجنى فأثمر الحلاوة .

---

(١) الجثل بسكون المثلثة الكثير الملتف من الشعر والشجر . الأثيث الكثير العظيم .

(٢) الوحى الإلهام وقد بين هذا المعنى بالآية التى ذكرها ولا ينزل الوحى إلا على الرسل .

(٣) من الآية ٦٨ من سورة النحل .

وإذا مالت أرتنا فننا أورنت سالت من اللحظ ظُبا[1]

يقول وإذا مالت فيأماميل الغصن المثمر لتدنوا قطوفها إفادة الهيه فهذا هو العطف الإلهى لكن الغصن لا يميله سوى الرياح وهى الهمم منا فمتى ما تعلقت همة العارف بأمر الهى من جانب الحق أمالت ما تعلقت به إليه فناله مقصوده .

كم تناغى بالنقا من حاجرٍ يا سليل العربى العُرُبا[2]
ما أنا إلاّ عربى ولذا أعشق البيض وأهوى العرَبا

يقول كم تناغى بالكثيب الأبيض المعلوم عند القوم الممنوع مقامه أن تكون لاحد فيه قدم الإحسان وهو المشاهدة والبهت[3] فهلا أشغلت نفسك بالاستعداد لما يعطيه مقام ذلك الكثيب عن أن يخطر لك فى الإحسان خاطراً أصلا فأجاب وقال الإحسان الذى أطلب هى من نتائج الأمر الأصلى الذى عنه صدرنا وأنا عربى فأهوى من الحسان العربا للمناسبة اللفظية والأصلية فلا ينكر على من جرى على ما يعطيه أصله وحقيقته وحاله ، ثم قال :

لا أبالى شرّقَ الوَجْد بنا حيث ما كانت به أو غربا

يقول لا أتقيد بالمقامات والمراتب وإنما أتقيد بها فحيث ما ظهرت لى كنت بحيث هى لأنها مطلوبى ثم أنها تلقى إلى بحسب ما تراه لا بحسب

---

(١) الظبا جمع ظبة ، السيف وهو طرفه وحده .

(٢) العرب بضمتين جمع عروب وهى المرأة الحسناء المتحببة إلى زوجها .

(٣) البهت بفتح الباء الحيرة .

ما أريد فإن العلم لها والأمر ليس لى فلا أبالى حيث يسير بى وجدى الضمير فىّ قالوا يعود على من جرى على الوسائط والحجاب .

كلما قلت ألا قالوا أما وإذا ما قلت هل قالوا أبا

يقول : كلما قلت ألا ينظرون فى أمرى عندها عسى أحظى منها بما حظى من اعتنى به من الواجدين مثلى . يقولون أما تنظر إلى وجوهنا كيف هى مصروفة إليك محجوبة عنها وإن كن أسبابا قد وضعنا لنيل المقاصد ، لكنه ما لنا عناية تقتضى ما أشرت به إلينا ، فإن الأسباب ما وضعت أسبابا لشرفها على الآخذين الأمور عندها ، وإنما وضعت اختباراً وبلاء وتمحيصاً لكم فإن وقفتم معها لم تعطوا شيئاً إلا بوجودها ، وتتركون فى الحجاب فإن تجاوزتم عنا إلى من نصبنا فقد فزتم بالمطلوب .

وقوله : وإذا ما قلت هل من وصل للمطلوب واتصال ، فيقولون : قد أبا أن يصل إليه من يطلبه بنا لكن من طلبه به وصل إليه كما يقول العارف عرفت الله بالله حين يقول المتكلم عرفت الله بمخلوقاته ، فجعل دليلا عليه من ليس بينه وبينه مناسبة ، فمن عرف الله بالله فقد عرفه ، ومن عرف الله بالكون فقد عرف ما أعطاه ذلك الكون لا غير .

ثم قال :

ومتى ما أَنْجَدُوا أو أَتْهَمُوا أقطع البيـــد أحث الطلبا

سامرى الوقت قلبى كلما أبصر الآثار يبغى المذهبا

يقول : إذا سلك قلبى وهو فى مقام المعرفة بالأرواح العلوية ، وأبصر

المعارف التى تحملها حقائق الأرواح العلوية ، وأراد الإفادة منها ، وعلم أنها ما تطأ مكاناً إلا حيي ذلك المكان لوطأتها لأنها أرواح مجردة فحيث ما ظهرت أكسبت الحياة من ظهرت فيه .

يقول : أتبعتها أنجدت أو أتهمت ، فقوله : أنجدت إذا ظهرت فى الأجساد الممثلة فى عالم التمثيل كصورة جبريل فى صورة دحية ، وقوله : أتهمت مثل أرواح الأنبياء ، يقول : ظهرت فى الأجسام الترابية لا الجسدية البرزخية ، فنى أى باب ظهرت وعرفتها أقفو أثرها لآخذ منه فأفعل به ما فعل السامرى لما قبض من أثر جبريل فيكون عندى همة أحييها وأحيي بها من وقعت له به عناية واعتدلت نشأته واستوت خلقته ، أعنى فى التربية والسلوك وتهياء محله لقبول فيضان الروح نفخت فيه مما حصل لى من ذلك الأثر فحيى به فكان تحت حيطتى ، وهـــذا باب من أبواب من أعطى التصريف فتركه أو ظهر به إن شاء ، وتركه تسليما وأدبا ، كما قيل لأبى السعود هل أعطيت التصرف ؟ قال : نعم ، وتركناه تظرفا . يريد لم يكن غرضنا المزاحمة ، بل لله الأمر من قبل ومن بعد ، وشغلى بعبوديتى أولى بى من ظهورى بخلعته ، هى لمن تجب له لا لى فمن وقف مع الأصول كان أكمل فى المعرفة ممن حجبته هذه الخلع الإلهية ، كما قال أبو يزيد : ليس بى يتمسحون وإنما يتمسحون بحلية حلانيها ربى ، فكيف أمنعهم ذلك وذلك لغيرى ومن نظر الخلعة التى كساها الحق للحجر الأسود ، وعرف الحجر عرف

ما أشرنا إليه ، وذلك كان مقام أبو يزيد[(١)] وشيخنا أبو مدين رحمهما الله تعالى .

ثم قال :

وإذا هم شرقوا أو غربوا كان ذو القرنين يقفو السببا
كم دعونا لوصـــال رغباً كم دعونا من فراق رهبا

يقول : هذه الأرواح التي ذكرنا إذا كانوا في مقام حمل الأنوار والأسرار التي كنى عنها بالمشرق والمغرب ، كان قلبي مثل ذي القرنين أي مالك الصفتين ، أقفوا الأسباب التي توصلني إلى نيل ما عندهم به . وقوله : كم دعونا ، يقول : وكم سألنا التمكن من الأحوال حتى نحكمها ، فلا نخاف فرقة ولا نعد وصلة .

يا بني الزوراء هذا قمـــر عندكم لاح وعندي غربا
حَرَبي والله منه حربي كم أنادي خلفه واحربا
لهفَ نفسي لهفَ نفسي لفتى كلما غنى حمـــام غيبا

يقول : يخاطب أصحاب الميل الكائنين في حضرة القطب الداخلين تحت دائرته هذا قمر يشير إلى تجلى ذاتي في هذا المقام .

---

(١) أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامي من أئمة الصوفية وكان يقول إذا نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الشريعة .

يقول : عندكم لاح بوجود الإمام القطب ، وعندى غربا ، أى ذلك المعنى الذى ظهر لكم فى الأمام هو باطنى وسرى ، فجعل نفسه من الأفراد وكنى بالزوراء وهى بغداد لكونها مسكن الإمام الظاهر صاحب الزمان فى عالم الشهادة ليعرف السامع ما أراده هذا القائل .

وقوله : * حربى والله منه حربى * مما يقاسى من سطواته ، وقوله : خلفه مع كونه عنده ، يشير إلى عدم الإحاطة وأنه معه فى باب المزيد كما قال تعالى : (وقل رب زدنى علماً) .

وقوله : (لهف نفسى) البيت بكماله ، يقول : واحربى لمن مقامه من الفتيان كلما سمع من الأرواح البرزخية ما تحمله من الوحى الذى نالته فى غشيانها عند الصلصلة التى هى كسلسلة على صفوان إشارة إجمالية يغيب هذا القلب كما غابت ، فلك تلك الأرواح عند ذلك السماع ، ولهذا قال عليه السلام : « وهو أشده علىّ » وكان يفنى عن نفسه ، أعنى عن حسه ، ويسجى إلى أن يسرى عنه وقد وعى ما جاء به ، وللوارث حظ من ذلك.

* * *

وقال رضى الله عنه

أضاء بذات الأضا بارق من النور فى جوها خافق

وصلصل رعدُ مناجاتِه فأرسل مدراره الوادِقَ

يقول : لاح لى مشهد ذاتى بذات الإضاء من تهامة ، يريد بما أضاء لى مقام التواضع من الرفعة عنده فإنه من تواضع لله رفعه الله ، فيظهر نور الرفعة للعارفين فى عين التواضع ، وهو مقام العبودية ، ولهذا قال : (فى جوها خافق) لما كانت تتضمنه ، وقوله :

* وصلصل رعد مناجاته *

البيت بكماله ، يقول : وخاطبها مخاطبة تعليم وتفهيم ، فكست من العلوم التى كنى عنها بالمدرار على حسب ما اقتضاه الشهود .

تَنَادَوْا : أَنيخوا ، فلم يسمعوا فصِحت من الوجد : يا سائق !
ألا فانزلوا ها هنا وارتَعوا فإنى بمن عندكم وامِق

لما كانت العلوم ليست مطلوبة لأنفسها ، وإنما تطلب من حيث متعلقها كان الشغف من العالم بالمتعلق لا بالعلم ، وهو الذى أراد بقوله : بمن عندكم يخاطب العلوم فإن عندها متعلقها ، أى بكم أصل إليه ، وقوله : تنادوا أنيخوا ، أى اثبتوا هاهنا عند من يطلبكم ويتعشق بكم ، إذ ليس كل قلب يطلب هذه العلوم فكأنه مثل الناصح لها ، أى انزلوا فى محل من يهواكم ويفرح بقدومكم فتحظون وترفعون ، يريد تبقون عنده ، ألا ترى إلى العلوم التى تعطى الأعمال إذا كان صاحبها تاركاً للعمل يمقته علمه ، ويتمنى أنه لم يكن عنده ، فإن حياة ذلك العلم إنما هو العمل فكأنه حصل عند من

ليس له بأهل كما ورد « لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها » فقد نسب الظلم لمن جعل الشيء في غير أهله ، وجعل ذلك الشيء مظلوماً .

بهيفاء غيداء رُعْبُوبَةٍ   فؤاد الشجى لها تائق (١)

يفوح الندى لدى ذكرِهاَ   فكلُّ لِسَان بها نَاطِق

يقول : متعلق هذا العلم صفة إذا تجلت في عالم التمثل كانت معتدلة الخلق مائلة لمن يهواها طرية الحسن تتوق إليها الأفئدة التي نار الاصطلام تطلع عليها ، ومهما ذكرت في مجلس عطر المجلس ذكرها لطيب ريّاها فصارت معشوقة بكل لسان فيرتاح للنطق بها فكأنها صفة تأخذها العبارة وسببه كونها ظهرت في عالم التمثل فقيدها النعت لكن يعلم السامع العالم ما أشار إليه المعبر في هذا النعت كما عرف ما أشير به في اللبن من حقيقة العلم ، والفطرة التوحيدية .

فلو أن مجلسها هضمة   ومقعدها جبل حالق (٢)

لكان القَرار بها حالقاً   ولن يدرك الحالقَ الرامق (٣)

يقول : من علو شأنها يعلو بها كل من قامت به ، يريد أن كل علم

---

(١) رعبوبة بضم الراء بيضاء حسنة رطبة حلوة أو ناعمة .

(٢) جبل حالق : أي جبل مرتفع .

(٣) رجل يرموق : ضعيف البصر .

يوصلك إلى حيث متعلقه ، ولهذا العلم بالذات الإلهية لا يصح أصلا لأنه لا يوصلك إليها لعزتها وإنما تصل إليك على قدرك فى علمك بها فتحقق فلو كان مجلسها موضع منخفض ومقعدها جبل مرتفع لـكان المنخفض بها مثل الحالق من غيرها والحالق لا يدركه الرامق لعلوها ، فـكيف إذا اتفق أن تحل فى قلب له من العلو بمنزلة الجبل الحالق ، فأين ينتهى به من الرفعة والشأن قصد علو المـكانة كما قال فى علو المـكان الإدريسى (ورفعناه مكاناً علياً) .

فـكل خراب بها عامرٌ وكل سراب بها غادقُ
وكل رياض بها زاهرٌ وكل شراب بها رائق

يقول فـكل قلب خرب بالغفلات وأشباهها من رؤية الأكوان إذا حلت فيه أو تجلت له يعمر وانقادت إليه جميع العلوم كما ورد فى خبر الضربة للنبى صلى الله عليه وسلم ، فعلم منها علم الأولين والآخرين يقول (وكل سراب بها غادق) يقول إذا جئت إلى السراب وهو سراب يتخيل أنه ماء وتـكون عندك هذه الصفة فإنك تجده ماء كما طلبته وكما رأيته إذ الماء لا يطلب لعينه وإنما يطلب لما يكون منه فإذا أعطاك السراب ما أعطاك الماء لوجود هذه الصفة ، فقد وجدت الماء أى وجدت المطلوب كما قال (ووجد الله عنده) أى عند السراب حين لم يجده شيئاً يعنى السراب يقول وهو من الرياض بمنزلة الأزهار التى تعطى لذة العيون والمشام وهى ألطف من الأذواق

الطعمية ، أى لها أثر فى عالم الأنفاس والشهود ، وقوله : وكل شراب بها رائق ، أى كل ذوق حصل لك فى مبادى التجلى ، فإنه يصفو ويروق ويحلو معناه بوجود هذه الصفة .

فليلىَ من وجهها مشرقٌ ويومى من شعرها غاسق

يقول : وقد حصل لى بها علم الغيب من شعرها ، وعلم الشهادة من وجهها ، فأشرق ليل هيكلى الطبيعى من نورها ، وصار عالم شهادتى بوجودها عيناً عند النظر ، أى حصل لى من القوة بحيث أن أظهر فى الصورة المختلفة كعالم الغيب ، كما هو الخضر وبعض الأولياء ، كقضيب البان وغيره .

لقد فلقت حبة القلب إذ رماها بأسهمها الفالق
عيونٌ تعودنَ رشيق الحشا فليس يطيش لها راشق

يقول : هذه النكتة فلقت حبة القلب حين رماها بها الفالق سبحانه من قوله : (فالق الحب والنوى)[1] وفالق الإصباح فى حبة القلب عندما فلقها من العلوم والتجليات ، وقوله : عيون ، يعنى المناظر العلوية تعودن إصابة القلوب التى لها تعشق بها وتعلق فهى ترميها بما عندها من العلوم والهبات فتصيبها ولا تخطيها ، فإن الرقيقة الممتدة بين القلوب وبين هذه المناظر متصلة اتصال الدخان بالسراج من رأس الفتيلة .

---

(١) من الآية ٩٥ من سورة الأنعام .

فما هامةٌ فى خراب البِقاع ولا ساق حرٍّ ولا ناعق

يا شأمَ من باذل رحّلوا ليحمل من حسنه فائق

ويترك صباً بذات الاضا قتيلاً وفى حبهم صادق

يقول : لا شىء أشأم من حالة تحول بينك وبين هـذه الصفة الإلهية التى تحيى القلوب بوجوده ، فإن الحال إذا قام بالقلب ملكه ، ويبقى السرّ الربانى الذى أضاء له هذا المشهد الذاتى طريحاً لا معين له على دوام ما قد لاح له مع صدقه فى التوجه إليه ، وذلك للطريان هذا الشؤم الذى كنى عنه بالباذل ، وجعله حاملاً لهذه الصفة المحبوبة لكونه حال بينهُ وبينها بحلوله .

***

وقال رضى الله عنه

يذكرنى حال الشـــبيبة والشرخى

حديث لنـا بين الحديثـــة والـكرخ

فقلت لنفسى : [أبعد] خمسين حجة

وقد صرت من طول التفكر كالفرخ

تذكرنى أكناف سلع وحاجـــــر

وتذكر لى حال الشـــبيبة والشرخ

وسوق المطايا منجـــداً ثم متهماً

وقد حىّ لهـا نار القفار مع المرخى

يقول : بعد الوصول إلى مقام إتيان الذكر المحدث بالتنزيل الإلهى يذكر لى حالة السلوك فى مقام احترام الحجب المغيبة عنى التى ترفعها الأعمال بما تعطيه من الحقائق والهمم من غير رؤية منى فتردنى إلى العمل على مقام الحجاب من الحالة التى أنا عليها اليوم من العمل على الكشف بإسقاط رؤية الرؤية فكيف غيرها ، وأراد بالخمسين حجة عمر هيكله فى زمن هذا القول وقوله : تذكرنى أكناف سلع ، استشراف مدّ لى من أول تجليات الورث المحمدى ، وتذكر لى حال الشبيبة والشرخ ، أو أن البداية وسوق المطايا يقول ويعنى الهمم علواً وسفلاً ، فأما علواً فمعلوم ، وأما سفلاً فلحديث لو دليتم حبلاً لوقع على الله ، وقوله : وقد حى لها نار القفار مع المرخ ، أى الأمور التى لا تكون عن الأسباب المحجوبة بغطائها عن ظهور الأمر على ما هو عليه فكأنه أراد فى هذه الأبيات يعتب نفسه حيث خطر له هذا الخاطر فى حال تمكنه وقوته وعلوّ مقامه واستدامة كشفه .

* * *

وقال رضى الله عنه

أطارح كل هاتفة بأيك ... على فنن بأفنان الشجون

فتبكى ألفها من غير دمع ... ودمع الحزن يهمل من جفون (١)

يقول : أطارح كل لطيفة روحانية ظاهرة فى صورة برزخية على غصن ثابت بروضة من المعارف الإلهية بحقيقة تناسبها منى تدل على حسرة الفوت

---

(١) همل الدمع من باب قعد جرى .

حين فاز أمثالى بما فازوا به ، ثم قال : فتبكى ألفها ، يقول : بكاء الأرواح من غير دمع وبكائى بدمع لوجود هذا الهيكل الذي أنتجنى فقد شاركتها فى بكاء من غير دمع لكونى على ما هى عليه من الحقائق من حيث الروحانية وزدت عليها بالبكاء الطبيعى الذى لا مشرب لها فيه ، فكان وجدى متضاعف لهذا السبب فعندى فوق ما عندها ، فكأنه يخاطب الأرواح المفارقة لعالم الطبيعة بعد أن كانت متصلة بها ومانالت شيئاً فى زماننا لشغلها بنيل شهواتها .

أقول لها وقد سمحت جفونى بأدمعها تخـبّر عن شئون
أعندك بالذى أهـواه علمٌ وهل قالوا بأفيـاء الغصون

يقول لها فى حال بكائى بلسان حالى المعبر لها بما أحمله : أعندك بالذى أهواه علمٌ لأنك فى مقام الكشف لمفارقتك عالم الظلمة وحبسى فيها إلى الأجل المسمى ، وهل لهم ظهور بظلال هذه النشآت الطبيعية فاطلبهم فيها ، فإن الله تعالى يقول : (وظلالهم بالغدو والآصال)(١) أخبر عنهم بالسجود والسجود لا يكون إلاّ مع الشهود والمعرفة لا مع غير ذلك ، ولا سيما وقد قال بعضهم : أنا الحق ، وقد قال الحق تعالى : (فبى يسمع وبى يبصر) تخبرينى إن كان الأمر على ما استفهمتك عليه ، فانظر كيف أرفع الحجاب عن عينى وأشهده فى كونى .

***

---

(١) الآية ١٥ من سورة الرعد .

وقال رضى الله عنه

عند الجبال من كثيب زرود صيدٌ وأسدٌ من لحاظِ الغيد

صرعى وهم أبناء مَلحمة الوغى أين الأسودُ من العيون السود

فتكت بهم لحظاتهن وَحَبَّذَا تلك الملاحظ من بنات الصيد

يقول : إن القلوب التى لها الإقدام والجرآت كالأسود ولها المنصب العالى من أصلها العالى من أصلها الكريم مع قوتها وكريم أصلها عند ما يتجلى إليها هذه المناظر العلى بالمكانة الزلفى حيث المحل الأزهى يبقون صرعى قتلى هيامًا فيها قد فتكت بهم تلك اللحظات العلى ، وحبذا هى من ملاحظات أقدسية من صفات علوية قدسية منزهة عن ناظر بها كريم ملك ، كما قال تعالى : (فى جنّات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر)[١] .

***

وقال رضى الله عنه

ثلاث بدور ما يزن بزينة خرجن إلى التنعيم معتجرات[٢]

حسرن عن أمثال الشموس إضاءةً وليّن بالإهـــلال معتمرات

وأقبلن يمشين الرويدا كمثل ما تمشى القطا فى أكلف الحبرات

يقول : خرجن من حضرة الربوبية والملكية والألوهية ثلاثة أسماء مقدسة

---

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر .

(٢) معتجرات : الاعتجار لبسة ـ بكسر اللام ـ للمرأة .

يطلبن ظهور آثارهن الذى به نعيمهن ، فـكنى عنه بالتنعيم ، وخرجن معتجرات من أجل أنوارهن لئلا يدرك من ليس له قوة النظر إليها فى طريقها فيهلك فلما أردن زيارة القلب المهيأ لقبولها حسرن عن وجوههن فبدت أنوارهن ، وأبّين رافعين أصواتهن لله تعالى بما يستحق له معتمرات يقول : زائرات ، وأقبلن يطلبن هذا القلب الـكريم ليشرفنه بزيارتهن .

وقوله : (فى ألحف الحبرات) يعنى عليهم من زينة الأسماء التوابع ، والذين هم كالسدنة لهذه الأسماء ، كما يقول لا يكون مريداً إلا عالماً ، ولا عالماً إلا حياً فصار كونه حيا مهيمناً على كونه عالماً ومريداً ، وهكذا كل أمر يتوقف وجوده على وجود أمر آخر ، فالأمر المتوقف عليه مهيمن على من توقف وجوده عليه .

ألا يا ترى نجـــد تباركت من نجد
سقتك سحاب المزن جوداً على جود
وحياك من أحياك خمسين حجة بعود على بدء وبدء على عود
قطعت إليها كل قفر ومهمه على الناقة الـكوماء والجمل العود[1]
إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى
وقد زادنى مسراه وجداً على وجدى

---

(١) القفر : المفازة لا ماء بها ولا نبات . المهمة : المفازة البعيدة . الـكوماء ناقة كوماء ضخمة السنام . العود ـ بالفتح ـ البعير المسن .

أراد ثرى نجد مركب العقل وسحائب المعارف تسقيه علماً على علم ، وخمسين حجة عمر المركب فى هذا الوقت ، والتحية : سلام الحق عليه ، مردداً بلطائف التحف ، والإشارة بالبها للحضرة والقفر والمهمه الرياضة النفسية والمجاهدة البدنية ، والناقة الكوماء الشريعة ، والجمل العودى العقل المجرب والبرق المطلوب ، والغضا الإشراق النورانى الذى لحجاب العزة الأحمى ، ومسراه لمعانه من جانب الكون ، فإن السرى لا يكون إلا بالليل ، والكون ليل .

* * *

وقال رضى الله عنه

يا خليلىَّ أَلِمَّا بالحما واطلبا نجداً وذاك العلما

وردا ماء بخيمات اللوى واستظلا ضالها والسلما

يخاطب عقله وإيمانه ، يقول لهما انزلا بالحماية الإلهية عند حجاب العزة الأحمى ، واطلبا معرفة نجدية يريد علوما وهبية ، وقوله : (وذاك العلما) يشير إلى معرفة من جهة الدليل ليجمع بين ما يستقل العقل بإدرا كه وبين ما لا يستقل بإدرا كه فيكون ممن أوتى الجوامع ، وقوله : (وردا ماء) يريد معدن الحياة الأزلية ، بخيمات اللوى يقول : بحضرة العطف الإلهى ، واستظلا طلباً للراحة فى ظلال العلم بالعجز عن درك الإدراك ، وهو مقام

الحيرة فهو الضال ، والسلما : أى فيه السلامة من التقييد بأمر ما والإحاطة به ، فإن الأمر أعز وأعلى من أن يتقيَّد بشىء أو لشىء أو تأخذها الإحاطة .

فإذا جئتما وادى منى فالذى قلبى به قد خيَّما
أبلغا عنى تحيـات الهوى كلَّ مَنْ حلَّ به أو سلما

يقول : فإذا جئتما موضع رمى الجمرات ، وهو مقام الجماعات ، يريد مواطن الملإ الأعلى على مراتبهم ، وحضرات اجتماعات الأسماء لظهور آثارهم لما قد بيناه فى بعض كتبنا من محاضراتهم . قال :

* فالذى قلبى به قد خيما *

يعنى مجالسة تلك الجماعات العلوية المعنوية الذين أشار إليهم الشارع عن ربه تبارك وتعالى أنه : « إن ذكرنى عبدى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منه » فهو ما أشرنا إليه من الجماعات فإن الجمرة الجماعة والجمرات الجماعات ومحلها تلك البقعة المخصوصة المعبر عنها بمنى ، ولما كانت هذه الحضرة محل القربة الإلهية كانت هذه البقعة محل القرابين يوم الحج الأكبر ، وقوله :

* أبلغا عنى تحيات الهوى *

البيت بكماله ، يقول لعقله يبلغ إلى خيفه ولإيمانه كذلك سلما منى على تلك الجماعات المقدسة سلام محب لهم راغب فى الالتحاق بمراتبهم إن سبقت له عناية إلهية بذلك . وقوله (أو سلما) أى لا تبلغى عنى تحيـة إلا إن رأيتم القبول ممن بلغتماه وإلا فسلما أنتما ولا تذكرانى .

ثم قال :

واسمعا ماذا يجيبون به ... وأخبرا عن دنف القلب بما

يشتكيه من صبابات الهوى ... معلناً مستخبراً مستفهما

يقول لها : واسمعا ما يردون عليكما وأخبراهم عما تعلما من حالى ودنفى بهم وما أشتكيه من رقة الحب ولطائفه إعلاناً بذلك ليسمع ذو الرحمة منهم فيشفع فربما قد سبق فى العلم أن لا يكون التقريب إلا بشفاعة فيظهر عند ذلك رجاء من هذا العبد ، وقوله : (مستخبراً مستفهماً) عن دوائه فيما قد أصابه من مقاساة الحب المانعة عن إدراك المطلوب مع وجود المحبة وانتشائها بباطنه وظاهره .

* * *

وقال رضى الله عنه

أحبُّ بلاد الله لى بعد طيبةٍ ... ومكة والأقصى مدينة بغدان

وما لى لا أهوى السلام ولى بها ... إمام هدى دينى وعقدى وإيمانى

يقول : أحب المواطن إلىَّ بعد الموطن الذى لا مقام فيه وهو اليثربى الذى يكون منه الرجوع بالعجز عن الوصول أصلا لتحقق المعرفة بالجناب الأعز ، وهو قول الصديق الأكبر : « العجز عن درك الإدراك إدراك » فما رأى شيئاً عند ذلك إلا ورأى الله قبله ، والموطن الآخر موطن

البيت الإلهى المتوجه إليه من كل وجه ، وهو القلب الـكامل الذى وسع الحق ، والوطن الثالث الأبعد الذى هو مقام التقديس والتنزيه ، يقول : أحب موطن إلىّ بعد هذه المواطن كلها موطن الإمام الخليفة على كافة الأنام الذى هو مرتبة القطب ، وذلك لـكمال ظهور صورة الحضرة الإلهية فيه من تقييد الأوامر الإلهية بالبسط والقبض ، والحيـاة والموت ، والأمر والنهى ، وأما قوله : (وما لى لا أهوى السلام) أراد مدينة السلام فإن الله يدعو إلى دار السلام ، والله الهادى إليها ، والسلام اسمه تعالى ، والعقل والدين والإيمان متعلق به ، فما لى لا أهواه ولى به هذه الأمور كلها ، ولـكن لا بد من تقدم هذه المراتب الثلاث ، إذ لا يصح وصول من غير سلوك فإنه لا وصول .

ثم قال :

وقد سكنتها من بنيّات فارس لطيفة إيمـاء مريضة أجفان
تحيِّي فتحْيِي من أماتت بلحظها
فجاءت بحسنى بعد حسنٍ وإحسان

يقول : وهـذه الحضرة القطبية الإمامية حضرة التصريف والتدبير ، وبها يظهر عالم التدوين والتسطير والتمليك والتسخير قد سكنتها أى فيها حكمة عجيبة يريد موسوية وعيسوية وإبراهيمية ، وكل ما تعلق بذلك الفن من نبى عجمى ، وقوله : (لطيفة إيماء) يريد ضعيفة الإشارة ، وقوله :

(مريضة أجفان) يقول : معشوقة المنظر فيها حنان ورقة وتعطف فيرجو الكلف بها أن ينال مقصوده منها لما هى عليه من الحنان ، ولهذا قال تحيي أى تسلم فتحيي بسلامها من أماته النظر إليها عندما لحظته هيبة وجلالا ، وقوله :

* فجاءت بحسنى بعد حسن وإحسان *

كما قال لجبريل عليه السلام : « إن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » ، وهذا مقام وإحسان آخر دونه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فإلى هذا هى الإشارة بقوله : (بحسنى بعد حسن) وأما قوله : (وإحسان) هو ما يهبك هذا التجلى الامتنانى من لطائف المعارف وشواهد هذه الفرائد ولآلى الأسرار وجواهر العلوم .

* * *

وقال رضى الله عنه

نفسى الفداء لبيضٍ خُرَّدٍ عُرُبٍ
لعبنَ بى عند لثم الركن والحجرِ
ما تستدلُّ إذا ما تهت خلفهمُ
إلاَّ بريحهم من طيب الأثر

يقول عند المبايعة الإلهية ، ظهر لى علوم فى صورة متجسدة فى عالم التمثل

حسان ثبتن عن أنفسها بمعلوماتها ، ولـكن مقام الإيمان لا من خيث العقل ولذلك جعلها خرداً أى حييَّات وقوله (ما تستدل) أى ما تجد دليلا إذا جئت فى طلبهم إلا بما تركوه من آثارهم الطيبة فى قلوب العارفين الحاملين لهذه العلوم ، فإن المعانى إذا قامت بشىء أوجبت له حكمها ووصف الطالبين لها بالتيه الذى هو مقام الحيرة لعلوها وعزة إدراكها ، ثم قال :

ولا دجى بى ليلٌ ما به قمرٌ   إلاّ ذكرتهم فسرت فى القمر

يقول ولا دجى بى ليل جهالة وذكرتهم إلا أقمر ليل جهالتى هذا حال سلوك وقد يقول ولا دجى بى ليل حيرة وتيهاً إلا فكان ذكرى إياهم سبب لإزالة ذلك التيه والحيرة لوقوفى بهم على حقائق الأمر على ما هو عليه ذلك الأمر .

وإنمـــا حين أمسى فى ركابهم

فالليل عندى مثل الشمس فى البُـكر

يقول: وإنما حين أمسى صحبة هذه العلوم فلا جهل يعترينى ولا حيرة وتـكون حيرتى مثل الشمس أى تظهر علوما ومعارف ، وقوله فى البـكر معها راحة فإن الشمس فى الظهيرة لا يستطاع المشى إليها لشدة حرها فتـكون المشتاق عند ذلك ، فلهذا قيد بالبـكر .

غازلت من غزلى منهنَّ واحـــدةً

حسناء ليس لها أخت من البشر

يقول: تعشقت من هذه المعارف بمعرفة واحدة علوية ذاتية من مقام المشاهدة ما لها مثل ولا شبه كما قال (ليس كمثله شيء) وقوله من غزلى أى الحب صفة لازمة لى وقوله واحدة إشارة إلى عين التوحيد .

إن أسفرت عن مُحياها أرتك سناً　　مثل الغزالة إشراقاً بلا غُبر

للشمس غرتها لليل طرتها　　شمس وليل معاً من أعجب الصور

فنحن بالليل فى ضوء النهار بها　　ونحن فى الظهر فى ليل من الشعر

يقول: إذا زالت الحجب التى بينك وبينها ظهرن لك سبحات كالشمس صحواً لا يعتريها سحاب كما قال عليه السلام (ترون ربكم كالشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب) وقوله (للشمس غرتها ولليل طرتها) هو ما تحمله من علوم الشعور أى علوم الرمز والإخفاء مثل أحاديث التشبيه وغير ذلك ، وقوله (شمس وليل معاً من أعجب الصور) يقول الجمع بين الضدين لا يتصور عقلا وها قد تصور وهو عجب كما قال أبو سعيد الخراز وقيل له بمَ عرفت ربك فقال بجمعه بين الضدين بقوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) من وجه واحد لا من جهتين مختلفتين كما يقول صاحب علم النظر الواقف مع عقله أنتحكم على الحق بدليله هيهات وأين الألوهية من الكون وأين المحدث من حضرة العين كيف يدرك من له شبه من لا شبه له للعقل عقل مثله وليس للحق حق مثله محال وجود ذاتين وإلهين لا يشبه شيئاً ولا يتقيد بشيء ولا يحكم عليه بشيء بل ما يضاف إليه إلا بقدر ما تمس

حاجة الممكن المقيد إليه غير ذلك من الشمس بعقله فما عرفه كيف يلتمس بأمر هو عقله عاجزاً فقيراً مستمداً تعالى الله عن إدراك المدركين علواً كبيراً (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وقوله (فنحن فى الليل فى ضوء النهار به) البيت بكماله يقول عينه شهادة وشهادته عيناً فى نفس الأمر نظراً إليــه لا إلى عقلك ولا إلى إضافتك ولا نسبك وقد أشار صاحب الخلع إلى شيء من هذا فى قوله أى اسم أخذته من الأسماء كان مسمى بجميع الأسماء وسبب التوحيد ذلك العين وعدم التشبيه بالكون وهذا مشهد عزيز لا يناله إلا الأعز من عباده المتوحدين به الذين لا نظر لأنفسهم إلا بعينه والمغيب كونهم فى كونه الموحد له لا لهم حينئذ بهذه المثابة عرفت ما أقول فلا تطلب بالعقول مالا يصح إليه الوصول .

وقال رضى الله عنه

طلعت بين أذرعات وبصرى بنت عشر وأربــع لى بدرا
قد تعالت على الزمان جلالة وتسامت عليه فخراً وكبرا

لما أوقع التشبيه بالبدر جاءه الزمان مذكوراً لارتباطه به فى عدة الشهور يريد بهذه المذكورة النفس الكاملة ، وقصد ذكر هذا المكان لأنه منتهى النبى صلى الله عليه وسلم من الشام وفيه ظهرت عليه آيات فى حديث بحيرا ونسب إليها صفة الكمال وأعطاها من العدد أكمله وهو الأربعة فإن فيها العشرة ونزهها عن التقييد بالزمان لعدم التحييز ، ثم قال :

كل بدر إذا تنــــاهى كمالا   جاءه نقصه ليكمل شهرا
غير هذى فما لها حركات   فى بروج فما تشفع وترا

يقول وليس تشبهه من كل وجه وإنما قصدنا صفة الـكمال وكونها محل التجلى لـكونها على الصورة والبدر مجلى الشمس ، ثم قال (بدر إذا تناهى فى كماله) يرجع وينقص ليظهر الشهر بحساب العالم ، وهذه ليست كذلك إنما هو كمال لا يقبل النقص لعدم التقييد ، كما أنها لا تقبل الحركة فلا تقطع مساحة فلا تشفع وترا يقول إن لها مقام الوحدانية ولا يتصل بها أحد لعدم الجنسية لعلو مكانتها وكمالها .

حقة[1] أودعت عبيراً ونشرا   روضة أنبتت ربيعاً وزهرا
انتهى الحسن فيك أقصى مداه   ما لوسع الإمكان مثلك أخرى

يقول لما كان محل العلوم الإلهية والمعارف والأنفاس الرحمانية شبهها بالحقة التى فيها العبير وهو أخلاط من الطيب كذلك فيها فنون من العلوم والنشر الرائحة وهو ما لها من التعليم والإفادة لمن هو دونها ، ولذلك شبهها بالروضة لما فيها من الأزاهر والثمار بما يناسبها من العلوم والمعارف والأحوال والأسرار والمقامات وقوله (انتهى الحسن فيك أقصى مداه) البيت بكماله المراد به ما أراد أبو حامد بقوله : وليس فى الإمكان أبدع من هذا العالم إذ لو كان وادخره لـكان بخلا ينافى الجود وعجزاً يناقض القدرة وهو كلام

(١) الحقة بالضم وعاء من خشب .

محرر لم يفهمه وشرحه هنا لا يليق بهذا المجموع ، وقد ذكرناه فى كتاب المعرفة .

***

وقال رضى الله عنه

رعى الله طيراً على بانةٍ قد أفصح لى عن صحيح الخبر
بأن الأحبة شدوا على رواحلهم ثم راحوا سَحَر

يدعو للنبى عليه السلام وهو الطير على البانة فالبانة نشأته والطير لطيفته حين أخبر بنزول الحق جلا جلاله إلى سماء الدنيا الحديث وفيه حتى يتصدع الفجر ولما كانت القلوب لها أوقات مع الله تعالى وأوقات مع نفوسها وحظوظها نسب الوقت إلى نزول الحق وظهوره فى ليل هيا كل الطبيعة وفجره ما ينسلخ فيه من التجليات الإلهية بالعلم المصون المخزون وجعل الرواح فى السحر وهو اختلاط الضوء والظلمة والجلال فى حين نزولها يريد آية فى عالم البرزخ ينظر إلى ذلك من الألوهية على ما هى عليه فى نفسها من التنزيه والتقديس والعظمة والجلال فى حين نزولها إلى التبشيش [1] والضحك والفرح والتعجب والسبات والمكر ، وأمثال ذلك ، وإلى هذه الإشارة بالسحر .

---

(١) التبشيش : به آنسه وواصله .

فسرت وفى القلب من أجلهم جحيم لبينهم تسـتعر
أسابقهم فى ظلام الدُّجى أنادى بهم ثم أقفــوا الأثر

يقول هذا العارف : فسرت وفى قلبي برحيلهم منى نار تأجج ، وهى التى تطلع على الأفئدة . ثم قال : أسابقهم أى أعلو همتى بالسرا إلى محل الاستوا الذى إليه تـكون الرحلة وللعلا على قدر ما يعطيه الوقت من المعرفة بالحـال ، وقوله : (ثم أقفو الأثر) يريد التخلق بالأخلاق الإلهية والاتصاف بالأسماء العبدانية والربانية بحسب الوقت والحال .

ومالى دليـل على إثرهم سوى نَفَس من هواهم عطر
رفعن السجاف أضاء الدجى فسارَ الركابُ لضـوء القمر

يقول : وما لى دليل فى سيرى خلفهم سوى ما أجده فى طريقى من نفس حبهم إياى ، وهى العناية فإنه قال : (يحبهم ويحبونه)[1] ، فذكر محبته لهم لا محبتهم له ، وقوله : (عطر) يريد طيب الرائحة ، وذلك أن الدليل فى المفاوز المهلـكة حيث لا علامة يجدها ، إنما يستدل بشم تربة الأماكن ، قال الشاعر :

إذا الدليـل أمسى استف أخلاف الطرق

وقوله :

---

(١) من الآية ٥٤ سورة المائدة .

* رفعن السجاف أضاء الدجى *[1]

البيت بكماله ، المراد بذلك ما أراد بقوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق)[2] .

فأرسلت دمعى أمام الركاب فقالوا : متى سال هذا النهر ؟
ولم يستطيعوا عبــوراً له فقلت : دموعى جرين درر

الركاب والضمير فى قالوا يعود على الملائـكة المذكورة فى قوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائـكة)[3] ، وأما قوله :

* ولم يستطيعوا عبوراً له *

لأنها دموع حزن لوقوع بين ومفارقة ، وليس عند الملإ الأعلى هذا الذوق لعدم الحجاب[4] ، فلهذا لم تعط حقائقهم عبور هذا المقام المنبه عليه بالدموع .

كأنّ الرعود لمع البروق وسـير الغمام لصـوب المطر

---

(١) السجاف ـ ككتاب ـ الستر .

(٢) من الآية ٢٣ من سورة سبأ

(٣) من الآية ٢١٠ من سورة البقرة

(٤) قوله : لعدم الحجاب ، يرده ما ذكره آنفاً ان الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم ، ويبين هذا الأثر قوله تعالى فى حملة العرش : « ويؤمنون به » ولا يكون الإيمان الا بما غاب عن الحس .

وجيب القلوب لبرق الثغور وسكب الدموع لراكب نفر

الرعود مناجاة الصاصلة ، والبروق مشاهد ذاتية ، والغمام الصور الذاتية فيها التجلى ، والمطر تنزيل العلوم والمعارف ، والمعنى مفهوم من باب التشبيه وما تقتضيه صيغة النظم .

ثم قال :

فيا من يشبه لينَ القُدُود بلين القضيب الرطب النظر

فلو عكس الأمر مثل الذى فَعلتَ لكان سليم النظر

فلينُ الغُصُون كلين القدودِ ووَرْد الرياض كوردِ الخَفَر

يقول : لما وقع فى أحاديث التشبيه إلحاق الحق بالخلق بما قد ذكر ، وجعله الناس للتشبيه ، وليس كذلك عندى ، وإنما اللفظ الدالّ على كذا من الخلق جعل ذلك اللفظ على الحق لا من حيث ما يقبله الخلق ، فلو أن هذا المتأوّل بعكس الأمر ، ويلحق الخلق بالتنزيه لكان أولى من حيث ارتباطه بالحقائق الإلهية ، كما فعلنا نحن حيث شبّهنا لين الغصون بلين قامة المحبوب الجميل ، وورد الرياض شبّهناه بورد الخدود ، وجعلنا الأصل وألحقناه به تشبيهاً من وجه ما هو دونه فالأدنى يلحق بالأعلى بوجه ما للمدح لا بعكس الأمر ، فالتبشبش على الحقيقة لله والضحك وغير ذلك ، ثم أطلق علينا بمعان تعلقها ، فهى الأصل وله القدم ، وبالأول يوقع التشبيه إذ ولا بُدّ

لا هو يشبه بشيء هذا إذا كان التنزل إلى حضرة التمثل ، وأما إذا وقع الأمر بما يناسب الحقائق على ما هي عليه فلا تشبيه ولا تمثيل ، بل كل على ما هو عليه من غير اختلاط .

***

وقال رضي الله عنه

يا أُولى الألبابِ يا أُولى النهى ... هِمْت ما بين المهاة والمها
من سهى عن السها فما سها ... مَنْ سَهاَ عن المهاة قد سها

قال تعالى : (يتنزل الأمر بينهنّ) ففى ذلك وقع الهيان بهذا العارف ، والمها الشمس ، والمها بقر الوحش ، فهذا سموا بى وهذا أرضى وبينهما وقع الهيان لهذا العارف ، وهو الذى أردنا بقوله تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ)[1] ، ثم قال : يتنزل الأمر بينهنّ ، وقوله :

* من سهى عن السها فما سها *

يقول : من غابت عنه الأمور الخفية فلم يدركها فما يقال فيه سهى عنها ، بل هى عزت عليه فلم يدركها كالمشاهد البرقية الذاتية ، وإنما يقع السهو فيمن لا يدرك الأمور الجلية لشغله عنها بأمور أخر إيثاراً له عليها كمن

(١) من الآية ١٢ من سورة الطلاق .

لا يرى الشمس وهو فيها يمشى ، فبهذا يسمى ساهياً ، ثم قال :

سربهِ بسربهِ لسربهِ فاللُّهى تفتحُ بالحمد اللَّهاَ
إنها من فتيات عربٍ من بنات الفرس أصلاً إنهاَ
نظم الحسن من الدر لها أشْنباً أبيض صافى كالمهاَ

لما ذكر المها ذكر سرب وهو أيضاً من العالم الترابى الأرضى فقال :
سربه من السير بسربه ، يعنى بنفسه لسربه من أجل هؤلاء الأحباب
الذين شبههم بالسرب ويعنى بنفسه ، أى قدم نفسك بين أيديهم قربة
وهدية ، فإنك إذا فعلت ذلك أحبوك وأثنوا عليك ، فاللها الأعطيات
تفتح بالحمد الثنا اللها جمع لهاة ، وقد قيل فى ذلك :

تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى ودمى

وقلنا فى ذلك :

وأهدى عنى القربان نفساً معيبة
وهل رئ خلق بالعيون تقربا

وكان بعض الفقراء يوماً بمنى رأى الناس يقربون قرباناتهم ، وكان فقيراً
لا شىء له فى الدنيا ، فقال : يا رب كل قد وهبته شيئاً يتقرب به إليك ،
وليس عند عبدك الفقير سوى نفسه وقد جعلتها فى هذا اليوم قرباناً إليك
فاقبلها منى ولا ترد قربانى فى وجهى إنك جواد كريم ، فمات من حينه
وهو واقف .

وقوله (إنها من فتيات) البيت بكماله ، يقول : إنها من المعارف المحدية

وإن كان أصلها أعجمياً ، فإن الله يقول لما ذكر الأنبياء فى القرآن ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)[1] ، والعجمة فى الوضع بالأصل أقدم من العربية ويجمعها الكلام والعبارة المعجمة متقدمة فلهذا قال : (من الفرس أصلا) .

وقوله : (نظم الحسن) البيت بكماله ، يقول : إن فهوانيتها معشوقة لها نور عظيم عندما تتجلى لمناجاتها ، والمها هنا حجر شفاف أبيض شبه الثغر به لما وصفها وصف الجواد .

ثم قال :

رابنى منها سفورٌ راعنى عنده منها جمالٌ وبها
فأنا ذو الموتتين منهما هكذا القرآن قد جاء بها

كانت العرب إذا حسرت المرأة النقاب عن وجهها لأحد لغير شىء ، عرف ذلك أن الشر وراءها فى حقه ، فيحذر وينظر لنفسه ، وقال الشاعر :

* وقد رابنى منها الغداة سفورها *

يقول : إن هذه النكتة التى تعشق بها العلوية رأت قد أقام منازعها فى حضرة التمثل ما يناسبها فى الصورة ميزاناً بالميزان فعلمت أنه يريد أن تخدعه

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنعام .

بذلك ليتعشق بتلك الصورة فيحجب عن هذه التى فيها سعادته فغارت عليه لأمرين شفقة عليه لئلا يجهل فيشقى ، ولأنها أيضاً يتعطل أثرها إذا راحت عنه بقبوله لتلك ، فإن العلم بالشيء يقابل الجهل به ويضاده ، فتسفر عن وجهها إعلاماً وليزيد تعشقاً ، فلهذا قال : جمال وبها .

وقوله : (ذو الموتتين) الموتة الأولى عن الأغيار ، والثانية عن نفسه فيبقى معها بها لا به ، وقوله عن مجيء القرآن بها يريد قوله تعالى : (أمتنا اثنتين) .

قلت ما بال سفور راعنى   موعد الأقوام إشراق المها
قلت إنى فى حمى من فاحم   ساتراً فلترسليه عندها

فى البيت الأول ضمير محذوف دل عليه المفهوم كأنه يقول : قالت موعد الأقوام إشراق المها ، يعنى ظهور الشمس نبهت على أن العدو الذى ذكرناه المعد له صورة مثلها مستعد عنده تجلى ذات هذه المحبوبة له يقيم هو تلك الصورة ، وهو الذى كنى عنها بإشراق المها يعنى ظهور ذاتها له من حيث يريد تحصيلها ، فقال لها ما على منهم فإنى فى حمى عصمتك فتخفينى فى سرادقات غيبك فلا يصلون إلىّ ، كما قيل فى حق الرسول عليه السلام : (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً)[1] كل هذا حتى لا يلتبس عليه فى الإلقاء وهو الذى أردنا بقولنا :

---

(١) من الآية ١٧ من سورة الجن .

(تنزلت الأملاك ليـلا على قلبي

ودارت عليه مثـل دائرة القلب)

ثم قال :

شعرنا هذا بلا قافية إنما قصدى منه حرف ها

غرضى لفظت ها من أجلها لست أهوى البيع إلاّ ها وها

يقول : ما لنا تعلق إلا بها ، ولا بالـكون إلا من أجلها بشرط أن تـكون ظاهرة فيه بأية مناسبة كانت كما قال الأول :

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الـكلاب

وكما قلنا فى صاحب لنا حبشى اسمه بدر :

أحب لحبك الحبشـان طرًّا وأعشق لاسمك البدر المنيرا

وأما قولنا : (بلا قافية) فإن القافية عند أكثر أهل هذا الشأن فى القصيدة التى يكون أواخر أبياتها هاء الإضافة أوضاعها ، إنما هى فى الحروف التى قبلها وهنا لم يلتزم ذلك فعلى هذا المذهب ، قلنا إنه بغير قافية ، وقد قيل غير ذلك .

***

وقال رضى الله عنه

ولا أنس يوماً عند وانة منزلى وقولى لركب رائحين ونزل

أقيموا علينا ساعةً نشتفى بها   فإنى ومَنْ أهواهم فى تعلل

يقول : ولا أنس يوماً وقوفى فى مقام التقصير والاعتراف بالقصور على ما ينبغى من التعظيم لجلال الحضرة الإلهية ، وقولى لركب الأبرار والمقربين الرائحين فى مرضات الحبيب والتنزل فى مقام الوقفة للارتحال بعد نيل ما نزلوا له (أقيموا علينا ساعة نشتفى بها) بالنظر إلى السعداء أهل العناية والوجد ، فإنى فى تعلل ، يقول اعلل نفسى بذكرهم لما نجده من الشوق إليهم والواو من ومن أهواهم واو القسم أقسم بهم تعظيماً وحتى لا يكون ذكره إلا هم فى قسمه وهو أيضاً من باب التعلل بذكرهم والتقدير فإنى وحق من أهواهم فى تعلل بذكرهم والساعة هنا قدر ما تقع به الراحة فى إقامتهم ولو كانت سنة .

فإن رحلوا ساروا بأيمن طائر   وإن نزلوا حلّوا بأخصبِ منزل

وبالشعب من وادى قناة لقيتُهم   وعهدى بهم بين النقا والمشلل

يراعون مرعى العيس حيث وجدنهُ

وليس يراعوا قلب صبٍ مُضلّل

يقول : فإن رحلوا ساروا بأيمن طائر ، أى يقال حسن فى وقت سعيد وإن نزلوا ، يقول : وإن أقاموا فأبذل جهدى فى خدمتهم ، يقول : وبالشعب طريق فى الجبل ، والله يقول : والجبال أوتاداً ، والأوتاد أربعة فى العالم ، يقول : ولقيتهم فى هذا المقام متبرزين ، وقوله : من وادى قناة من بطن

طيبة ، يقول : إنهم محمديون موحدون (وعهدى بهم بين النقا والمشلل)
وهو ماء بقديك حيث كان مناه ، يقول : وعهدى بهم فى رؤية الوسائط
والأسباب ينظر إلى قوله تعالى : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)[1]
ثم قال : يراعون مرعى العيس ، يقول : مطالب الهمم ومقاصدها يراعونها
حيث وجدانها ولا يراعون قلباً مائلاً إليهم حائراً تائهاً فى هواهم .

* * *

وقال رضى الله عنه

فيا حادى الأجمال رفقاً على فتى تراه لدى التوديع كاسر حنظل
يخالف بين الراحتين على الحشا يسكن قلباً طار من صر محمل

يخاطب داعى الحق الذى يدعوهم إلى دار السلام ، والأجمال الهمم رفقاً
على فتى وصف نفسه بالفتوة ليرعاه ويشفق عليه وينبهه على مقام الفتوة
ليعامله بها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « ما كان الله لينهاكم عن الربا
ويأخذه منكم فهو أولى بكل ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق » ،
ثم وصف حاله عند الفراق بحالة الذى يكسر الحنظل فى تمر وجهه ،
كما قال امرؤ القيس :

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وقوله : (يخالف بين الراحتين على الحشا) مثل الصليب ، يشير إلى

---

(١) من الآية ٣ من سورة الزمر .

اختلاف الحالات فيمسك جانب اليمين بالشمال وجانب الشمال باليمين ليسكن خفقان قلبه مما يجده من ألم مفارقة الجنس وهو يمسكه لأجل المسمى عن اللحاق بهم ، والصر والصرير الصوت ، فإنه لا يكون له صرير إلا عند السير ، وطيران قلبه ، يريد برحلته خلفهم لمنزلة البازى المربوط رجله فى الكندره[1] ، فهو يطير شوقاً إلى الانفساح فى فسحات الأطباق الجوية والرباط بالكندرة يمسكه كذلك رباط لطيفته بتدبير هذا الهيكل الذى هو بمنزلة الكندرة للبازى يمسكه إلى أن يأتى أمر الله ، ثم قال :

يقولون صبراً والأسى غيرُ صابر   فما حيلتى والصبر عنى بمعزل

فلو كان لى صبر وكنت بحكمة   لما صبرت نفسى فكيف وليس لى

يقول : لما رأى المقربون والأبرار شوقى إليهم وحبسى فى ظلمة عالم الأجساد ، قالوا لى صبراً على ما نالك إلى أن يصل وقتك : فقال لهم : إن الأسى غير صابر ، يقول : إن الحزن لو صبر عنى ولا نزل بى صبرت فهو لا يصبر فكيف أصبر عنكم وصبرى عنى بمعزل وليس لى حيلة فى تحصيله فإنى تحت حكم سلطان الوجد ، ثم إنه لو حل بى صبر ، وكان الصبر يحكم على لما صبرت ، فإن الشوق إلى الحضرة الإلهية ذاتى المعارف والصبر عرضى وأنى يقاوم العرضى الذاتى فما كنت أصبر ، فكيف والأمر

---

(١) الكندرة مجثم البازى ، وجثم الطائر : لزم مكانه فلم يبرحه ، أو تلبد بالأرض .

على هذا الحد من كون الصبر عنى بمعزل فكيف وليس لى صبر فلا ملام على من هذه حالته .

***

وقال رضى الله عنه

طلعَ البدر فى دُجى الشَّعَر وسقى الورد نرجس الحور
غادة تاهت الحِسان بها وزها نُورُها على القمر

شبه التجلى بالبدر كما ورد فى الخبر ، وشبه الغيب بالدجى ، والشعر من الشعور وهو العلم الخفى ، فكأنه يقول : ظهر الجلىّ فى الخفىّ كظهور الخفىّ فى الجلىّ ، كما تقول : وجود الحق فى الخلق وجود الخلق فى الحق ، وسقى الورد يعنى حمرة الخد نرجس الحور ، يريد العين بما ترسله من الدموع فيقع على حمرة الخدود فيكون كالروضة سقتها السماء ، والعرب تشبه العيون بالنرجس الأبيض الذى فى وسطه صفرة ، فكأنه يقول : وسقى المشهد الذاتى أو الاسم الجامع روضة الأسماء الإلهية فإنها ناظرة إليه ، وهو مهيمن عليها ، وقوله : غادة يعنى الصفة الجامعة التى وصفها بالبدر ، وقوله : تاهت الحسان بها ، يعنى توابعها من الأسماء وزها نورها ، يعنى وتكبر نورها على نور القمر ، وإنما أوقع التشبيه بالقمر للتقريب على الأفهام لا من جانب التحقيق ، ثم قال :

هى أسنى من المهاةِ سَنًا صورة لا تقاس بالصور
فلكُ النور دون أخمصها تاجها خارجٌ عن الأُكَر

يقول وهى أعظم نوراً من الشمس ولو وقع التشبيه بها ، وقوله صورة لا تقاس بالصور يريد معنى قوله (ليس كمثله شيء) على زيادة الكاف ، وجاء بلفظ الصورة لورود الأخبار فى ذلك فكيف فيما أشرنا إليه من هذه المعرفة الذاتية التى تحصل للعبد من حيث المشاهدة فى الكشف وقوله (فلك النور دون أخمصها) البيت بكماله من أراد معناه يعرف معنى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) والحديث المروى[1] « أين كان الله قبل أن يخلق العرش ؟ قال كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء » فأقرب شيء من المعانى لهذا البيت معنى هذه الآية والخبر ، ثم قال :

إن سرت فى الضمير يجرحها ذلك الوهم كيف بالبصرى
لعبـــة ذِكْرُنا يذوبها لطفت عن مسارح النظر

المعنى فى نسبة الجرح إليها عند سريانها فى الضمير هو ما يتخيله الوهم فى الجناب الأعز من التصور ، فذلك جرح فيه والوهم ألطف من الإدراك

---

(١) ذكره الحافظ البيهقى فى الأسماء والصفات وفيه مجاهيل ومن تحاشى بعض أصحاب الصحاح النقل عنه وتفرد به يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس ولا شأن لمثل هذا الحديث فى باب الاعتقاد ، ومعنى عما أو عماء حجاب معنوى يحول دون العلم به وقال الترمذى قال أحمد بن منيع قال يزيد بن هارون وهو راوى الحديث فى عماء أى ليس معه شيء اهـ .

والمعنى كما جاء فى الحديث الصحيح كان الله عز وجل ولم يكن شيء غيره .

الحسى ، فهى منزهة عن إدراك الألطف فكيف بالبصر الذى هو أ كثف ولهذا يقال فى العقائد فى جناب الحق كل ما خطر فى سرك وتلجلج فى صدرك أى حصره وهمك فالله بخلاف ذلك ، وقوله لعبة من حيث فرح القلوب بها عند نزولها إليها من حيث ما هى القلوب عليه لا من حيث ما هى وقوله ذ كرنا بذوبها أى إذا وقع الذ كر عليها لم يجدها لكون ذلك الذ كر لا يناسب لطفها ومعناها وقوله : (لطفت) أى دقت أى عن مجارى الفكر فلا تدرك بالأفكار .

طلب النعت أن يبينها فتعالت فعاد ذا حَصَر
وإذا رام أن يكيفها لم يزل نا كصاً على الأثر
إن أراح المطىّ طالبها لم يريحوا مطية الفكر

يقول لا تدرك بالنعوت والأسماء الواردة عليها فعاد النعت ذا حصر لأنه لم يجد محلاً يقبله ، فإذا جاء الخيال بتكييفه ليحمله عليها لم يقبله فارتد على عقبه راجعاً ، وإذا أ كلت الهمم التى هى المطايا من العارفين فى طلبها لوقوفهم على عجزهم فى ذلك ولأنها لا تنال بالسعايات لم ترح العقلاء الذين يزعمون أن الله يعرف بالدليل مطية فكرهم فى استخلاص العلم بها جهلاً منهم بما يعطيه المقام الأعلى ، ثم قال :

روحت كل من أشبّ بها نقلته عن مراتب البشر
غيرةً أن يشاب رائقها بالذى فى الحياض من كدَر

يقول : إن كل من تعلق بها تعلق عشق ومحبة وتخلق نقلته عن مراتب البشر إلى مقام التحول فى الصور الذى هو الأرواح المجردة وللمقام الإلهى فى التبدل والتحول فى الصور فى الدار الآخرة ، وهذا خارج عن طبيعة البشر وقوله (غيرةً أن يشاب رائقها) خلوص روحانيتها أن يخالط بالذى فى عالم الأجسام من كدر الطبيعة وظلمتها .

* * *

وقال رضى الله عنه

أحبابنـــــا أين هم بالله قولوا أين هم
كما رأيت طيفهـم فهل تُرينى عينهم

قوله أحبابنا يريد الأرواح العلوية بالأبنية اللائقة بهم فإن الأبنية لغير المتحيزات كالأبنية التى سأل النبى عليه السلام بها السوداء الخرساء وأخذ يقسم على المسئولين عليهم بالله الاسم الجامع (أين هم) والجواب هم فى قلوب محبيهم وقوله : (كما رأيت طيفهم) يريد تجليهم فى عالم التمثل والصور (فهل ترينى عينهم) يريد حقيقتهم فى عالم اللطف والمعانى من غير تجسد ، ثم قال :

فكم وكم أطلُبهم وكم سألت بينهم
حتى أمنت بينهم وما أمنتُ بينهم

يقول : وكم طلبتهم لأظفر بهم وانتظم فى سلكهم بالتخلص مما أنا فيه وكم سألت بينهم ، أى وصلهم والبين هنا الوصل قال تعالى : (لقد تقطع بينكم)[1] بالرفع ، أى وصلكم ، وقوله : حتى أمنت بينهم ، أى بعدهم ، والبين البعد وهو من الأضداد : وما أمنت بهم ، من البينية وعدم الأمن من أن يحترق بأنوارهم إذا كان بينهم لضعفه وقوتهم ، ثم قال :

لعل سعدى حائل بين النوى وبينهم

لتنعم العين بهم فلا أقول : أين هم

يقول : لعل عناية إلهية سبقت لى فى القدم تحول بين البعد وبينهم ، وأدركهم فأظفر بالمطلوب وتنعم عينى بمشاهدتهم فلا أقول بعد ذلك أين هم لحضورى عندهم وحضورهم عندى .

* * *

وقال رضى الله عنه

بين الحشا والعيون النُّجل حرب هوى

والقلبُ من أجل ذاك الحربِ فى حَرَب

لميـاء لعساء معسولٌ مُقَبَّلها شهادةَ النحل مايلقى من الضَّرَب

ريَّا المخلخل دَيجُور على قمر فى خدِّها شفقٌ غصن على كثب

(١) من الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

يقول : بين عالم الأخلاط والتداخل والمناظر العلى حرب هوى لافتقار هذا العالم إليها وتعشقها بها ، إذ لا حياة لها إلا بنظرها إليها ولا حجاب لقلوب العارفين عن إدراك المناظر العلى إلا هذا العالم الطبيعى ، والمناظر العلى متأهبة لإدراكات قلوب العارفين ، وعالم الطبيعة يحجبها عن إدراك تلك المناظر فلا تزال المحاربة بينهما ، لكن القلب بين ذلك فى حرب وفى شدة لفقده وعدم وجوده مع وجود وجده ، وقوله : لمياء ، يشير إلى حكمة علوية من تلك المناظر وصفها بسمرة الشفة إشارة إلى ما عنده من الأمور الغيبية طيبة المذاق ، وذكر شهادة النحل لأنها من الجنس الذى له ذوق فى الوحى الذى هو مطلوب القلوب ، والضرب العسل الأبيض ، فجعله العسل دليلا عد ما يدعيه النحل من الوحى إليها المشاكل لما تلقيه ، وقوله : ريا المخلخل ، يقول : ممتلئة الساق ، أى عظيمته من قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق)[1] أى عن أمر فظيع فوصفها بالعظمة ، وقوله : ديجور على قمر ، أى غيب وراء مشاهدة ، فى خدها شفقٌ ، يشير إلى مقام الحياء ، غصن على كثب ، يريد القيومية الظاهرة فى كتب التجليات .

حسناء حالية ليست بغانية   تفترّ عن برد ظلمٍ وعن شنب

تصدّ جِدًّا وتلهو بالهوى لعباً   والموت ما بين ذاك الجدّ واللعب

يقول : لها مقام الجمال من اسمه الجميل حالية مزينة بالأسماء الإلهية ليست

---

(١) الآية ٤٣ من سورة ن .

بغانية ، يقول : لم يقتضها أحد لأن الغانية هي المرأة التي لها زوج (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان)[1] ، وقوله : تفتر عن برد ، يقول : تمتن بما يبرد الأكباد من لهب الشوق والظلم بريق الأسنان ، يريد صافية المشهد والشنب طيب ذلك المشهد وحسنه ، وقوله : تصد جداً ، لما كانت عزيزة المنال عن الإدراك كنى عن ذلك بالصد ، ولما كان الأمر حقيقة في نفسه أعني عزتها جعله جداً لا هزلا ، وقوله : وتلهو بالهوى ، أي تجعله في قلوب المحبين وتعلقه بها مع كونها تعرف أنه ما يحصل لهم منها شيء فأنزلته منزلة اللهو ، وقوله :

* والموت ما بين ذاك الجد واللعب *

يقول : إن المحب يموت ويقاسي الآلام بين هاتين الحالتين ، ثم قال :

ما عسعس الليل إلا جاء يعقبه
تنفسُ الصبح معلومٌ من الحقب

ولا تمرّ على روض رياح صبا
تحوى على كاعباتٍ خردٍ عُرُب

إلاّ أمالت ونمّت في تنسمها
بما حملن من الأزهار والقضب[2]

يقول : ما يبطن أمر إلا ويظهر مقابله ولا يظهر أمر إلا ويبطن مقابله

---

(١) من سورة الرحمن الآية ١٠

(٢) القضب : كل شجرة طالت وبسطت أغصانها . اه . قاموس

أبد الآباد ، ولا سيما وقد يسمى الحق سبحانه أزلا بأنه الظاهر الباطن ، ولا يحمل على محمل النسب والإضافات هذا هو حد النظر العقلى من طريق التنزيه ، وإنما ينبغى أن يحمل على أنه أمر ذاتى هو عين المطلوب الموصوف بالوجه الذى يليق وتعرفه من نفسه ، وقوله : ولا تمر ، أرواح التجليات على روض القلوب الحاوى على الحكم اللطيفة والمعارف الحسية الحاصلة من مقام الحياء والجمال ، إلا أمالت ، يريد عطف القيومية على القائمين بالأكوان ، ونمت ، أى وصلت إلى أسماع القلوب ما عندها من لطائف الحكم فى تنسمها فى هبوبها بما حملن من الأزهار ، يريد نشر المعارف ، والقضب مراتب القيومية من قوله تعالى : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت)[1] ، ثم قال :

سألت ريح الصبا عنهم لتخبرنى قالت ومالك فى الأخبار من أرب

فى الأبرقين وفى برك الغماد وفى برك العميم تركت الحى من كثب

لا تستقل بهم أرض فقلت لها أين المفر وخيل الشوق فى الطلب

يقول : سألت الأرواح التى تعطى الشروق لتخبرنى عن منازل الأحبة ، كما قال : ونمت فى تنسمها فقالت ومالك بذلك من حاجة ، والجواب محذوف ، ثم قالت : هذه الريح تركتهم فى الأبرقين مشهدين للذات من حيث الشاهد ومن حيث المشهود ، فمن حيث الشاهد يحصل فى القلب أثر

---

(١) سورة الرعد من الآية ٣٣ .

معرفة ، ومن حيث المشهود لا يجد عند الرجوع أمراً ينضبط له ، بل يزول بزوال التجلى قوله : فى برك الغماد والغميم ، يريد المقاصد لأنها أماكن بأرض الحجاز والحج القصد على التكرار ، وقوله : عن كثب ، عن قرب كما قال عليه الصلاة والسلام فى المطر لما نزل ظهر له بنفسه صلى الله عليه وسلم حتى أصابه منه ، وقال « إنه حديث عهد بربه فهذا معنى عن كثب ، وقوله : لا تستقل بهم أرض ، أى لا يثبتون على حال ، يشير إلى التمكن فى مقام التلوين وهو أرفع المقامات عند المحققين ، وقوله تعالى : (أين المفر)[1] يقول : إن كان عدم الثبوت لهم على حال حتى أعجزوا رجع عن الطلب ، فلا أفعل فإن خيل الشوق منى فى طلبهم ما دمت وداموا والدوام لنا دائم ، فالشوق والطلب دائم سواء ثبتوا بمقام أو لم يثبتوا .

هيهات ليس لهم معنى ســــوى خلدى
فحيث كنت يكون البـــــدرُ فارتقب

أليس مطلعها وهمى ومغربها
قلبى فقد زال شومُ البان والغرب

ما للغراب نعيق فى منازلنا
وما له فى نظام الشمل من ندب

قوله : هيهات ليس لهم معنى البيت بكماله ، يريد قوله عليه الصلاة والسلام عن ربه : « ما وسعنى أرضى ولا سمائى . ووسعنى قلب عبدى

---

(١) سورة القيامة الآية ١٠ .

المؤمن »[١]، فهو محل المعرفة بالله ومجلى التجلى الإلهى ، وقوله : (أليس مطلعها وهى) يريد حين تجليها فى الصور فى عالم التمثل ، ومغربها قلبى ، يريد السعة التى ذكرناها وهى المعرفة بالله ، وقوله :

* فقد زال شومُ البان والغرب *

فإن العرب تتشاءم بالبان لأنه من البين والغرب من الغربة ، كما قال :

تعد الطائرات لبين سلمى   على غصنين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سليمى   وفى الغرب اغتراب غير دان

وقوله : ما للغراب نعيق فى منازلنا ، البيت بكماله ، يقول : وإن الناس يتشاءمون بنعيق الغراب ، وأنه من مبشرات البين وشتات الشمل ، وهنا لا يتصور فإن الذى أهواه فى قلبى ، فليس لأسباب البين فيه ندب ، أى ليس له أثر فى تفريق الشمل ، فإن الحقائق تعطى أن لا حجاب بعد التجلى ولا محو بعد الكتابة فى القلب .

* * *

وقال رضى الله عنه

حمامة البان بذات الغَضاَ   ضاق لما حملتنيه الفضا

يخاطب الحكمة المنزهة بذات الغضا الكائنة بأحوال المجاهدات

---

(١) هو أثر جليل وليس بحديث كما سبق بيانه .

والرياضات كنى عنها بالغضا ، وقوله : ضاق لما حملتنيه الفضا ، أراد ما أزيد بقوله فى الأمانة المعروضة (فأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقْنَ منها وحملها الإنسان)[1] ، والذى أراده القائل أيضاً بقوله :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

ثم قال :

من ذا الذى يحمل شَجْو الهوى من ذا الذى يَجْرَعُ مُرَّ القضا

أقولُ من وجد ومن لوعة يا ليت من أمرضنى مرضا

مرَّ بباب الدار مستهزئاً مستخفياً مُعْتجراً مُعرضا

ما ضرَّنى تعجيره إنما أضرَّ بى من كونه أعرضا

يقول : من ذا الذى يحمل آلام الهوى ، ومن ذا الذى يقدر يجرع مرّ ما يقضى به الله من الأمور التى لا تلائم لطبيعة النفس لا بمعرفة كاملة تحجبه عن تلك المرارة ، كما يحجب الدواء المرّ بما يلقى فيه من الحلاوة ليسوغ لشاربه لتحصل المنفعة . ثم قال : أقول من وجد ، أى حزن ، ومن لوعة ، حرقة الهوى ، يا ليت من كان سبباً لمرضى يلتزم تمريضى وسياستى فيكون شفائى وشغلى به عن مرضى بمشاهدته ، وقوله : مرَّ بباب الدار ، يريد الخواطر الإلهية التى تخطر له من جانب الحق من غير حلول ولا إقامة ،

---

(١) من الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

بل هى بروق تلوح ، وقوله : مستهزئاً ، من قوله تعالى : (الله يستهزىء بهم [١])، فلا بدّ من صفات تكون فى القلب تعطى حالة استهزاء ،وهى مشورة عند القوم ، وقوله : مستخفياً ، يقول فى الغيب معتجراً إشارة إلى الحجب معرضاً ، يقول : ينبه على الصفة التى حجبته عنى ، وقوله : ماضرٌ فى تعجيره يقول : لا أنكر الحجب فإنه لا بد منها ، وإنما الضرر الذى وجدته فى الإعراض فعلمت أن عندى صفة تقتضى ذلك الأعراض ، ولا أدرى ما هى فأزيلها إلا أن ينبهنى الله عليها ويوفقنى إلى معرفتها فأسعى فى زوالها فيكون القبول .

***

وقال رضى الله عنه

يا حادى العيس بسَلْعٍ عرّج   وقف على البـانة بالمدرج

ونادهم مستعطفاً مُسْتلطفاً   يا سادتى هل عندكم من فرج

برامةٍ بين النقـا وحاجر   جاريةٌ مقصورةٌ فى هودج

يخاطب داعى الحق للهمم الطالبة معرفته وشهوده ، وقوله : بسلع ، يريد بمقام الإحرام اليثربى عرج : أى أقبل ، وقوله : وقف على البانة ، يقول : وأظهر لى فى مقام القيومية والعطف بالمدرج ، يقول : على التدريج لا تلقى

---

(١) من سورة البقرة الآية : ١٥

إلى الأمر دفعة واحدة فأهلك ، لكن حالا بعد حال ومقاماً بعد مقام مخافة الدهش والحيرة ، وقوله : ونادهم ، يريد الأسماء الإلهية بلسان الاستعطاف والاستلطاف هل عندكم من فرج ، أى من شفاء لما نالنى فى هواها ، وقوله : برامة ، منزل من منازل التجريد والتفريد ، وقوله : بين النقا وحاجر ، يقول : بين الكثيب الأبيض وبين الحجاب الأحمى المحجوب على القلوب ينله جارية ، يقول : معرفة ذاتية أحدية مقصورة محبوسة فى هودج ، يقول : يشار بها ، أى أنها فى قلوب العارفين والقلوب لها كالهوادج ومراكب القلوب كالإبل تحت الهوادج ، ثم أخذ يصف هذه المعرفة الذاتية .

يا حسنَهَا من طفلةٍ غُرَّتها تضىء للطارقِ مثلُ السُّرُجِ

لؤلؤة مكنونة فى صدف من شعر مثل سواد السبج

يقول : يا حسنها من طفلة ، أى ما أنعمها وغرتها تجليها فى نورها تضىء للطارق الآتى ليلا ، يريد أهل المعارف والإسراءات مثل السرج ليهتدى بها فى ذلك المعراج ، وقوله : لؤلؤة ، أى شريفة مكنونة ، يقول : محجوبة فى صدف من شعر فى حجاب الغيب المشعور به ، ولهذا يصح طلبها لأنه مالا يشعر به لا يصح أن يطلب ولا تتعلق به همة ، ثم قال :

لؤلؤة غواصها الفكر فما تنفك فى أغوار تلك اللجج

يحسبها ناظرها ظبى نقاً من جيدها وحسنِ ذاك الغَنَج

يقول : إن الفكر يغوص فى لجة بحرها ليستخرج هذه اللؤلؤة ، وهى لا تخرج بالفكر ، فالفكر لا يزال غائصاً أبداً وهؤلاء هم أهل الأفكار الطالبين تحصيل هذه الأمور من باب النظر والاستدلال ، وهيهات لما يطلبون وبعداً لما يرومون ، والله ما تحصل إلا بعناية مجردة ، وسر فارغ عن الأفكار لأنها لا تنال بالسعايات ، ولكن بالعنايات الإلهية حصولها ، فإذا حصلت يحسبها إذا كان تجليها فى حضرة التمثل ظبى نقا فى التفاتها إليه فى الكثيب الأبيض ، وفى حسن كلامها وخطابها الذى كنى عنه بالغنج ، ثم قال :

كأنها شمس ضحى فى حمل ... قاطعةً أقصى معالى الدرج

إن حسرت برقعها أو سفرت ... أزْرت بأنوار الصباح الأبلج

يقول : كأنها شمس ضحى فى حمل بيت شرفها ، يريد تجليها فى مقام العزة والكبرياء ، وقوله : قاطعة أقصى معالى الدرج ، يقول : إشارة إلى ما يجده الناظر فى نفسه من الزيادة والعظمة والكبرياء والعزة فى إدامة النظر ، وقوله : إن حسرت ، أى إن رفعت الحجب وظهرت بوجهها طمس كل نور لنورها .

ناديتها بين الحمى ورامةٍ ... من لفتًى حل بسلعٍ يرتجى

من لفتًى متيـــه فى مهمهٍ ... مولهٍ مدَّ لهُ العقل شجى

يقول : ناديتها فى وقت الحجاب بين حجاب العزة الأحمى وبين منازل

التفريد من لفتى من الفتوة ، حل بسلع ، منزل من منازل الحرمة الإلهية قد تعلق رجاؤه به ، من لفتى متيه ، أى حائر فى عزتها وكبريائها فى مهمه فى قفر ، يريد حالة الانقطاع موله حيران مدله سكران العقل شجٍ محزون على ما فاته .

من لفتى دمعتـــه مغرقةٌ　　أسكره خمـــرٌ بذاك الفلج

من لفتى زفرتُه محـــرقةٌ　　تيمه جمـــالُ ذاك البلج

قد لعبت أيدى الهوى بقلبه　　فما عليه فى الذى من حرَج

يقول : من لفتى ، يشير إلى مقام الفتوة من قوله تعالى : (سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم[1]) ، وقوله : دمعته مغرقة ، هو ما تعطيه المشاهدة من المعرفة ، ولذلك نسبها إلى الدمع ، وقوله : مغرقة ، أى من حصل فى هذا البحر العرفانى فغرق ، يعرفه بأنه بحر لا ساحل له ، وقوله : أسكره خمر مع أنه لذة للشاربين ، وهو كل علم يعطى الابتهاج والسرور بالعلم بالكمال إذا حصل لهذه اللطيفة الإنسانية ، والفلج تفرق الأسنان ، وهى مراتب فى المعرفة ، وقوله :

* من لفتى زفرته محرقة *

يقول : اصطلامه محرق وتيمه تعبده ، والبلج تفرق الحاجبين وهو المقام الذى بين الوزيرين الإمامين فكأنه يشير إلى مقام القطب ، وقوله :

* قد لعبت أيدى الهوى بقلبه *

يقول : إنه فى تصريف الهوى وتحت حكمه فما عليه فى الذى يرومه

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة الأنبياء .

على حسب ما وقع له فى هواه ، وهو الذى ابتنى عليه الخاطر الأول من حرج يقول من جناح ولا إثم .

***

ثم قال :

من لى بمخضوبةِ البنـان من لى بمعســولة اللسان
من كاعباتٍ ذواتِ خدر نواعم خُـــرَّد حسان

يريد بمخضوبة البنان هو ما استترت به القدرة القديمة بالقدرة المحدث على مذاهب أهل النظر واختلافهم فى ذلك فيقول : من لى بها ، أى بتحصيل علم ما أحالوه من تحصيله لأقف على حقيقة الأمر ، وسبب طلبه لذلك هل يصح فيها تجلٍّ أم لا ؟ وأنا أمنع وجماعة من أصحابنا والمعتزلة لا تمنع ، وصوفية الأشعرية متوقفة ، وقوله : من لى بمعسولة اللسان ، يريد طيب الكلام ، وقوله : من كاعبات ، أى تحمل علومها وصف ذوات صون ، يريد الحجب والستر ، نواعم ما يعطونه من اللطافة ، وهو مقام الحياء والجمال . ثم قال :

بِدُور تمٍّ على غصون هنّ من النقص فى أمان
بروضة من ديار جسمى حمامـــة فوق غصن بان

يقول : لهن مقام الكمال والتمام الذى لا يعتريه نقص ولا جرم ، يريد أنهنّ بروضة منقطعة عن الروضات لانفرادها فى صفتها ، وبها حمامة لطيفة

روحانية نبوية ظهرت فى القيومية المنزهة عن الاشتراك وهو مذهب بعض أصحابنا أن القيومية لا يتخلق بها ، ثم قال :

تموت شوقا تذوب عشقا　لمـــا دهاها الذى دهانى

تندب إلفاً تذم دهـــراً　رماها قصـداً بمـا رمانى

فراق جار ونأى دارٍ　فيازمانى على زمانى

من لى بمن يرتضى عذابى　ما لى بمـا يرتضى يدان

يقول : إنها فى مقام الشـــوق والعشق ، ووصفها بالذوبان والموت ، والمراد (فاتبعونى يحببكم الله)[1] و (يحبهم ويحبونه)[2] ، وذكرها الألف يريد الصورة الجامعة ، ولما كانت الصور من عالم التمثل كان لها التقييد بالزمان أيضاً فى ذلك العالم فعلق الذم على الزمان ، وجعل السهام الصوائب له لأنه محلها وبه ظهرت فراق جار عارف الحجب بنفسه عن ربه بعد أن كان بربه لربه ، ونأى دار يريد دار طبيعته إذا رجع إليها فتحسر من هذا الزمان الذى وقع فيه البين على الزمان الذى كان فيه انتظام الشمل وقوله :

* من لى بمن ترتضى عذابى *

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١

(٢) سورة المائدة آية ٥٤

يقول : من لى يوصلها بعد هجرها ، فإن فراق الإطلاق أعظم من الفراق الأول لأنه فراق عن خبر ، وقوله :

* مالى بمـــا يرتضى يدان *

يقول : سبق العلم بأمر ما يمنع من وقوع غيره ، وهذا باب عظيم واجب غلقه وسده بأنه مهلك إلا للعارف المتمكن .

* * *

وقال رضى الله عنه

وغادرةٌ قد غادرت بغدائر شبيه الأفاعى من أراد سبيلا

سليماً وتلوى لينهـا فتذيبـه وتتركه فوق الفراش عليلا

رمت بسهام اللحظ عن قوس حاجب

فمن أى رَشْق جئتَ كنت قتيـلا

قوله : (وغادرة) يشير إلى صفة مكربة تركت بفنون علومها الغيبية التي هى من حضرة الهيبة والجلال ، من أراد الوصول إليها لديغاً من حبها وقوله (وتلوى لينها) يريد نظرة عطف من الجانب الأيمن فتذوب لتلك النظرة كما قتلته أيضاً من خلف بغدائرها ، وقوله :

* وتتركه فوق الفراش عليلا *

الفراش سريره الطبيعى المعبر عنه بالجسم ، وقوله :

* رمت بسهام اللحظ عن قوس حاجب *

يقول : وهو أيضاً قتيل بما حصل له من المناظر العلى عنـــد الشهود بالوسائط وغير الوسائط ، وقوله : (فمن أى شق) يقول : من أى ناحية جئت كنت قتيلا يقول لها الأثر فيك من أى ناحية جئتها جانباً أو أماماً أى مقابلة أو مدابرة بالملاحظة من أمام ، واللفت من جانب ، والضفائر من خلف ، وكلها للمحب أبواب مهلكة فلا راحة .

* * *

وقال رضى الله عنه

بذات الأضا والمأزمين وبارق وذى سلم والأبرقين لطارق

بروق ســيوف من بروق مباسم

نوافج مسك ما أبيحت لناشـق

فإن حوربوا سـلّوا سيوف لحاظهم

وإن سولموا هدوا عقودَ المضايق

فنالوا ونلنا لذّتين تســاويا فملكٌ لمعشوق وملكٌ لعاشق

يقول : لمقام النور وانضغاط النفس بين العالمين وحضرة التجلى الذاتى من الجانبين ومقام السلم لأهل المعارج من الروحانيين بروق سيوف من بروق مباسم ، يقول : مكر عظيم فى لطف خفى محجوب بنعمة معشوقة ، وقوله : (نوافج مسك) أى مشاهد طيبة تتعالى عن المشام أن تصل إلى

إد'ر طيب نشرها ، وقوله : (فإن حوربوا) أى نوزعوا من قوله تعالى : (كذلك يطبع الله على قلب متكبر جبار)[1] ، وقوله : (ذق إنك أنت العزيز الكريم)[2] ، وقوله عليه السلام : « وأعوذ بك منك » ، سلوا : يقول جردوا سيوف لحاظهم إشارة إلى القهر والعظمة ، وإن سولموا لم ينازعوا هدوا عقود المضايق ، أى حصلوا فى عالم الانفساخ ، وقوله :

* فقالوا ونلنا لذتين تساويا *

من باب ما ورد فى الأخبار من اشتياق الجناب الأعز إلى أهله ، وقوله : (تساويا) يريد مقام الصورة التى خلق عليها فلك لمعشوق وملك لعاشق ، أى لكل واحد فى صاحبه ضرب من التصرف بحسب ما يليق ، والأحوال تفسره .

* * *

وقال رضى الله عنه

رضيت برضوى روضة ومناخا   فإن بها مرعى وفيه نُفَاخا

عسى أهل وُدّى يسمعون بخصبه   فيتخذوه مربعاً ومناخا

---

(١) سورة غافر آية ٣٥

(٢) سورة الدخان آية ٤٩

رضوى : فيه تنبيه من مقام الرضى ، روضة : أصنافاً من العلوم ، ومناخا : مبرك الإبل ، وهى الهمم ، فإن به مرعى أى غذاء الأرواح وفيه نفاخا يريد صفاء العيش : وقوله : (عسى أهل ودى) يريد إشكاله يبلغ الهمم ما هو عليه هذا المحل الأعلى من الخصب فيتخذونه مربعاً لهممهم ، ومناخا ومحلا لحط رحالهم لوجود راحة من تعب السفر المعنوى ، فإن الأسرار قد تكل ، ولا سيما إذا كانت حركاتها فى طريق الاستدلال ثم قال :

فإن لنا قلباً بهن معلقاً إذا ما حدى الحادى بهن أصاخا(١)
وإن هم تنادوا للرحيل وفوّزُوا سمعتَ لهُ خلفَ الركاب صُراخا
فإن قصدوا الزوراء كان أمامهم وإن يمموا الجرعاء ثَمَّ أناخا

يقول عن أشكاله الذين تقدموه إلى مقصوده إن له قلباً معلقاً بهم وقد كان تعلقه بالأسرار ، ويريد بالرحلة رحلتها عنه فى وقت غفلاته ورجوعه إلى حظوظه ، وقوله :

* إذا ما حدى الحادى بهن أصاخا *

يقول : إذا مادعى داعى الحق بهم إليه أصاخ هذا القائل المحب لذلك الدعاء يقول : (وإن هم تنادوا) أى يصيح بعضهم لبعض : الرحيل ، من قوله

(١) اصاخ لهم : استمع مختاراً .

تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى[1])، وفوزوا : أى طلبوا الفوز فى مقام التجريد ، سمعت له : يعنى قلبه خلف الركاب يعنى الهمم والقلوب الراحلة عن أبدانها ، صراخا : يريد بكاه عالياً ، وإن قصدوا الزوراء حضرة القطب وسميت زوراء لميلها إلى جانب الحق المشروع ، كان أمامهم يعنى بهمته وقلبه لا بعمله ، فإنه يعجز عنهم فليس للعاجز إلاّ تقدم التمنى ، وإن يمموا قصدوا الجرعاء موطن المجاهدات وتجريع الغصص فإنه سلوك عن حجاب ، ثم أناخا يقول : يقيم لا يبرح لأنه لا يطيق حمل تلك المشـــاق ، وقد يريد أيضاً بقوله ، ثم يعنى الجرعاء إنه يقيم فى مواطن المجاهدات الشاقة من أجل نيل مقصوده .

ثم قال :

فما الطير إلا حيث كانوا وخيَّموا
فإن له فى حيهـــــنّ فراخا
تحارب خوف لى وخوف من أجلها
وما واحـــــدٌ عن قرنه يتراخى
إذا خطفت أبصـــارنا سبحاتها
أصم لهـــا صوت الشهيق صُراخا

يقول : ما تقصد الهمم إلا المواطن التى تناسبها بحكم الأصل فالعارف أبداً حنينه إلى التحقق كشفاً بالأسماء الإلهية ، وقوله :

---

(١) من الآيه ٢ من سورة المائدة .

* تحارب خوف لى وخوف من أجلها *

يقول : فى قلبى خوفان خوف من أجلى وخوف من أجلها ، وهما قرنان قويان ، كل واحد منهما لا يسأل عن صاحبه ، فالخوف الذى من أجلى هو على بصرى عند التجلى أن تخطف نوره سبحاتها ، والخوف الذى هو عندى من أجلها هو على سمعها لئلا يصم من صوت بكائى عليها وجعل المطلوب هنا قد تجلى له فى صورة برزخية فى عالم المثال فنسب إليه ما ينسب إلى الصور لما نزلت إليها احتاج هو أن ينزل فى العبارة ، وهكذا أوردت النبوءات فى كلامها ، ولا سيما وقد ورد : (ما أذن الله لشىء كإذنه لنبى يتغنى [١] بالقرآن) أى ما استمع [٢].

* * *

وقال رضى الله عنه

إذا ما التقينـــــــا للوَداع حسبتنا
لدى الضمِّ والتعنيقِ حرفاً مُشـددا

فنحن وإن كنا مثنى شخوصنا
فما تنظر الأبصارُ إلا موحدا

وما ذاك إلا من نحولى ونوره
فلولا أنينى ما رأت لى مشهدا

---

(١) يتغنى بالقرآن . قال الإمام النووى رضى الله عنه : يحسن صوته فى قراءة القرآن .

(٢) استمع : وهو إشارة إلى الرضا والقبول . والحديث متفق عليه .

الحرف المشدد حرفان مبطون أحدهما فى الآخر ، يقول : النفس عند المفارقة للجسم نحن بهذه الحالة ، فنحن وإن كنا اثنان فى المعنى فما تقع العين إلا على شخص واحد وسبب تعشقها به كونها ما نالت الذى نالت من المعارف إلا بحبسها فيه واستعمالها له فيما أمرت به من الخدمة الموضوعة الإلهية والإشارة هنا أيضاً إلى قوله (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) والوداع المذكور مع هذه الإشارة هو أن يتميز ما ينبغى له عن ما لا ينبغى لمحبوبه فيأخذ هذا صفاته وهذا صفاته ، وقوله (وما ذاك إلا من نحولى) يريد أنه من عالم اللطف ونوره يعنى لقوته ذهب ببصره عن إدراكه ولطافتى وقوله : (فلولا أنينى) يريد ما أراد المتنبى بقوله *لولا مخاطبتى إياك لم ترنى* وقال الآخر * فاطلبوا الجسم حيث كان الأنين *.

* * *

وقال رضى الله عنه

وقالوا الشموس بدار الفلك وهل منزلُ الشمس إلاّ الفلكِ
إذا قام عرشٌ على ساقه فلم يبقَ إلاّ استواء الملِكَ

يقول :وقالوا الأنوار الإلهية بدار الفلك يعنى القلب لاستدارته أشار به إلى قوله : « وسعنى قلب عبدى المؤمن» وقوله : (إذا قام عرشٌ) البيت

بكماله ، فالإشارة به إلى قوله : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى)[١]
وقوله (الرحمن على العرش استوى)[٢] وقوله تعالى (فسواك فعدلك)[٣]
كل هذا إشارة إلى المعنى ولابد لملك مهيأ من مَلَكٍ يقوم عليه وبه ،
ثم قال :

إذا خلص القلب من جهله فما هو إلاّ نزول الملك
تملكنى وتملكته فكلٌ لصاحبه قد ملك
لكونىَ مِلْكاً لهُ بينٌ وملكى لهُ قولهُ هيت لك

يقول إذا قام القلب من جهله فى مقام الإخلاص فما هو إلاّ تنزل الروحانيات العلى له عبر عنه بالتخلص من الجهل لقيام العلم به وقوله تماكنى من حيث أننى مقيد به ، وتملكته من حيث إنه ليس للأسماء ظهور إلا فى الممكن ، فمن هذا الوجه أيضاً يكون نسبة صورته تحت حيطة الخبر النبوى ، وقد فسر ذلك فى البيت الآخر فى قوله * فكونى ملكا له بين * وهو التقييد الذى ذكرناه قوله (وملكى له هيت لك) لظهور الأسماء فإنى لو لم آخذها لم يظهر لها أثر إذ لا أثر فى القدم ولا فى القديم ، ثم قال :

فياحادى العيس عرِّج بنا ولا تعد بالفلك دار الفلك
أعلك دارٌ على شاطىء بقرب المسنى وما علّلك

---

(١) من الآية ٧٢ من سورة ص .
(٢) من الآية ٥ من سورة طه .
(٣) من الآية ٧ من سورة الانفطار .

يقول: فياداعى الهم عرج بنا نحو دار الفلك الذى هو القلب لأنه بيت التجلى والسعة الإلهية ودار الفلك دار ببغداد موقف على النساء المتعبدات على شاطىء الدجلة بقرب المسنى دار الإمام رضى الله عنه فقال أعللك ، أى أورثك ذلك القرب علة الهوى ، وقوله على شاطىء يريد نهر الحياة والصدق فإنه فى مقابلة الضد فهو على التفاؤل كما يقال فى اللديغ سليم وفى الزفت بياض وكذلك دجلة وإن كانت موضوعة للكذب فإن المراد بها هنا ضد ذلك وهو الصدق ، وذلك لإزالة عين الناظر رداً لعينه لئلا تصيبها ، وقوله بقرب المسنى مقام القطب إذ كان دار الخليفة ، وما علك من التعلل كأنه يقول أمرضك وما مرضك ، ثم قال :

فليت الذى بى وحملتـــــه من الحب ربَّ الهوى حملك
فليس زرودٌ ولا حاجرٌ ولا سلم منزلٌ أنحلك

يقول لعاذله فليت الذى بى من ألم الهوى وحملته من أثقال المحبـة يحملك الله أمثالها من غير هذا الباب ، وقوله : (فليس زرود) البيت بكماله يقول وما أنحلك ممكن أصلا ولا مقام يشير إلى أن حبه لمشهد ذاتى أنزه أقدس يتعالى عن التقييد بالأماكن ، ثم قال :

ظللت لحرّ الهوى طالباً سحاب الوصال وما ظللك
أذلك عزٌّ لسـلطانه فليت كما ذلك ذلَّ ذلك
ويا ليتـــه إذ أبى عزةً تدلله ليته دلّ لك

يقول: أقمت تطلب لما أصابك من حر الهوى سحابة وصل تظلل عليك

لتنعم وتستريح فما فعل معك ذلك لأنك محجوب ، فلو كشفت قربه منك وأنه سمعك وبصرك لم يكن شىء مما ذكرت وقوله (أذلك عز لسلطانه) يقول تجلى لك فى مقام العزة فذلت للمقام لا له ، فقد كنت تعرفه وما ظهر أى حال ذله مثل ما ظهر عليك عند تجليك فى مقام العزة ، فقد يكون ذلك طعناً فى معرفتك وقوله (فليت كما ذللك) يقول كما أكسبك الذل ليته نزل إليك نزول لطف وأنس ويا ليته إذ أبى عزة هذا التنزل ليته يقيمك فى مقام الإدلال لتنبسط نفسك ويرتاح سرك ولا يبقيك فى هذا المقام الذى أنت فيه .

* * *

ثم قال :

أغيب فيفنى الشوق نفسى فألتقى — فلا أشتفى فالشوق غيباً ومحضرا

ويحدث لقياه ما لم أظنه — فكان الشفا داء من الوجد آخرا

لأنى أرى شخصاً يزيد جماله — إذا ما التقينا نفرة وتكبرا

فلابد من وجدٍ يكون مقارناً — لما زاد من حُسن نظاماً مُحرّرا

يقول: فى الغيبة يهلكه الشوق ، وفى اللقاء يهلكه الاشتياق فلا يزال معذباً ، فهو فى آلام الغيبة يرجو الشفاء باللقاء فإذا التقى يزيد وجده وذلك أن التجليات لا تتكرر وأنه ينتقل من عالٍ إلى أعلى فيكون الثانى أعلى من الأول عند الرائى فلابد أن يكون له فيه أثر يحدث عنده مزيد تعلق

ومحبة به فيه ضاعف حبه فيتضاعف شوقه فيزيد ألمه ، وذكر لفظة الشخص للخبر الوارد .

* * *

ثم قال :

القصر ذو الشرفاء من بغداد   لا القصر ذو الشرفات من شداد

يقول : الحضرة المامة من حضرة القطب هو المطلوب لأصحاب الهمم فى المقامات أن ينالوها لأنها حضرة التصرف والاستخلاف والتحكم ظاهراً وباطناً لا القصر ذو الشرفات من شداد يقول لا هذه المملكة الدنيوية التى لا يدرى مالكها ما يراد به ولا يفرق بين عدوه وحبيبه ويخاف من دخول الخلل عليه ، ويحتاج إلى الآراء ومشورة العقلاء فى تدبيره لئلا يختل عليه ملكه ، ثم قال :

والتاج من فوق الرياض كأنه   عذراء قد جليت بأعطر ناد

يقول : والتاج يريد الملك من فوق الرياض مايحمله من المعارف فكان هذا الملك عذراء مجلوة فى روضة طيبة الروائح فتكون معشوقة للنفوس ويقول الملك والعلم لا شىء أحسن منه ، ثم قال :

والريح تلعب بالغصون فتنثنى   فكأنه منها على ميعاد

يقول: والهمم تتعلق بالقيومية الإلهية فيعطفها عليهجوداً ومنة فكأنهما متواعدان على ذلك لما رأوا أن تعلقها لا يخيب، وأنها مهما تعلقت انعطفت عليها ، ثم قال :

وكأن دجلة سلكها فى جيدها والبعل سيدنا الإمام الهادى

يقول : وكأن مقام الحياة فى جيد هذا المقام سلكا فلا ينظر إلى شيء إلا حيي به ذلك الشيء إما حياة علمية أو حسية أو عملية ، ولما وصف المملكة بما توصف به النساء احتاج إلى بعل فذكر الإمام الذى هو الغوث وقطب العالم الذى عليه مداره وبيده مصالحه وسماه الهادى للتخلف الذى عنده ، ثم قال :

الناصر المنصور خير خليفة لا يمتطى فى الحرب متن جواد

يقول : إنه ناصر من حيث الهمة ومنصور من حيث العناية الإلهية وقوله (لا يمتطى فى الحرب متن جواد) يقول : نزوله عن هذا المركب الطبيعى ومفارقته له بوقوفه على حقيقته من حيث نسبته لربه ومن ذلك الوجه الذى يكون له به الشرف عنده ، ثم قال :

صلى عليه الله ما صدحت به ورقا مُطَوَّقة على ميّاد

وكذاك ما برقت بروقُ مباسم سحت له من مقلتى عواد

من خُرَّدٍ كالشمس أقلع غيمها فبدت بأنور مستنير بادى

يدعو لهذا الإمام وإن كان أعلى منه كما أمرنا بالصلاة على محمد والدعاء له بالوسيلة مع كونه أرفع منا عند ربه بل لا مناسبة فى الرفعة ، وقوله (ما صدحت به) أى ما ذكرته نفس مطوقة محصورة فى عالم الطبيعة على مياد إشارة إلى هذا الجسم الذى هو منّاها كالغصن للطائر المغرد عليه

وقوله (وكذاك ما برقت) يقول وكذلك ما لاحت له أنوار المشاهدة الفهوانية من الجناب العزيز فبكت لها عيني فرحاً أى جرت الدموع لذلك من الفرح والسرور ، فقد تجر الدموع للسرور من غير بكاء ولا يكون البكاء إلا مع الحزن ، وقوله (من خرد) البيت بكماله يعنى من أجول من مقام الحياء كالشمس إذا ظهرت بعد ارتفاع الغيث فيصفو الجو من الغبار فيكون النور أخلص وأصفى ، يقول فنورها مثل هذا النور ، وإن كان الممثل به دونه فى المرتبة .

فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

* * *

ألا يا نسيم الريح بلغ مها نجد   بأنى على ما تعلمون من العهد

وقل لفتاة الحى موعدُنا الحمى   غدية يوم السبت عند رُبا نجد

على الربوة الحمراء من جانب الضوى

وعن أيمن الإفلاج والعلم الفرد

يخاطب الرقيقة الروحانية التى يتخذها العارفون سفيراً بينهم وبين ما يريدونه وقوله (بلغ مها نجد) الأرواح العلوية بأنى على ما فارقتهم عليه من العهد فى وقت انفصالى عنهم وحبسى فى هذا الهيكل الطبيعى ، وقوله (قل لفتاة الحى) يريد الروح المناسب له من هذه الأرواح خاصة ، وقوله (موعدنا الحمى) يريد حجاب العزة فى مشهد من المشاهد أو عند انفصاله من

تدبير هذا الجسم بالموت ، فأما وأما قوله (غدية) أول زمان التجلي وجعله يوم السبت لأنه يوم الراحة والفراغ من الخلق كما ورد في الخبر[1] (عند ربا تجد) يريد المقام العالي وقوله (على الربوة الحمراء) مقام الجمال لأن الذين قسموا الألوان يقولون لون الحمرة أجمل وقوله (من جانب الضوى) العالي من المراتب وعن أيمن الأفلاج موطن السرور والعلم الفرد حضرة الفردانية التي هي دون الأحدية :

فإن كان حقاً ما تقول وعندها إليَّ من الشوق المبرح ماعندي
إليها ففي حرّ الظهيرة نلتقي بخيمتها سراً على أصدق الوَعد

يقول هذه الحقيقة الروحانية المناسبة له من ذلك العالم الناظرة إليه إن كان حقاً ما تقول في طلبك إيانا وعندك من الشوق إلى ذلك مثل الذي عندنا إليك فعند الاستواء الذي هو عدم الميل وهو وقت حصول الشمس في الموقف فيكون نسبتها إلى كل شيء على السواء كالنقطة من المحيط وخيمتها المقام الذي أقوم فيه فينزلها عليَّ أن ينزلني عليها على حسب الحال الحاكم في الوقت وقوله سراً يريد مقام الكتم مع ضرب من الالتحام عند

(١) لم يثبت في الخبر أن السبت يوم الراحة قال ابن كثير في تفسيره : وقال قتادة : قالت اليهود عليهم لعائن الله خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه « ومامسنا من لغوب » .

الاجتماع وقوله (على أصدق الوعد) يريد وعد المناسبه والحال فإنه أصدق من وعد المقال ، ثم قال :

فنلقى ونلقى ما نلاقى من الهوى ومن شدةِ البلوى ومن ألم الوجدِ

أأضغاث أحلام ؟ أبشرى منامةٍ أنطق زمانٍ كان فى نطقه سعدى

لعل الذى ساق الأمانى يسوقها عياناً فيهدى روضها إلىّ جنى الورد

يقول فتلقى إلىّ ونلقى إليها كل واحد مما عنده مما يحتاج فيه إليه وذكر شدة الاختبار ، فإن الحق جعل هذا تمحيص عباده فقال (ليبلوكم أيكم أحسن[1] عملا) وقال لنبلونكم وقوله (أضغاث[2] أحلام) يقول عن هذا الاجتماع مع حبسى فى هذا الهيكل المظلم ما أظن يتصور على حسب ما أريد وما ينبغى إلا بانقطاع العلاقة من جميع الوجوه وقطع العلاقة عن الجسم والجسد فى حق هذا الروح الجزئى محال لأنه أصله وعنه ظهر فقوته فيه بخلاف الملأ إلا على « أبشرى منامة » يقول : أوحى نبوى أو لسان الزمان وهو القال ، وذلك لعزة هذا الاجتماع ، يقول كأنه محال وقوعه وإنما هذا والله أعلم لسان الزمان نطق به أو مبشرة أو أضغاث أحلام أى لا حقيقة لها .

---

(١) من الآية ٢ من سورة الملك

(٢) من الآية ٤٤ من سورة يوسف .

ثم قال : لعل هذا يكون كلمة وافقت قدراً ، وقوله : (فيهدى روضها إلى جنى الورد) يشير إلى يحصل له من الذوق فعبر عنه بالجنى .

***

ثم قال :

ألا هل إلى الزهر الحسان سبيل وهل لى على آثارهنّ دليل ؟

وهل لى بخيمات اللوّى من مُعرس

وهل لى فى ظل الأرَاكِ مَقِيـــل

يقول : ألا هل لى إلى هذه المعارف الحاصلة من التجليات الذوقيـة من اسمه الجميل طريق إلى نيلها ، وهل لى دليل على الطريق الموصل إليهـا ، وهل لى بمقامات العطف الإلهى من إقامة وتعريس ، وهل لى فى نعيم المشاهدة فى حضرة التقديس والتطهير نصيب .

ثم قال :

فقال لسان الحال يخبر أنهـــــا تقول تمن ما إليـــــه سبيل

يقول : فقال لسان الحال يشهد بأن ذلك لا يكون ، وإن هذا المقام لا يحصل إلا لأهل الجد والاجتهاد ، والتوجه الصدق لا يحصل بالتمنى أسلك تصل .

ثم قال :

ودادى صحيح فيك يا غاية المنى وقلبى من ذاك الوداد عليـلُ

تعاليت من بدر على القطب طالع وليس له بعـد الطلوع أفولُ

يقول : ما هو تمنى بل هو ود صحيح يحملنى على ارتـكاب الشدائد فى رضى المطلوب رجاء أن يحصل منه ما يمتن به علىّ ، وجعله منتهى أمله ، ووصف قلبه بالعلة حين وصف وداده بالصحة يريد ما أثر الهوى فيه من الشدة والـكرب ، وقوله : (تعاليت من بدر) إشارة إلى حصول صفة الـكمال لها ، وقوله :

* وليس له بعد الطلوع أفول *

نبه على أن الحق ما تجلى لشىء ثم احجب عنه بعد ذلك ، هكذا تعطى الحقائق ، ثم قال .

فديتك يا من عزّ حسناً ونحوه   فليس له بين الحسان عديل
فروضك مطلول ووردك يانعٌ   وحسنك معشوق عليك قبول
وزهرك بسام وغصنك ناعم   تميل له الأرواح حيث يميل
وطرفك فتان وطرفك صارم   به فارس البلوى علىّ يصول

كنى بالروضة عن مجموع خلقه وبالطل عن مكارمها واستمدادها بظهور الأخلاق الإلهية عليها ، وبالورد اليانع مشهد مخصوص يهلك كل صفة مذمومة وبالحسن المعشوق عن العلاقة التى بينك وبينه ، وقوله (عليه قبول) يريد أنه محبوب لذاته ، وقوله : (زهرك بسام) يريد قبول قبول المعارف التى على القلب ، وقوله . (وغصنك ناعم) يريد حاملاتها منك ، وقوله :

* تميل له الأرواح حيث تميل *

لارتباطها به ارتباط الظل بالشخص ، يسكن بسكونه ويتحرك بحركته وقوله : (وظرفك فتان) يريد مقام الأدب ، وفتان محل الاختبار وطرفك صارم مشهور قاطع ، وقوله :

* به فارس البلوى علىَّ يصول *

يقول : باعث الحق فى العبد اختباراً من الحق له .

* * *

وقال رضى الله عنه

لطيبة ظَبْىَ طبىء صارم   تجرد من طرفها الساحر
وفى عرفات عرفت الذى   تريد فلم أك بالصابر
وليلة جمع جمعنا بها   كما جاء فى المثل السائر

قوله : (لطيبة ظبى) مرتبة محمدية يقال لها نظر صائب تجرد ، يقول : ظهر من طرفها من نظرها الساحر الحاكم على عالم الامتزاج ، وقوله : (فى عرفات) مقام الجمعية فى باب المعرفةعرفت الذى تريده منى فلم أك بالصابر ، يقول : استعجلت فى قضاء ذلك ، وقوله : (وليلة جمع) يقول : أقمنا فى مقام القربة فجمعنى علىَّ ولكن لفتة لأنها ليلة يعنى ثم افترقنا ، فقال :

* كما جاء فى المثل السائر *

وهو قولهم :

* فما سلم حتى ودعا *

أى كان سلامه وداعاً ، ثم قال :

بيمين الفتاة يمين فلا تكن تطمئن إلى غادر
منى بمنى نلتها ليتها تدوم إلى الزمن الآخر
تولعت فى لعلع بالتى تريك سنا القمر الزاهر

يقول : قسم الصفة التى لا قيام لها بنفسها ، فهى مفتقرة إلى غيرها ، لا يعول عليه لكونها محجوبة عن افتقارها فقد لا يساعدها فيما تريد من هى مفتقرة إليه ولا تظهر إلا به فقد يكذب يمينها ولا يصدقه ، يقول : من هذه صفته لا يعتمد على قوله ، ولا تطمئن إليه ، وقوله منى يريد ما كان يتمنى بمنى مقام الجمع فليته يدوم إلى الزمن الآخر ، وهو مقام الأنفاس ، وقوله : * تولعت فى لعلع *

أى مقام الفرح بالحب بالتى يظهر فى صورة القمر ليلة البدر إشارة إلى صفة كمال فى التجلى .

رمت رامة وصبت بالصبا وحجرت الحجر بالحاجر
وشامت بريقاً على بارق بأسرع من خطرة الخاطر
وغاضت مياه الغضا من غضى بأضلعه من هوى ساحر

يقول : رمت ما كانت ترومه لأنها رأت الأمر على خلاف ما كانت

تعتقده ، وقوله : (وصبت بالصبا) أى مالت إلى جانب التجلى وحجرت منعت المنع بمقام العزة الأحمى ، يقول : إن المراد حصل فإن المنع إذا منع كان عطاء ، فإن عدم العدم وجود ، و * شامت بريقاً على بارق * الشيم النظر إلى البرق ، يقول : أشهدت مشهداً ذاتياً ، وبارق هنا الكثيب ، وما فى معناه ، يريد حيث التجلى فهو بارق ، وقوله :

* بأسرع من خطرة الخاطر *

يقول : لا يثبت لعزته ، وقوله : غاضت ، أى نقصت مياه الغضا ، يقول : خبأة نيران الهوى من غضى ، يعنى نار قلبه التى أضرمها هوى هذه الفتاة والماء من عادته تجففه الحرارة فلهذا قال فاض .

ثم قال :

وبانت ببان النقا فانتقت ⁂ لآلى مكنونة الفاخــــر
وأضلت بذات الأضا القهقرى ⁂ حذاراً من الأسـد الخـادر
بذى سـلم أسلمت مهجتى ⁂ إلى لحظهـا الفاتك الفاتر

وقوله : وبانت ، يقول : ظهرت ببان النقا روضة الكثيب الذى هو مشهد الرؤية ، وقوله : فانتقت لآلى مكنونة الفاخر ، يقول : أشهدت فى أحسن صورة ، وقوله : (وأضلت) رجعت بذات الأضا موضع تجلى الأنوار القهقرى إلى خلف يريد رجوعها إلى عالم طبيعتها لئلا تحرقها تلك الأنوار ، فكان الرجوع حجاباً عن ذلك النور المحرق حذراً من سطوته

وسماه أسداً لشدته ، وخادراً لأن شدة غيره تتحدر عنده كما سمى الشجاع بطلا أى يبطل شجاعة غيره ، وقوله : بذى سلم ، مقام الاستسلام أسلمت تركت مهجتى حقيقة ذاتى إلى لحظها يريد مشهدها فى باب الرؤية الفاتك يريد القاتل لأهل الخلوات ، خاصة الفاتر اللطيف بأهل الخلوات ، فإن العارفين يهلكون بنظر الحق ويفنون والعامة لا يطرأ عليهم شىء من ذلك مع نظرهم إلى الحق وذلك لعدم المعرفة وهنا سر وهو هلاك نفسك على الحقيقة فى مثل هذه المشاهدة منك إلا أن يكون الأمر ذاتياً فحينئذ يكون منه ومنك بحيث أنك مستعد للتأثير لا غير .

ثم قال :

حمت بالحمى ولوت باللوى   كعطفة جارحها الكاسر
وفى عالج عالجت أمرها   لتفلت من مخلب الطائر
خورنقها خارقٌ للسماء   يسمو اعتلاء على الناظر

يقول : قامت فى مقام العزة تخلقاً ، ولوت : أى عطفت بالعطفات الإلهية تخلقاً أيضا ، وقوله : كعطفة جارحها يريد عزمها الماضى الكاسر كل عزم كما قلنا :

إذا فل سيفى لم تفل عزائمى   فلى عزمات شاخدات صوارمى

وفى عالج من المعالجة لتفلت من مخلب الطائر ، يقول : ما تحب الأخذ وهى فى قبضة الأرواح ، وإنما تحب أن تأخذ وهى فى قبضة الحق ذوقا

لا علماً ، فإن الأخذ من الحق قد يكون بوساطة الأرواح العلوية وقد يكون بارتفاع الوسائط .

وقوله : خورنقها ، موضع مملكتها خارق للسماء له أثر فى العلويات يسمو اعتلاء على الناظر ، يريد يفوق البصر والإشارة إلى قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار)[1] .

* * *

ثم قال :

ألم بمنزل أحباب لهم ذمم ⁂ سحت عليهم سحاب صوبها ديم
واستنشق الريح من تلقاء أرضهم ⁂ شوقاً لتخبرك الأرواح أين هم
أظنهم خيموا بالبان من أضم ⁂ حيث العرار وحيث الشيح والكتم

يقول : انزل بمنزل أحباب ، يريد الأرواح العلوية لهم ذمم عهود ، وقد يريد أخذ المواثيق الإلهية المأخوذة على أرواح الأنبياء عليهم السلام سحت عليهم ، يقول : سكبت على ذلك المنزل سحاب ، يعنى من المعارف صوبها ديم تنزلاتها دائمة ، وقوله : واستنشق الريح من تلقاء أرضهم ، معناه إنى لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن[2] شوقاً ، يريد محبة لتخبرك الأرواح ، يريد عالم الأنفاس أين هم من المقامات فإنه قال فيهم : (وما منا

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٣
(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

إلاّ له مقام معلوم)[1] ، وقوله : أظنهم، اعلم أنهم، والظن هنا بمعنى اليقين ، كما قال الشاعر :

* قلت لهم ظنو بالغى مذحج *

وقال تعالى : (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه[2]) يريد تيقنوا ، وقوله : خيموا بالبان ، أى نزلوا بمقام الظهور والتنزيه من أضم ، موضع بالحجاز ، يريد القصور الإلهية حيث العرار وحيث الشيح والكتم ، يقول : حيث الأعرار الطيبة من المناظر الحسان ، فإن طيب الروائح من الروضات أحسن من غيرها للجمع بين الرائحة الطيبة والمنظر الحسن والهواء الطيب .

* * *

ثم قال :

ألا يا بانة الوادى بشاطى نهر بغداد
شجانى فيك ميَّادٌ طروب فوق ميَّاد

يقول : للشجرة المباركة من جانب الوادى الظاهر ، وبغداد منزل الإمام يريد مقام القطب ، وهى شجرة النور ، فإن دهن البان له أثر فى النور ، وجعلها بالشاطىء لأنها أكشف وجعله نهراً لاتساع الرحمة ، وقوله : شجانى ، يقول : أحزننى فيك طائر ، يريد روحاً علوياً طروب ، يقول : مطرباً صوته إلا أن المحزون يبكيه فهو شجو فى حقه وغناء فى حق المسرور وقوله : مياد ، يشير إلى النشأة الإنسانية فى مقام القيومية ، ثم قال :

---

(١) من الآية ١٦٤ من سورة الصافات .
(٢) من الآية ١١٨ من سورة التوبة .

يذكرني ترنمه ترنم ربة النادي
إذا استوت مثالثها فلا تذكر أخا الهادي
وإن جادت بنغمتها فمن ؟ أنجشة الحادي

يقول : يذكرني بنغمته نغمة سيد المجلس ، وهي كل حقيقة لها الحكم في عالمها ، وقوله : إذا استوت مثالثها ، يعني الجسم وجعله مثالث للطول والعرض والعمق ، وقد يريد بالمثالث مراتب الأسماء الثلاثة التي هي منزل الإمامين والقطب ، وقوله : فمن أنجشة الحادي ، حادٍ كان يحدو في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يهلك الإبل بحسن صوته ، وقوله : فلا تذكر أخا الهادي ، هو عم أمير المؤمنين المأمون ، كان من أهل الغناء والتلحين ، يقول : هي أحسن منه ، ثم يقول :

بذي الخضمات من سلمى يميناً ثم سَنْدَاد
لقد أصبحت مشغوفاً بمن سكنت بأجياد
غلطنا إنما سكنت سويدا خِلْبُ أكباد
لقد تاه الجمال بها وفاحَ المِسْك والجادي

أقسم بذي الخضمات وهو حال عام كلي جامع ، وقوله : من سلمى ، يريد مقاماً سليمانياً ، فأنزله باسم الأنثى لتجانس الغزل والتشبيب ، وقوله : يميناً ، أي قسماً ثم أقسمت بمنازل الملوك ، وقوله : سكنت بأجياد ، إشارة إلى مجاري الأنفاس ، أي سكنت مجرى نفسي وهو موضع بمكة ، لكن الإشارة إلى أنه جمع جيد وهو العنق ، ثم قال : بل مسكنها الكبد ،

يقول : هى غذائى وروحى لأن الغذاء مادة الروح ، فلهذا وقع الغلط وجعلها فى محل الإمداد لا فى محل الاستمداد ، أى تمدّ ولا تستمد ، وقوله : لقد تاه ، أى حار الجمال فيها من حسنها ، وفاح المسك والحادى ، أى الذوات الطيبة الريح إنما يكسب الطيب من ريحها لطيب نفحتها .

تم بحمده تعالى وتوفيقه ومنّه كتاب

« ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق »

ويليه « الأمر المحكم المربوط فى ما يلزم أهل طريق الله من الشروط »

وهما للشيخ الأكبر سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى

نفعنا الله به وبعلومه آمين

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

« وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما »

قال الشيخ الإمام العالم المحق المحقق المتبحر محيي الدين شرف الإسلام لسان الحقائق علامة العالم قدوة الأكابر، محل الأوامر، أعجوبة الدهر، فريد العصر، أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي، ثم الأندلسي (الحمد لله) الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لما قال الله تعالى لنبيه عليه السلام (وأنذر عشيرتك الأقربين[1]) دعا محمد صلى الله عليه وسلم قرابته ووقف على الصفا وأخذ ينذرهم ويقول : ما أمر به أن يقول على ما ذكره مسلم في صحيحه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال الدين النصيحة[2] قالوا لمن يا رسول الله : قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة

---

(١) من الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .

(٢) النصيحة هي كلمة يعبر بها عن جملة هي ارادة الخير المنصوح له ، وليس يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناه غيرها .

وأصل النصح في اللغة : الخلوص ، يقال : نصحته ونصحت له ، ومعنى نصيحة الله : صحة الاعتقاد في وحدانيته ، واخلاص النية في عبادته ، والنصيحة لكتاب الله هو التصديق به والعمل بما فيه ، ونصيحة رسوله صلى الله عليه وسلم : التصديق بنبوته ورسالته والانقياد لما أمر به ونهى عنه ، ونصيحة الأئمة : أن يطيعهم في الحق ولا يرى الخروج عليهم اذا جاروا . ونصيحة عامة المسلمين : ارشادهم الى مصالحهم ، اهـ . نهاية .

المسلمين وعامتهم ، فالأقربون أولى بالمعروف فى حكم الشرع ، والأقربون على نوعين قرابة طينية ، وقرابة دينية ، والمعتبر فى الشرع القرابة الدينية ، فإن النبي عليه السلام يقول : لا يتوارث أهل ملتين ، فلولا الدين ما ورث قرابة الطين شيئاً ، ولقد أشار شيخنا أبو العباس إشارة بديعة فى هذا ، وذلك أنى دخلت عليه يوماً ، فقلت له الأقربون أولى بالمعروف ، فقال إلى الله ، وقال الله سبحانه (إنما المؤمنون أخوة[1]) فإذا ثبت الإيمان كانت الأخوة ، وإذا كانت الأخوة كانت الشفقة والرحمة ولا معنى للشفقة والرحمة إلا أن تنقذ أخاك من النار إلى الجنة وتنقله من الجهل إلى العلم ، ومن الذم إلى الحمد ، ومن النقص إلى الكمال ، فإنه لا يُكمل عبد الإيمان حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه، على ما ذكره مسلم فى مسنده ، والمؤمنون يد واحدة على من سواهم ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، فاعلم أن المؤمنين بهذا الحكم يجب نصحهم وإنباههم من الغفلة ، وإيقاظهم من نومة الجهالة ، وإنقاذهم من شقاء الحفرة النارية التى هم عليها ، غير أن المؤمنين انقسموا على مراتب كثيرة من جملتها مرتبة تسمى التصوف أخذتها طائفة تسمى الصوفية آثروا الآخرة على الدنيا واختاروا الحق على الخلق ، وما من طائفة فى مرتبة إلا وهى فى تلك المرتبة على حالين صادقة ذات حقيقة ومدعية لا حقيقة عندها ، فقرابة كل طائفة من كانت معها على طريقة واحدة ، إما بالصورة وهم المدعون الذين لا حقيقة عندهم ، وإما بالصورة والمعنى وهم المحتقون فتعين علينا لكونهم من الأقربين أن

(١) من الآية ١٠ سورة الحجرات .

ننذرهم ولكونهم من المسلمين أن ننصحهم ، ولكونهم فى مقام الأخوة أن نشفق عليهم ، واعلم أن هذا الطريق ، أعنى طريق الله الذى هو الطريق المستقيم هو أجل الطرق وأسناها ، لأن الطرق تتشرف وتتضع بحسب غاياتها ولما كان هذا الطريق غاية الحق سبحانه ، والحق أشرف الموجودات وأعز المعلومات لا إله إلا هو ، كان الطريق إليه أشرف الطرق وأفضلها ، والدال عليه سيد الأدلاء وأكملهم وأعظمهم ، والسالك عليه أسعد السالكين ، وأنجاهم فينبغى للعاقل أن لا يسلك من الطرق سواه لارتباطه بسعادته الأبدية . واعلم أن أهل طريق الله شخصان صادق وصديق ، أعنى تابعاً ومتبوعا ، فالتابع هو المريد والسالك والتلميذ ، والمتبوع هو الشيخ والأستاذ والمعلم ، وسواء كان هذا الرجل متبوعا أو لم يكن ، وإنما المعنى تأهله للشيخوخة والإرشاد لتمكنه فى ذلك المقام واستقلاله واستبداده وغرضى فى هذه العجالة أن أبين مقام الشيخوخة ولوازمها ، ومقام المريد ولوازمه ، وما ينبغى أن يتعامل به أهل طريق الله ويعاملوا به طريق الله تعالى ، ولهذا سميتها (الأمر المحكم المربوط * فى ما يلزم أهل طريق الله تعالى من الشروط) فإن الزمان مشحون بالدعاوى الكاذبة العريضة ، فلا مريد صادق ثابت القدم فى سلوكه ولا شيخ محقق ينصحه فيخرجه من رعونة نفسه وإعجابه برأيه ويعرب له عن طريق الحق ، فالمريد يدعى الشيخوخة والرئاسة ، وهذا كله تخبيط وتلبيس . واعلم أن مقام الدعوة إلى الله ، وهو مقام النبوة والوراثة الكاملة ، والحاصل فيه يقال له النبي فى زمان النبوة ، ويقال له

الشيخ والوارث والأستاذ فى حق العلماء بالله من غير أن يكونوا أنبياء وهو الذى قالت فيه السادة من أهل طريق الله من لم يكن له أستاذ فإن الشيطان أستاذه ، وإن جبرائيل عليه السلام هو أستاذ النبى عليه الصلاة والسلام ، ولقد خرّج الهروى رحمه الله فى كتاب « درجات التائبين » له ، وهو روايتى عن الشريف جمال الدين يونس بن يحى بن أبى الحسن من ذرية العباس بن عبد المطلب حدثنى به قراءة منى عليه بالحرم الشريف تجاه الركن اليمانى من الكعبة المعظمة سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال : حدثنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى السجزىّ قال حدثنا عبد الأعلى بن عبد الواحد المليحى عنه « أن الله تعالى أنزل ملكا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبرائيل عليه السلام ، فقال له : يا محمد ، إن الله خيرك إن شئت نبياً عبدا وإن شئت ملكا نبياً ، فأومأ إليه جبرائيل عليه السلام أن تواضع ، فقال صلى الله عليه وسلم : نبياً عبداً » . وغرضنا من هذا الحديث تعليم جبرائيل النبى صلى الله عليه وسلم وأنه اختار ما اختاره له فقام جبرائيل هنا مقام الشيخ المعلم ومقام محمد صلى الله عليه وسلم مقام المتعلم . ومن هذا الباب قول الله تعالى : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه[1]) ، وقوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إنا علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه[2]) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله أدبنى فأحسن تأديبى » فلا بد من مؤدب وهو الأستاذ ، فإن هذا

---

(١) من الآية ١١٥ من سورة طه .

(٢) من الآية ١٦ ، ١٧ ، ١٨ من سورة القيامة.

الطريق لما كان فى غاية الشرف والعزة حفت به الآفات والقواطع والأمور المهلكة من كل جانب فلا يسلكه إلا شجاع مقدام ويكون معه دليل علام ، وحينئذ تقع الفائدة ، فعلى الشيخ أن يوفى حق مرتبته ، وعلى المريد أن يوفى حق طريقته .

اعلم أن مقام الشيخوخة ليس هو الغاية ، فإن الشيخ أيضاً طالب من ربه ما ليس عنده ، فإن الله يقول لنبيه عليه السلام : (وقل رب زدنى علماً)(١) فصفة الأستاذ أن يكون عارفاً بالخواطر النفسية ، والشيطانية ، والملكية ، والربانية ، عارفا بالأصل الذى تنبعث منه هذه الخواطر ، عارفا بحركاتها الظاهرة ، عارفا بما فيها من العلل والأمراض الصارفة عن صحة الوصول إلى عين الحقيقة عارفا بالأدوية وأعيانها ، عارفا بالأزمنة التى تحمل المريد فيها على استعمالها ، عارفا بالأمزجه ، عارفاً بالعوائق والعلائق الخارجة مثل الوالدين والأولاد والأهل والسلطان ، عارفاً بسياساتهم ، ويجذبه المريد صاحب العلة من أيديهم ، هذا كله إذا كان المريد له رغبة فى طريق الله ، وإن لم يكن له رغبة فلا ينفع . (ومن شرط الشيخ) أن لا يترك المريد يبرح من منزله ألبتة إلا بإذنه لحاجة يوجهه فيها (ومن شرطه) أن يعاقب المريد على كل هفوة تصدر منه ولا سبيل إلى الصفح عنه فى زلة ، فإن فعل فلم يوف حق المقام الذى هو فيه فهو إمام غاش لرعيته غير قائم لحرمة ربه. فإن النبى عليه السلام يقول : « من أبدى لنا صفحة أقمنا عليه الحد » (ومن ذلك) أن يشترط على المريد أن لا يكتمه شيئاً مما يخطر له فى نفسه

---

(١) من الآية ١١٥ من سورة طه .

وما يطرأ عليه فى حاله ، ومتى ما لم يكن الطبيب يميز أعيان الأعشاب والعقاقير عارفا بتركيب الأدوية فإنه مهلك للمريض ، فإن العلم من غير العين لا يفيد فلا بد من عين اليقين وحينئذ ألا ترى لو كان للعشاب غرض فى إهلاك المريض فإذا وصف الطبيب الدواء من جهة كونه عالما به وهو لا يعرف شخص الدواء فأعطاه العشاب ما فيه هلاك العليل ويقول هذا مطلوبك ، فيسقيه الطبيب المريض فيهلك وإثمه فى عنق الطبيب والعشاب ، فإن الطبيب كان الواجب عليه ألا يداويه إلا بما يعرف عينه وشخصه فكذلك الشيخ إذا لم يكن صاحب ذوق وأخذ الطريق من الكتب وأفواه الرجال وقعد يربى به المريد طلباً للمرتبة والرئاسة فإنه مهلك لمن تبعه لأنه لا يعرف مورد الطالب ولا مصدره ، فلا بد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء ، وتدبير الأطباء ، وسياسة الملوك ، وحينئذ يقال له أستاذ ، ويجب على الشيخ أن لا يقبل مريداً حتى يختبره . (ومن شرطه) أن يحاسب المريد على أنفاسه وحركاته ويضيق على قدر صدقه فى اتباعه ، فإنه طريق الشدة ليس للرخاء فيه مدخل ، لأن الرخص إنما هى للعامة لأنهم قنعوا بكونهم ينطلق عليهم اسم الإيمان خاصة مؤدين لما فرض الله عليهم دون زيادة ومن طلب الأنفس والزيادة على مرتبة العوام فلا بد أن يذوق الشدائد فى نيل ذلك ، فإنه من أراد أن يرى الدر فى نحره فلا بد أن يقاسى ظلمة بحره ، يجنى روح الحياة عن سريانه ، فإن الغاطس فى البحر لا بد يمسك نفسه فتحقق ما ذكرنا ، وكان إمامنا أبو مدين يقول : ما المريد والرخص ، قال الله تعالى

(والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا[1]) ، فأين أنت بعد الجهاد تتضح السبيل ، وعند ذلك يكون السلوك عليها وهو سفر ، والسفر قطعة من العذاب فإنه منتقل من عذاب إلى عذاب فلا راحة ، ومن شرطه أن لا يقعد فى مقام الشيخوخة إلا أن يقعده أستاذ أو يقعده ربه بما يلقى إليه فى سره على الأمر المعهود له مع ربه فى الأخذ عنه ، ومن شرطه إذا تكلم فى مسألة وقام إليه منازع فيها أن يقطع الكلام ، فإنه لا كلام لهم رضى الله عنهم بحضرة نفس المنازع لأن علومهم لا تقبل المنازعة لأنها وراثة نبوية ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا تنوزع عنده يقول : عند نبى لا ينبغى تنازع ، وذلك لأن المعارف الإلهية والإشارات اللطيفة الربانية خارجة عن مدارك العقول من كون العقول ناظرة لا من كونها قابلة ، فلم يبق فيها إلا الكشف ، ومن أخبر عما عاين وشاهد لا يجوز للسامع النزاع فى ما أتى به ، بل يجب عليه فى حكم الطريق التصديق به إن كان مريداً أو التسليم به إن كان أجنبياً ، فإن المريد إن لم يعتقد الصدق فى ما يقوله للشيخ ، فمتى يفلح ومتى رأيت الشيخ ترك المريد يستدل عليه فى المسائل بالأدلة الشرعية أو العقلية ، ولا يزجره ويهجره عليها ، فقد خانه فى التربية ، فإن المريد لا ينبغى له الكلام إلا فى ماشاهده وعاينه ، والصمت عليه واجب ، والفكر عليه حرام ، والنظر عليه فى الأدلة محظور ، فكل شيخ ترك مريده على مثل هذه الحال ، فإنه غير مرشد له ساع فى هلاكه مضاعف لحجابه مستعمل فى طرده عن باب ربه ، والأولى بالشيخ إذا رأى المريد يجنح إلى استعمال عقله فى النظريات ، ولا يرجع إلى رأيه فى ما يدله

---

(١) من الآية ٦٩ سورة العنكبوت :

عليه فليطرده عن منزله فإنه يفسد عليه بقية أصحابه ولا يفلح هو فى نفسه ، فإن المريد عرائس الله حور مقصورات فى الخيام قاصروا الطرف عن كل مشهد سوى مشهد ما يقودهم إليه الشيخ ، ويجب على الشيخ إذا علم أن حرمته سقطت من قلب المريد أن يطرده عن منزله بسياسته فإنه أكبر الأعداء ، كما قيل :

احذر عـــدوك مرة واحذر صديقك ألف مره

فلربما انقلب الصديق فكان أعرف بالمضره

ويجب له الاشتغال بظواهر الشريعة وطريق العبادة فى العموم ، ويغلق الباب بينه وبين بقية من عنده من أولاده ، فإنه لا شىء أضر على المريد من صحبة الضد ، وللشيخ ثلاثة مجالس : مجلس للعامة ، ومجلس لأصحابه ، ومجلس خاص لكل مريد على انفراد . فأما مجلس العامة فيجب عليه أن لا يترك أحداً من المريدين يحضر ذلك المجلس ، ومتى تركهم فقد أساء فى حقهم . (وشرطه فى مجلس العامة) أن لا يخرج عن نتائج المعاملات من الأحوال والكرامات ، وما كان عليه رجال الله من المحافظة على آداب الشريعة ، واحترامهم إياها (وشرطه فى مجلس الخاصة) أن لا يخرج عن نتائج الأذكار والخلوات والرياضات وإيضاح السبل المضافة إلى الآنية من قوله « لنهدينهم سبلنا »[1] (وشرطه فى مجاس الانفراد) مع الواحد من أصحابه زجره وتقريعه وتوبيخه وإن الذى يأتى به المريد إليه أنه حال ناقص وضيع ، ونبهه على رداءة همته ونقصها ولا يفتنه بحاله ، ويجب على الشيخ أن يكون له وقت مع ربه ولا بد ولا يتكل على ما حصل له من قوت الحضور ، فقد كان عليه الصلاة

(١) من الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

والسلام يقول : لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى ، وذلك أن النفس إنما حصل لها القوة باستمرار عادة الحضور ، وترك ما سوى الله فى الظاهر والباطن ، فكذلك أيضاً نرجع بحكم عادة النقيض ، ولا سيما والطبع الذى جبل عليه يساعدها فمتى لم يتفقد الشيخ حاله فى كل يوم بالأمر الذى حصل له به هذا التمكين كان مخدوعاً بحيث أن تسترقه العادة ويجره الطبع ، ويريد الخلوة ساعة فتفقد الأنس ويجد الوحشة ، وكذلك فى توكله وادّخاره فى كل حال اكتسبته النفس مما لم تفطر عليه لأنه سريع الذهاب ، وقد رأينا شيوخاً سقطوا نسأل الله لنا ولهم العافية ، قال الله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا)[1]، فقد جمع فى هذه الآية كل رذيلة فى النفس وأبان فيها أن الفضائل مكتسبة لها ليست فى جبلتها فالتحفظ واجب (ومن شرطه) إذا وصف له المريد رؤيا رآها أو مكاشفة أو مشاهدة شاهد فيها أمراً ما أن لا يتكلم له عليها البتة ، ولكن يعطيه من الأعمال ما يدفع به ما فيها من مضرة وحجاب أو يرقيه إلى ما هو أعلى ومتى ما تكلم الشيخ على ما يأتى به المريد فقد أساء فى حقه ، فإن النفس تسقط من حرمة الشيخ عندها على قدر ما يباسطها به ، وعلى قدر ما يسقط من الحرمة من قلبه تقع الإباءة من المريد فى ما يدل عليه ذلك الشيخ ، وإذا وقف الإباءة فى الأخذ عدم الاستعمال ، وإذا عدم المريد الاستعمال وقع

---

(١) من سورة المعارج الآيات : ١٩ – ٢١ .

الحجاب والطرد ، نخرج عن حكم الطريق وأخلد ، فمثله كمثل الكلب ، نسأل الله لنا وللمسلمين العافية . (ومن شرط الشيخ) أن لا يترك مريده يجالس أحداً سوى إخوته الذين معه تحت حكمه ، ولا يزور ولا يزار ، ولا يكلم أحداً فى خير ولا فى شر ، ولا يتحدث بما طرأ عليه من كرامة ، ووارد مع إخوته ، ومتى تركه الشيخ يفعل شيئاً من هذه الأفعال فقد أساء فى حقه (ومن شرطه) أن لا يجالس تلاميذه إلا مرة واحدة فى اليوم والليلة ، ويكون له زاوية تخصه لا يدخلها أحد من أولاده إلا من يختص عنده ، والأولى أن لا يفعل حتى لا يشاهد فيها نفس مخلوق لكون ذلك مؤثراً فى الحال على قدر قوة روحانية ذلك المتنفس ، فربما يتغير الحال على الشيخ فى خلوته مع ربه من أجل ذلك النفس ، وهذا لا يعرفه كل شيخ ، ويكون له زاوية لاجتماعه بأصحابه (ومن شرطه) أن يجعل لكل مريد زاوية تخصه ينفرد بها وحده لا يدخل معه فيها غيره ، وينبغى للشيخ إذا أقعد المريد فى زاويته أن يدخلها قبله ويركع فيها ركعتين ، وينظر فى قوة روحانية ذلك المريد ومزاجه وما يعطيه حاله ، فيجتمع الشيخ فى تينك الركعتين جمعية تليق بحال ذلك المريد ثم يقعده فيها ، فإن الشيخ إذا فعل ذلك قرب الفتح على ذلك المريد وعجل له خيره ببركته ، ولا يترك الشيخ المريدين يجتمعون أصلا دونه إلا إذا جمعهم بحضرته ، ومتى تركهم يجتمعون دونه فقد أساء فى حقهم .

(تم الأمر المحكم المربوط فى ما يلزم أهل طريق الله من المشروط)